
رواية
جيوكندا بيلي
واسلالا
ذاكرة المستقبل
تليجرام : هنا سور الازبكية
مكتبة
ترجمة: حسين نهابة



واسلالا

ذاكرة المستقبل



اسم المؤلف: جيوكندا بيلي

عنوان الكتاب: واسلالا، ذاكرة المستقبل

ترجمة: حسين نهابة

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2022

Author: **Gioconda Belli**

Title: **Waslala**

Translated by: **Hussein Nahaba**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2022**

جيوكندا بيلي

واسلالا
ذاكرة المستقبل

ترجمة : حسين نهابة



إلى والديّ: أومبيرتو وغلوريا.

في ذكرى خوسيه كورونيل وماريا كاوتث.

إلى كاميلو وأدريانا.





تليجرام
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون

المدينة الفاضلة: كلمة اخترعها توماس مور،
حين اشتقها من كلمة يونانية ترجمتها «لا
مكان». حرفياً «المكان غير الموجود».

تعالوا يا أصدقائي،

لم تزل مبكرة، رحلة البحث عن عالم جديد

ادفعوا، وفي جلستكم اعتدلوا منتظمين

واضربوا الأخاديد المدويّة، فلا غاية لي

سوى الإبحار خلف أفول الشمسِ،

وخلف دروب النجوم الغربية، حتى أموت.

ربما بالخلجان نغتسل

ونلامس عندها، الجزر السعيدة

ونرى العظيم «أخيل» الذي عرفناه.

غادرنا الكثير، وما زال في جعبتنا الكثير

ولم نعد نمتلك قوة الأيام الخوالي

التي بها أقمنا الأرض والسماء،

نحنُ الذين بمزاج متفرد وقلوب بطلة

أوهنها الزمان والمصير،

ما فتئت الإرادة الصلبة تجمعنا

لنبحث، ونسعى، ونجتهد

ولا نستسلم أبداً.

يوليسيس

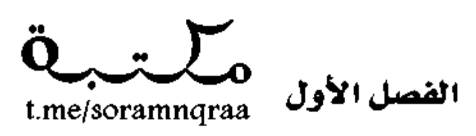
ألفريد لورد تنيسون 1833، 1842

هناك من يريد أن يصل إلى القمر، بينما ما زلنا نحن نحاول أن نصل إلى القرية.

جوليوس نيريري

رئيس تنزانيا من عام 1964-1985

مسافرون في النهر



الفصل الأول

من المؤسف أن تعرف أنها حين ترحل، لن تكون قادرة على حمل النهر المتغلغل في أعماقها مثل وشاح حول عنقها. من الصعب عليها أن تتخيل الحياة خاليةً من ذلك التيار الذي اتسمت فصوله بالصخب والوداعة، تُوحيان بانقضاء الوقت.

ألقت برأسها إلى الخلف، ورفعت ذراعيها. كانت تجلس على الرصيف، تتمطى مقوسة جسدها. جالت بنظرها على المنظر الطبيعي الممتد أمامها. كانت المياه ما تزال عكرة قليلاً بسبب مخلفات الشتاء، في النهر الذي يتسع أثناء مروره أمام المزرعة، تتوزع في منتصفه، جزر صغيرة مغطاة بالنباتات وأشجار النخيل والشجيرات والقصب التي تعطي انطباعاً عن المسار الذي فتحته الأشجار للانتقال إلى الجانب الآخر. كانت تضفي نباتات المانغروف الكثيفة بأوراقها الملتفة وجذوعها، وسيقانها الكثيرة، في ذلك الوقت من الصباح، أجواءً بيضاء وغامضة من سماء قريبة من الأرض. على الضفة المقابلة، على القمة، كان الضباب يتلاشى إلى فضاء وارف. كانت طيور مالك الحزين تُغرق مناقيرها الطويلة في الماء، وتحرك نفسها على قوائم طويلة ورفيعة مثل الفتيات اللواتي يخشين أن تتبلل تنوراتهن.

راودها شعور أن المهربين سيصلون هذا اليوم. ووصلوا فعلاً في ذلك الوقت، حين هدأت الأمطار. رسا قارب بيدرو لالتقاطهم وأخذهم إلى غري تاون. نهضت بخفة، وهي تنفض مؤخرتها براحتيها. كانت ترتدي وزرة زرقاء من نوع دريلاندكس. كانت أسارير وجهها مليحة وغريبة بالمرة، لدرجة أن جدها يقول إنها مزيج من طائر وهر. عدّلت كيس الأدوات حول

خصرها وتوجهت نحو المنزل على طريق تصطف على جانبيه أشجار جوز الهند القصيرة.

كانت الخادمة مرسيدس تتمايل، ساهمة، وهي تؤرجح الممسحة التي تنظف بها، بشكل منهجي، أرضية غرفة المعيشة وصالة الطعام الفسيحة. صحت من استغراقها في التفكير حين شعرت بوصولها، وسمعتها تقول صباح الخير.

– لديّ إحساس أن ضيوفنا سيصلون اليوم –أعلنت ميليساندرا– هل قمتِ بترتيب الأسرّة، هيلينا؟

– نعم يا ابنتي. حتى الزهور وضعتها في أصصها.

– هل جمعتِ البيض؟

– أكيد.

– والحمامات نظيفة؟

– قلت لكِ إن كل شيء جاهز. من الأفضل أن تذهبي لترتيب أوراق جدك. لابد أنه لن يتأخر بالعودة.

حدقت ميليساندرا فيما حولها. كانت أرضية الشقة غير المرصوفة، نظيفة تلمع. يبدو أن مرسيدس قامت بعملها بدقة. توجهت نحو المكتب الكائن، مثل بقية الغرف، أمام الرواق الذي يطل على النهر. اعتادت أن تقلب مكتب الجد رأساً على عقب يومياً وترتب الفوضى التي كان يكررها بانتظام. وضعت المحبرة في مكانها الصحيح على سطح المكتب وعزلت بأناقة أكوام الأوراق النظيفة عن المسوّدات. كانت عيناها تجول هنا وهناك. وقع نظرها على مسند الكتب الذي كان يرقد بداخله كتاب ذو غلاف أسود، لا أحد يعرف التاريخ الدقيق لنشره. اقتربت لتقرأ عبارة مكتوبة بخط ثخين: «الغربة في النهر تزداد اتساعاً وجمالاً يوماً بعد آخر. ربما سيكون النهر مأهولاً ذات يوم، كما خمن سكوير، وتمخر فيه السفن الشراعية والسفن التي تسير بالطاقة، وترعى في سهوله ومراعيه، الخيول والماشية، وعلى ضفتيه يمكن أن تُرى منازل مدارية مليئة بالكتب وصور الشعراء. ربما ستظل الوحدة والجمال البدائي حبيسي الكتب فقط. وربما ستهيمن الغابة مرة ثانية

على كل شيء. كل شيء جائز». شعرتْ برجفة الجمال والحنو. من العسير أن يُستنتج أنه كان يريد للنهر أن يُقطن أم لا. لم تعول على هذا الاحتمال ولا على الآخر. كان الشك، الموضوع الأبدي في حياة جدها، لأنه يؤمن إيماناً راسخاً ويكفر بنفس القدر من إيمانه الأول. كان يحلم ويخشى أحلامه. يبدأ بالمشاريع ويتركها في منتصف الطريق.

قامت بترتيب الملفات. يا لهذا الكم الهائل من البحوث، والقصائد غير المُنجزة، والقصص، والروايات والمقالات التي اكتشفتها فوق طاولته. يكفي أن تتخيلها أو تراها معروضة أمامها في مسوّدات، أو ملخصات أو إشارات توضيحية لا نهائية. حين يتحدث عنهم، يشدها الحماس لترسم في مخيلتها صوراً عن المساهمات، والتمزيق، والابتكار. نوع من اللعب، ثم تنتقل إلى شيء آخر. كانت تجد في الفضول الساحر، متعة لا تُوصف. ربما لم يكن جدها بحاجة إلى تتويج ما بداخله، فكرت ميليساندرا، لأنه يجد نفس القدر من السعادة في الأعمال الجيدة التي يقوم بها الآخرون. وربما كانت تخشى أن يواجه نبوغه، أو أن يواجه احتمالات أن العمل في نهايته لا يلبي توقعاته. هذا ما كانت تفكر به بشأن ما حدث له مع واسلالا. هو نفسه اعترف بأن شكوكه ربما كانت عائقاً أمام عدم قدرته على العودة، وأن ولادتها حالت دون تقدمه، إذ جعلته يحيا حياته الخاصة المستقلة وواقعه الخفي. لم يتمكن قط من إيجاد طريق العودة. أصبحت واسلالا هاجسه الوحيد. لقد كرّس كل ما يمتلكه من طاقة لاسترجاع الخيال لدرجة جعلِ المنزل بأكمله على وشك أن يغرق في الحنين الذي لم يعرفه أحد سواه. كانت الاستحضارات الحية التي رسم كلماتها بإتقان، تثير في سامعيه توقاً شديداً أدركته هي في وقت متأخر، بل سامحت والديها اللذين تخليا عنها ورحلا بحثاً عن هذا المكان الأسطوري.

ولحسن الحظ، أنها ستذهب هذه المرة أيضاً. وقررت أن تقوم بالرحلة. بدأت تخطط لها منذ وفاة جدتها. لكنها ما إن تقرر أن ترحل في كل عام، حتى تتعثر إرادتها وشجاعتها في اللحظة الأخيرة في مواجهة ملامح جدها. إن مجرد التفكير في تركه وحيداً، يثير في معدتها ألماً مُبرحاً. وحدته تمزقها رغم محاولاته لإقناعها أنه سيكون بخير وأنه غير غاضب منها. حبست

نفسها في المكتب لساعات طويلة. كانت تدون الملاحظات على نحو محموم في بعض الأحيان، وفي أخرى، تنغمس بهدوء، مستسلمة إلى الكتاب بين يديها، كما لو أنها تكتفي بالتواصل الصامت لتجرب من جديد ضغط الكلمات في الصفحة.

قامت بتعديل صورة والت وايتمان على الحائط وانتهت من التنظيف تماماً في اللحظة التي سمعت فيها الباب يصطفق، معلناً عن عودة الرجل العجوز من مسيرته الصباحية. لم يعتد قط على الباب المنخلي المتحرك بنابض، الذي قامت بتثبيته في الممر. كان يدخل ويتركه يصطفق بشدة بحيث يهتز المنزل بأكمله، مما يسبب الرعب للجميع، وله هو بالذات أكثر من أي شخص آخر. وجدته في غرفة الطعام متكئاً على عصاه بكلتا يديه، ووركاه مرفوعان قليلاً. حتى وهو في هذا العمر المتقدم، لم يفقد دلاله، اتزانه ونزعته الأرستقراطية. نظر إليها بعينيه الزرقاوين الغائمتين، ورفع أنفه الطويل المعقوف كما لو كان يسعى وراء رائحة ضائعة منذ فترة طويلة.

- صباح الخير، ابنتي - حياها.

- الزوّار على وشك العودة -قالت ميليساندرا- لابد أن يصلوا اليوم، إن كانت حساباتي دقيقة.

جلس الرجل العجوز على الحافة الوسطية لأحد مقاعد غرفة الطعام.

وضع العصا على الطاولة ومدّ ساقه، واضعاً يده على ركبته. شارد الذهن، خلع طاقيته السوداء ودفع شعره الأبيض الذي كان ما يزال غزيراً، إلى الوراء.

- الوقت يمضي أسرع كلما تقدمت في السن.

- لا أعرف لمَ يصرون على تسمية المهربين زواراً؟ - تذمرت مرسيدس من المطبخ، حيث كانت تقوم بقلي البيض لوجبة الإفطار.

- إنهم زوار لأنهم يزوروننا -أجاب الرجل مُتهكماً- علاوة على ذلك، ليس كل مَن يأتي، لابد أن يكون مهرباً. من غير الصحيح أن يتم تعميم الصفة على الجميع، بمجرد أن تكون مهنة القليل منهم.

- معظمهم كذلك -أصرت مرسيدس- يعلم الله ما الأعمال الغريبة التي سيقومون بها حين يدخلون.

– عليكِ أن تعترفي بأننا لا نمتلك بدائل كثيرة –تابع دون خوسيه– المهربون وحدهم لا يجرؤون على نسيان أن دولاً مثل فاغواس لا تزال موجودة. لولاهم ما كنا عرفنا شيئاً، ولا حتى مرة واحدة في السنة، عن الجديد في العالم. أتساءل مَن سيأتي هذه المرة. أتذكر منذ سنوات عديدة أن طالباً عنيداً مرّ من هنا مسافراً نحو الجنوب على دراجة بعوامات. يا للأشياء التي لن أستطيع البوح بها عن المسافرين الذين رأوا هذا النهر!

مر العديد من المسافرين من هنا منذ أن أقنعته زوجته بمغادرة المدينة والاستقرار في المنزل الخشبي المطلي باللونين الأخضر والأصفر، حيث كانوا يجلسون عند الشفق، على الشرفة يشاهدون تدفق المياه إلى المحيط الأطلسي. كان يظهر أمامهما المتأخرون دائماً: أولئك الذين تخلفوا عن الركب في الرحلات الاستكشافية نحو «الألدورادو» أو نحو مناجم الذهب الرائعة في كاليفورنيا، كائنات بنظرات محمومة تمر عبر النهر كما لو كانت تسافر نحو نهاية العالم، تشبه نظرات الدهشة التي كان يمتلكها الغزاة الإسبان أو القراصنة الإنكليز، المبهورون بالأشجار العملاقة، وشهوة الألوان، والطيور الجذلة المُحلقة عالياً في الفضاء. لم ير في نظرات البحارة المعاصرين، الجشع الذي عادة ما يتراءى في مسافري النهر من القراصنة، والتجار، والعميد كورنيليوس فاندربيلت الذي بإنشاء شركة خاصة به (شركة ترانزيت) لنقل الباحثين عن الذهب على طريق قصير وآمن من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، من أجل توسيع إمبراطوريته البحرية.

كان يجوب أعلى النهر وأسفله، غرباء مُحملون بأوهام العظمة، وأحلام، وخيالات عن القنوات بين المحيطات، وأساطير ما يمكن أن يحدث في ذلك البلد إذا خان سكانه بعضهم بعضاً، وتم بيعهم لمن يدفع أكثر. عروض متواصلة لا تنضب غالباً ما تؤدي إلى حروب داخلية تبدأ وتنتهي في عجلة مستمرة، لا يُحقق في أسبابها لأنهم لا يولونها أية أهمية. تعبت ذاكرته من محاولة وضع الحسابات وتذكر بداية الفوضى حين حُولت البلاد إلى ساحة معركة روادها مجموعة من المحاربين والفرسان واللصوص. لم تعد لديه القدرة على أن يحدد بالضبط، متى بدأ في الظهور اسم «فاغواس»، الذي بدأ معه البلد في العودة إلى العصور الوسطى بحيث فقد معالمه الأصلية

وأصبح، على الخرائط، كتلة جغرافية بسيطة مثلما كانت عليه من قبل غابات الأمازون التي غدت الآن مناطق شاسعة من أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية ومنطقة البحر الكاريبي: بقع خضراء دون ملامح ودون أية إشارة إلى كونها مدناً، مناطق معزولة، بعيدة عن التنمية، والحضارة والتكنولوجيا، أُختُزلت إلى أدغال، ومحميات، وزفير، ومكب نفايات العالم المتقدم الذي استغلها لإغراقها فيما بعد في النسيان، في البؤس، وحُكم عليها بالنفي بتحويلها إلى أراضٍ مجهولة ملعونة، أراضٍ غاصة بالحروب وبالأوبئة بحيث لا يصل إليها سوى المهربين. لقد أصبحوا الآن وسيلة الاتصال الوحيدة مع العالم الخارجي، وهم الوحيدون الذين كان يشبع معهم فضوله لمعرفة مستقبل التاريخ خارج تلك العزلة. لقد حمل المهربون من هناك المعادن وأشياء أخرى لا يعلمها إلاّ الله، وجلبوا عوضاً عنها أسلحة، الكثير من البضائع المنتهية الصلاحية، تحفاً، وحاجيات مرغوبة في فاغواس لأنهم، بعد كل شيء، اعتادوا عليها قبل أن يتم التخلص منها والإعلان عن عدم صلاحيتها كفايروس ملعون، مجرد وجوده يهدد الحياة المتحضرة المتقدمة التي تجتهد حالياً بفكرة استكشاف الفضاء، والهجرة الجماعية والبدء مرة ثانية في مجرة أخرى حيث لا تتسرب من أية فتحة، فكرة الكثير من البشر المُبعدين الذين يعيشون في ظروف بدائية بائسة، ويعيدون إنتاج فقرهم وحروبهم وأوبئتهم دون رقيب.

مع ذلك كان يقرأ على النهر ويكتب قصائده ويفتخر بالكلاسيكيات. حتى إنه كان يمتلك صورة وايتمان في مكتبه الخاص، ويستبشر عشقاً بالجمال وبالفن وبالفلسفة والحنين إلى واسلالا التي ستأخذ حفيدته يوماً ما وتتركه مغموراً بهذه الوحدة المقدسة.

الفصل الثاني

حلّ المساء. كانت ميليساندرا تتحقق من البلاط على سطح المنزل عندما بدت كأنها تسمع عن بُعد الجئير الخشن لحلزونة بيدرو. كانت طيور مالك الحزين تتحرك بصوت واضح على ضفاف النهر البعيدة. وضعت المطرقة جانباً. أخرجت المسمار من فمها وتهيأت للنزول. استوقفها في أعلى الدرج، مشهد غروب الشمس: كان النجم الضخم المستدير المتوهج، يخر من السماء مثل بيضة حيوان أسطوري ويجتاز النخيل الوارف، وأقواس الأشجار الخضراء، والجزر القابعة في وسط النهر بسحاليها الكسولة، دون أن يصطدم بها.

تذكرت الطقوس المسائية لجدتها ماريا: عند غروب الشمس، تبدأ بممارسة مراسمها الدينية، تخلع طاقية البيسبول أو قبعة القش، لتكشف عن نفسها بوقار أمام الغسق في طقس فولكلوري ربما تكون قد ورثته عن أجدادها الألمان. لم تكن ترغب في التفكير بها الآن بعد أن عزمت على التمرد عليها. كانت جدتها تعارض دائماً فكرة رحيلها بحثاً عن والديها، ولم تجرؤ على تحديها قط ما دامت على قيد الحياة.

جأرت حلزونة بيدرو مرة ثانية، لكن هذه المرة أقرب. تناهى إلى أسماع ميليساندرا نابض الباب المنخلي فعرفت أن جدها الآن في الممر، متكئاً على الدرابزين بقميصه الأبيض النظيف، وعكازته وقبعته، لامحاً آخر ما تبقى من الضوء الذي سيرافق القارب حتى هبوطه على البر. نزلت السلم على عجل.

– ميليساندرا، صوت محارة بيدرو قريب جداً –قال العجوز– هل ترين شيئاً؟

– مقدم القارب –أجابت وهي تشير إلى الزوارق الكبيرة في النهر– لابد أنه ممتلئ بالحمولات لأنك بالكاد تستطيع أن ترى جسداً في الماء.

وقف إلى جانبها. من كيس الأدوات الذي كان معلقاً حول خصرها، أخرجت الفتاة مشطاً أزرق قديماً. مررته على شعرها على نحو آلي.

كان القارب يتحرك بسرعة دون أن يصدر أي أزيز، شاقاً النهر إلى قسمين، محطماً الانعكاس المتشابك للأشجار، يحيطه ضوء النهار الذي كانت تعكسه الشمس المغمورة، في أعماق المياه.

راقب الرجل العجوز والفتاة الاقتراب البطيء للقارب، بهدوء. شاهداه يكبر أمامهما ويعرّف عن نفسه. استمعا عن قرب إلى إيقاع المجاذيف في الماء.

بصقت ميليساندرا على يديها وفركتهما في وركيها. كانت أظافرها مُعفرة بالغبار والسواد جرّاء العمل. نظر إليها الجد نظرة جانبية، مستغرباً عدم اهتمامها بمظهرها. في هذا الشأن، كانت تشبه زوجته التي لم تعط أهمية لمظهرها مطلقاً. لكن الحفيدة رغم ذلك كله، كانت مثل جدتها، مخلوقة حرة ومتكاملة تضوع حيوية جسدية وحسية كأنها تفتحت تواً. كانت تبدو مثل تمثال ديانا وهي تخرج إلى الصيد.

اقترب القارب. ظهرت ملامح بيدرو من على السطح: صورة ظلية لضياء يعكسه الشفق الأحمر للسماء الذي يلون السطح الشفاف لسقيفة الممر. كان بعض العاملين والمستوطنين ينتظرون على رصيف الميناء. التقط فيرمين الشاب النحاسي النحيف، ببنطاله المطوي وقدمه الكبيرة العارية، الحبل الذي رماه له مجدّف المقدم، وقام بتثبيت القارب.

من المنزل، لاحظت ميليساندرا والجد المناورات وحركة المجذفين الذين كانوا يعملون على تثبيت القارب حتى يتمكن الركاب من النزول. قفز بيدرو على الأرض. كان رجلاً قوياً ومتماسكاً، يرتدي بنطالاً كاكياً ملفوفاً عند الكاحل، وحذاءً مطاطياً، وقميصاً أبيض بلا أكمام يُظهر ذراعيه العضليتين وبطنه المنتفخ بسبب شغفه بالبيرة.

نزل المسافرون الستة واحداً تلو الآخر. عرفت ميليساندرا منهم هيرمان

وماكلوفيو وموريس. أما الباقون فكانوا رجلاً وامرأتين شقراوين. صعدت المجموعة إلى الرصيف يتبعهم المجذفون بأمتعتهم.

- دون خوسيه، ما أسعدني برؤيتك! -حياه بيدرو وهو يتقدم على درج المنزل المبني على ركائز متينة- وأنتما أيضاً! - أضاف حين التفت إلى ميليساندرا ومرسيدس.

تبعه الركاب إلى الأعلى. عرّفهم بيدرو بعضهم على بعض كالعادة، منطلقاً من البروتوكول المهذب والمحترم الذي كان يكرره في شهر أكتوبر من كل عام، سامحاً للمسافرين أن يرتاحوا في هذا المزرعة ليومين أو ثلاثة أيام قبل مواصلة الرحلة إلى أعلى النهر الداخلي.

بينما كانت المرأتان الهولنديتان، كريستا وفيرا، تصافحان دون خوسيه، كان رافائيل يطيل النظر في ميليساندرا، وهو رجل طويل القامة نحيف في متصف الثلاثينيات من عمره، ذو مزاج متقلب جعله يبدو متيقظاً على الدوام.

- رافائيل أمريكي - قال بيدرو مشيراً إليه حين كان يصافح دون خوسيه.

- من الرائع رؤيتك دون خوسيه. ما زلتَ في ريعان الشباب، لم تنل الشيخوخة منك بعد.

على نحو ودي، اقترب هيرمان وموريس أيضاً لإلقاء التحية على الجد والحفيدة. لقد كانا هنا منذ سنوات عديدة. هيرمان تاجر ذهب ألماني، أشقر الشعر أشيبه، يداه عريضتان، ذو وجه متشقق جرّاء تعرضه الكثير لأشعة الشمس، أما العالم موريس الخبير في مستويات السموم في شحنات النفايات التي تصل إلى فاغواس، فكان طويلاً، أسود البشرة، نحيفاً، يسير بإعياء وعينين حزينتين دائماً، ذراعاه معدنيتان، وغالباً ما يحمل أدوات تعينه في عمله، إضافة إلى الأطراف الصناعية.

- تفضلوا، تفضلوا -قال العجوز- أنتم بحاجة إلى الاسترخاء.

تبادل هيرمان وماكلوفيو وموريس ابتسامات التفاهم مع ميليساندرا أمام لعبة الجد، الذي كان يتظاهر دائماً بالضيافة دون تروّ. انتقلت المجموعة إلى المنزل يتبعهم البحارة مع أمتعتهم.

- يذكّرني كثيراً بالنقوش القديمة للمستعمرات في المناطق الاستوائية

- قالت المرأة الهولندية الكبرى كريستا، وهي تجول بنظرها فيما حولها. كانت تتحرك يدفعها شعور مفاجئ بالأمان. أما فيرا، الصغرى، فكانت توافقها بإيماءة من رأسها.

كانت ميليساندرا تراقبهم بفضول. نظراتها تقاطعت مع نظرات رافائيل أكثر من مرة. راودها شعور بأنه يعرف بالضبط ما كانت تفكر به. هذه العيون الصغيرة الداهية لم تهمل التفاصيل. فكرت أنه لا يمتلك مظهر المهرب، ولكن سيكون أمامها المزيد من الوقت لمعرفة ذلك. كان عليها في الوقت الراهن، أن تهتم بوضع الأمتعة التي يحملها المجذفون، إذ إن قارب بيدرو ينتظرهم للعودة إلى غري تاون في الليلة ذاتها.

كان الظلام قد أرخى سدوله حين انتهى الزوار من الاستقرار في غرفهم. خرجت مرسيدس لإشعال الفوانيس في الممر. كانت على وشك الدخول إلى المنزل عندما صادفت رافائيل.

- رباه! لقد أرعبتني.

- لا تخافي. جئت فقط لرؤية القمر - اعتذر رافائيل بلطف.

- إنه ليس وقتاً مناسباً لوجودك في الخارج هنا. توجد الكثير من الحشرات.

- لقد قمتُ بتحصين نفسي جيداً -طمأنها- لا تقلقي. تناولتُ الكثير من الأدوية الوقائية من اللدغة التي تسمم الدم. هل يمرض الكثير من الناس هنا؟ - سأل، متكئاً على الشرفة.

- أعتقد أنه مثل باقي الأماكن الأخرى - أجابت مرسيدس متجنبة الحديث عن الأمراض لأنها كانت شديدة الحساسية من أي شيء موصوف بشكل خاطئ في حضورها. وغادرته إلى المنزل بحجة أن عليها أن تهيئ طعام العشاء.

سار رافائيل في الممر حتى أصبح في مواجهة النهر. صار يسمع الليل، ويصغي إلى طنين اليراعات حين تضيء، وزعيق الطيور الليلية البعيدة، وخرير الماء ينزلق نحو المحيط الأطلسي. منذ أن دخل القارب خليج غري تاون وتم الانتقال إلى قارب بيدرو، بدأ يراوده هذا الإحساس بأنه يغطس في مادة كثيفة، حيث الأشياء، والفتاة ذات الشعر الأحمر، والجد، والمجذفون

والمهربون، وحتى النهر، أصبحوا عديمي الوزن وعلى مستوى واحد، كأنهم في لوحة ساذجة. ربما كانت رطوبة البيئة والغابات الاستوائية وطيورها الغريبة مسؤولة عن الشعور بعدم الواقعية والمنظور المزيف. كان يعاني من تحول مائع وفي بعض الأحيان كان يشعر بالحاجة إلى الضغط على شيء ما ليُقنع نفسه بأن قوانين نيوتن لا تزال سليمة.

تخلص من بعوضة كانت تطن قريبة من أذنه. لم يكن لديه حتى الآن أية بيانات مُهمة لتقريره، لكنه الآن على حق: واسلالا ذريعة جيدة. كان يكفي أن يذكرها، ليبدأ الآخرون بالحديث، لأنها في واقع الأمر، هاجس جماعي ولغز حيّر حله الجميع. لم ينجح في استيعاب علاقته بـ «الفيلينا»، رغم أنه بالكاد قضى يومين في رحلته إلى أعلى النهر. لن ينال شيئاً بنفاد صبره وجزعه. هذه الاستراحة ستعود عليه بالفائدة. جلس على المدرجات وفتح جهاز الاتصال النحيف والمدمج الذي كان يحمله في جيبه.

– براد؟ – قال.

بعد ثوان قليلة، كان براد، ناشره، يتطلع إليه من الشاشة الصغيرة.

– أين أنت؟ – سأل الأخير.

كان قد وصل بسلام، قال له. أصابه دوار البحر في رحلته هذه، ولا جديد عدا ذلك. كان النهر رائعاً للغاية. قبطان القارب، شخصية محنكة. المهربون. أخبره عن وصوله إلى الاستراحة: الجد الشاعر، الحفيدة. كان إعداداً رائعاً لتقريره.

– لا أطلب منك سوى اتخاذ الاحتياطات اللازمة. تذكر أن إدارة المقاطعة حذرت بوضوح من أخطار السفر إلى هناك: العنف والأوبئة.

– سأهتم بنفسي يا براد، لكننا نعلم أن هذه التعليمات صَدرت للجهلاء.

– لا أعرف، أنا لا أعرف. تذكر أنه حتى دوريات شرطة البيئة ليست قادرة على فعل شيء في بعض الأحيان.

– لأن قطع الأشجار بشكل غير قانوني، أفضل. ليس لديهم طريقة أخرى لفعل ذلك. الغابة هنا كثيفة بشكل لا يوصف. رائعة. يوجد أوكسجين هنا لبعض الوقت. يمكنك أن تتنفس بسهولة.

- أنت شخص لا يمكن إصلاحه -ضحك براد- لكن حسنٌ، لن أقول أكثر من ذلك. أنا أثق بتجربتك.

- لا أعتقد أني جربت واحدة مثلها من قبل. صدقني، أشعر بقليل من العجز هنا. سيكون الأمر ممتعاً. هل تصغي إلى ما يجب أن يبدو عليه صرير السكون؟ إنها الحشرات. آلاف وآلاف الحشرات.

ودعه وأغلق جهاز الاتصال. جذب سطوع الشاشة عدداً لا بأس به من المخلوقات الطائرة. طردها بيده، ونهض ليعود إلى داخل المنزل.

التقى ميليساندرا أثناء خروجها. رائحة الشابة طيبة. يبدو أنها قد خرجت تواً من الحمام لأن شعرها كان مبللاً.

- سيكون العشاء جاهزاً بعد قليل - قالت وهي تفرك شعرها حتى يجف في النسيم. قرر رافائيل مرافقتها فتبعها حتى الدرج الذي كان يؤدي إلى رصيف صغير، حيث جلسا هناك.

- إنكم في غاية الطيبة لإيوائنا لبضعة أيام.

- النهر وحيد للغاية -قالت ميليساندرا- إنه لأمر رائع، لكننا نعيش في عزلة. يعجبنا أن يكون لدينا زوار - ابتسمت وهي تتطلع إليه.

- هل سافرتِ إلى الداخل؟

- منذ فترة طويلة وأنا أخطط للقيام بذلك. في البداية منعتني جدتي، أما الآن فكل ما يجب عليّ أن أفعله هو التغلب على الخوف من ترك جدي.

- جدك في صحة جيدة.

- ليست صحته ما تقلقني، بل خياله. منذ أن توفيت جدتي، بدأ يستولي عليه إحساس بالضعف. أمضى شهوراً يتحدث معها، ويدعي بأنها ما تزال على قيد الحياة، وأنها تخرج للعمل كل صباح وتحضر له طعام الإفطار. كان مقتنعاً جداً لدرجة أننا كدنا أن نتحدث معها أيضاً. لكن هذا الأمر أصبح من الماضي في الوقت الراهن. إنه بخير بالفعل. ما أحتاجه هو حجة للتخفيف من شعوري بالذنب، رغم أنني هذه المرة سأرحل سواء بعذر أو بغير عذر. جدي لن يموت أبداً. لقد تجاوز المئة عام وما زال يتمتع بقوة وصحة جيدتين.

– أحتاج إلى دليل لرحلتي إلى الداخل –قال رافائيل مستمتعاً بثقة الفتاة العفوية التي وجدها ممتعة– أصبحت لديك الآن حجة.

– أنا لدي حجة، ولكن أنت ليس لديك مرشد. لم أكن في الداخل قط – ابتسمت.

– لكنني متأكد من أنه لن يصعب عليك معرفة إلى أين تذهبين.

– أنا أعرف إلى أين أذهب، ولكن لدي مساراً مختلفاً. ما يجب أن نقوم به الآن هو أن نذهب لتناول طعام العشاء.

تبعها رافائيل إلى غرفة الطعام. كان دون خوسيه يجلس في المقدمة يضحك بمرح. من الواضح في عينيه المفعمتين بالحيوية أن المحادثة كانت تروق له وأنه غالباً ما يستمتع بالطاولة المزدحمة عند النهر. كان غطاء المائدة البسيط يتكون من مربعات حمراء وبيضاء. جلس الضيوف على المقاعد الجانبية الطويلة والثقيلة فيما جلست ميليساندرا بجانب الجد وأشارت لرافائيل أن يتسلل إلى جانبها.

كانت وجوه القادمين الجدد تستعيد تدريجياً تعابيرها المعتادة، تلك التي كانوا عليها في حياتهم اليومية البعيدة.

– وأنت يا رافائيل، ما العمل الذي تقوم به؟ – سأل دون خوسيه.

– أنا صحفي – أجاب.

– يا للروعة! –هتف الرجل العجوز– لم أر صحفيين هنا منذ زمن طويل على ما أتذكر. لقد أصابهم الملل من حروبنا. لا أحد يولي اهتماماً بأخبارنا بعد الآن.

– على ذكر الحروب –قال رافائيل– أرى أنه لا يوجد هنا نشاط حربي كثير. يبدو أنكم تعيشون بسلام.

– النهر محايد –أوضحت ميليساندرا– قبل سنوات تم التوصل إلى اتفاق غير معلن على عدم القتال هنا. للحروب آثار وخيمة على محميات الغابات وأنت تعلم أن الشركات البيئية تحرص حرصاً شديداً على المحافظة عليها. وهكذا، في بعض الأحيان ...

– هذا البلد لم يعد يعرف أن يعيش من دون حرب –قاطعها دون خوسيه– حتى يبدو لي أن السلام سيكون كارثة. وأخال أن بقية العالم تفكر في الأمر نفسه. لسبب ما، تنتهي جميع الترسانات المهجورة في هذه المناطق. لكن دعونا لا نتحدث عن الحرب. بإمكانكم الآن التحدث عن الحرب في أعلى النهر. الحرب لم ترق لي قط. أنا مغرم بالحضارة، بالتقدم البشري وبالحروف. لا علاقة لي بالحرب. الحرب نقيض الفكر والكلمة والحوار. لا أحد يتحدث عن الحروب. الجميع يطلقون النار. يتقاتلون فيما بينهم دون أن يعرفوا بعضهم بعضاً. لا يهمهم أن يتعرفوا بعضهم على بعض، ولا يغريهم ذلك. يهربون بعضهم من بعض. يحتمون خلف بنادقهم، ويهربون من الكلمات ومن الحوار. لو كان هناك حوار، لما قامت حرب. لكن هناك مَن يجد كرامته في ذلك. عبادة السلاح والموت قديمة جداً، على الرغم من أنني غير قادر على أن أخبرك أيهما أسوأ، الحرب أم البخل. على الأقل هنا في فاغواس، نادراً ما تستخدم الأموال. لا يتم التعامل بالمال كثيراً في مجتمع غير منظم بسبب الحرب.

كانت ميليساندرا تراقب القادمين الجدد بعناية أثناء حديث جدها. غالباً ما تتساءل عما إذا كان جدها يفتقد الزائرين بسبب الأخبار التي يجلبونها له أم بسبب الدور العام الذي يلعبونه في إغناء عقله بمعلومات مفصلة، هذا العقل الذي لم يتعب من مناهضة الأفكار والتكهن بها.

أنهى الرجل العجوز محاضرته عن الجشع والمال، ولكن قبل أن يصمت، متذكراً أصل خطبته، التفت إلى رافائيل وسأله عما إذا كان لا يمانع في إخبارهم ما الذي جذبه وجعله يأتي إلى هنا.

– بكل سرور –قال رافائيل مبتسماً بأدب– أخبرني أحد الأشخاص المسافرين إلى فاغواس عن وجود مكان رائع، آخر مدينة فاضلة: واسلالا.

كتمت ميليساندرا صرخة اندهاش. لم يأتِ أحد من قبل هدفه الوحيد العثور على واسلالا، والآن ظهر رافائيل واقترح عليها أن ترافقه. نظرت إليه كما لو كانت تريد أن تتأكد من أنها سمعت بشكل سليم. ابتسم رافائيل ببراءة، أثناء التهامه فخذ دجاجة.

حدق هيرمان وماكلوفيو وموريس في دون خوسيه. لقد أخبروا رافائيل أن الرجل العجوز يعرف عن واسلالا أكثر من أي شخص آخر. ويأملون منه الآن أن يتمكن من إثبات ذلك. ساد الصمت.

- آه! -هتف دون خوسيه أخيراً، متكئاً على ظهر كرسيه. كان يلامس أرنبة فمه ساهماً- واسلالا! مَن في فاغواس لا يرغب في العثور على واسلالا!

- ربما يريد أحدكم أن يذهب معي. سأحتاج إلى مرشد - قال رافائيل وهو يحدق في ميليساندرا التي أعادت بصرها إليه بحماس.

- لابد من زيارة إنغراثيا في ثينيريا -قال الرجل العجوز- إنها تستطيع مساعدتك.

لم يتوسع دون خوسيه في الحديث عن موضوع واسلالا. توقف والتزم الصمت. أصبح فجأة بعيداً وحزيناً. اعتقدت ميليساندرا أنها لم تره هكذا من قبل أمام الزوار. هل تنبأ جدها بشيء؟ هل خمن خططهم؟

- موريس يعرف إنغراثيا جيداً - قال ماكلوفيو مُوحياً أنه يدرك أكثر مما يقول.

تجاهل موريس الإشارة.

- إنه لا يتعلق بالبحث عن نقطة على الخريطة -قال العالِم- الأمر أكثر تعقيداً.

- ستكون لدينا فرصة في الغد للحديث عن ذلك -قال دون خوسيه وهو يقف فجأة- لقد تأخر الوقت. لابد أنكم تشعرون بالإعياء. كانت رحلتكم طويلة. أنا مُتعَب أيضاً بعد انقضاء هذا اليوم.

أنهى قهوته، وارتدى قبعته، ثم تناول عصاه، وانسحب إلى مكتبه بعد أن تمنى لهم ليلة سعيدة.

الفصل الثالث

بيدين مدسوستين في جيبين، تسللت ميليساندرا خفية من غرفتها عبر غرفة الطعام، ونزلت درجات السلم في الجزء الخلفي من المنزل بعد أن ارتدت ملابس سوداء بالكامل، ولملمت شعرها تحت قبعة الجد العجوز. كانت الليلة باردة. لم تمطر منذ أكثر من أسبوع، لكن الأرض ما تزال مبتلة. سارت بسرعة على طول الطريق المؤدي إلى منزل خواكين المنعزل، وأيقنت أن أحداً لم يرها.

كان خواكين قد ترك الباب موارباً. وجدته في الداخل جالساً على منضدة يدخن وبيده مدية يشحذ حوافها. نظر إليها متظاهراً بالانزعاج من زيارتها غير المناسبة. دون أن تنبس ببنت شفة، أرجعت المزلاج إلى موضعه، خلعت قبعتها، وجلست أمامه على كرسي خشن. أنزل خواكين عينيه ليركز على حافة المدية. نهضت وأطلّت من النافذة.

– سأغادر إن كنتَ مشغولاً جداً – قالت.

– يمكنكِ أن تغلي الماء وتحضري لي القهوة –قال– أم إنكِ متعبة جداً من زياراتك؟

لم تقل شيئاً. حركت القدور بحيث اصطدم أحدها بالآخر، وسكبت الماء للقهوة.

– كم عددهم؟

– هيرمان، ماكلوفيو، موريس، امرأتان ورجل واحد لا أعرفه.

– قال لي بيدرو.

- أعرف ذلك. ما أجهله هو لماذا تسألني.

- لكي يكون لديك ما تقولينه. تدعين دائماً أنه ليس لديك معلومات كافية. ما الذي أحضروه معهم؟

- لا أعرف. أعتقد أنهم جلبوا كالمعتاد: كتب لجدي، مؤن، أدوية لمرسيدس، ملابس لي، شوكولاتة... - ابتسمت وهي تضع القهوة فوق الطاولة.

- ما يهمني أكثر هو الذخيرة. إنها تنفد منا. من الخطر أن نُترك دون إمكانية الدفاع عن أنفسنا. ما جديدهم؟

كان خواكين قوياً. بدا وجهه كأنه مجبول من بنية جسدية أخرى: ملامح وجه مستطيلة وحادة، شعر أسود ناعم، عينان سوداوان مرتابتان مثل حيوان جريح، في حالة تأهب دائم للانقضاض على شخص ما. ربما يكون والدها. شهد نموها وترعرعها. ساعدها على إدارة المزرعة. ارتضى لنفسه أن يقترب من سفاح القربى. لم يكن يعرف ما إذا كان يريدها ابنة أم عشيقة. حدثته ميليساندرا عمّا قيل على طاولة العشاء. قالت له على نحو عرضي، إن الصحفي لديه نية للعثور على واسلالا. إنها مصادفة سعيدة جاءت في وقتها، بعد أن اتخذت قرارها بالرحيل.

- يقول إنه بحاجة إلى مرشد. سأقترح عليه أن يأخذني.

- لا تكوني سخيفة. لم تكوني في الداخل من قبل قط. إن أخذكِ، فسيكون لشيء آخر.

- أنت غيور.

- من طرفي، أنتِ حرة فيما تفعلين. إنه شأنكِ.

- لم يأت أحد إلى هنا بنية واضحة للبحث عن واسلالا. إنها علامة تنبأ بها جدي. لقد أصابته كآبة شديدة عند العشاء.

- أنتِ عنيدة. لا أحد قادر على انتزاع فكرة هذه الرحلة من رأسكِ.

رفع خواكين فنجان القهوة وشربه كله. نهض واقترب من خلفها. أخذها من شعرها، رفع وجهها وقبلها من الشفتين.

– عليك أن تساعدني يا خواكين –قالت مُنسلة من بين قبضته– يمكنني أن أرحل مطمئنة بهدوء إن مددت لي يد العون.

– يبدو أنكِ أُعجبتِ بهذا الرجل. لن تخدعيني – قال ثم تبعها وأخذها من كتفيها ثانية.

– لا تفه بحماقات –ابتسمت بدلال محدقة به. فكرت أن هناك طريقة واحدة فقط لإرضاء خواكين– نحن جميعاً متوحشون في نظر هذا الرجل. سيقوم بكتابة تقريره ويرحل. أما نحن فسوف نبقى.

التصقت به. أخذت وجهه بين يديها وقبّلته، فيما مررت أظافرها على ظهره. ارتخى خواكين. كان يتنفس بصعوبة. انسلت منه ميليساندرا بمرح إلى الجانب الآخر من الطاولة. شرعا يطاردان بعضهما بعضاً حول الغرفة الصغيرة، مصطدمين بقطع الأثاث القليلة. كانت تضحك بينما كان ينظر إليها بمزيج من التسلية والغضب. تمتم قائلاً إنها عنيدة وصلبة مثل جدتها. لا يوقفها أحد.

– أنا الوحيد القادر على ترويضك، ميليساندرا – قفز عليها. أمسكها من ذراعيها بقوة وحملها إلى السرير المصنوع من نسيج غليظ. لم تُجدِ مقاومتها.

كانا يقاومان بعضهما بعضاً ضاحكين مدمدمين في لعبة القطط البرية. قام خواكين بفك سحاب سروالها وبدأ في مداعبتها بقسوة. حين استسلمت إلى نهاية اللعبة وغاصت في الأحاسيس، قام بتغيير الإيقاع فأصبح يقبّلها ببطء ولطف، يلعب بشعرها، يعض ثدييها، يتركها عارية، يغرق فيها، يهزها ويُوقعها في النشوة الجنسية، يضغط عليها وهي ترتجف في تشنجات طويلة. أغمض عينيه ودفن رأسه في كتفها الأنثوي. التصقت ميليساندرا به، محمومة ومرتجفة، مثل طائر لم يعد قادراً على ضبط نفسه.

***

انتظرت ميليساندرا حتى الفجر. الضباب يهيمن على النهر والديكة تصيح. لم تقم بترتيب السرير حتى. حين عادت إلى غرفتها، استلقت على غطاء السرير، بيد أن جسدها المليء باللعاب والسائل المنوي لم يهدأ. لم

تفلح في إغماض عينيها. تجسست على الشمس، رفعت نفسها على مرفقها لترى الفجر يتدفق فوق الماء. استحمت في الساعة الخامسة وطرقت باب غرفة جدها في الساعة الخامسة والنصف.

حين دخلت، كان يجلس على السرير مرتدياً قميصاً وسروالاً قصيرين ممسكاً بعكازه. بدا ضعيفاً وأشعث، أشيب اللحية رمادي الملامح.

اقتربت منه وقبّلته من خده. جلست إلى جانبه. لم تكن تدخل غرفته عادة في هذا الوقت من الصباح. فاجأها الشعور بالوحدة والكم الهائل من الذكريات الثقيلة التي تحاصره. رأت صورة باهتة لجدتها معلقة فوق الخزانة التي كان يحتفظ بقمصانه داخلها. أشاحت بوجهها بسرعة. كان على المنضدة نصف كوب ماء، والنظارات، ودفتر دُونت عليه ملاحظات بقلم الرصاص، وهو ما تبقى من الليلة السابقة.

– أنتِ تعرفين أني أنام على سرير دافئ كل ليلة –قال– إنها معي هنا.

ابتسمت ميليساندرا وضغطت على يده. شعرت بنحافتهما ونعومتهما بين يديها.

– أنت محظوظ يا جدي. أنا لم أتمكن من الشعور بوالدتي حتى الآن. أغطية سريري باردة دائماً.

– إنها على قيد الحياة. آمل أن تكون حية. أتخيلها أحياناً تجفف الملابس في «ممر الريح» –صمت لوهلة– ماذا حدث؟ –سأل على حين غرة ملتفتاً للنظر إليها– ما الذي أتى بك إلى هنا في وقت مبكر جداً؟

– أرغب بالذهاب مع الصحفي، جدي. سأقترح عليه أن يأخذني كمرشد.

أدخل الرجل العجوز عصاه في أحد نعليه، ورفعه في الهواء، وتركه يسقط.

– افترضتُ ذلك –قال– كان يتوجه إليك حين قال ذلك في الليلة الماضية. قالها لكِ، على نحو لا لبس فيه. أليس كذلك؟ اسمه رافائيل. شخصية توماس مور. الشخص الذي اكتشف الجزيرة المسماة المدينة الفاضلة، يُدعى رافائيل أيضاً... لكني لا أعرف كيف يمكن لكِ أن تكوني مرشداً له.

- لن يجد شخصاً يعرف عن واسلالا أكثر مني.

في إنغراثيا يمكن أن يجد دليلاً، قال. ميليساندرا غير مضطرة إلى المجازفة مع شخص بالكاد تعرفه.

- لقد أذعنتُ للأمر يا ابنتي. نحن هنا بخير. واسلالا مكان حيث لا مكان. لا يمكن أن تضيعي أنتِ أيضاً - نظر إليها بضيق، وإصرار، وبعينين مشرقتين، وثابتتين.

- لن أضيع يا جدي. أنت عدتَ، وآخرون عادوا. يجب أن أذهب. الآن. لا أريد أن أراوح مُنتظرة.

لم تكن تدرك المخاطر التي ستواجهها، قال لها. ليت زوجته موجودة، فكر، لكانت قد أفهمت ميليساندرا. لم يكن يمتلك عزمها. من أجل التخفيف عن غياب والديها، وتبرير رحيلهما، قضى حياته يتحدث معها عن المكان المفقود، الأسطورة، الحلم. لكنه أدرك بعد فوات الأوان أن التاريخ يمكن أن يعيد نفسه. آه! لو كانت زوجته فقط على قيد الحياة.

- دعني أتحدث إلى هذا الرافائيل -قالت وهي تمشط شعرها بيدها- فقط دعني أتحدث معه. أحتاج إلى القليل من الوقت.

خرجت ميليساندرا. أسند الرجل العجوز رأسه إلى مقبض العصا، وأغمض عينيه. لم يكن ليفعل أكثر من ذلك، مراراً: يغلق عينيه، لا يرى، يهرب. لا يمكن للإنسان أن يعيش إذا لم يحصن نفسه من بعض المواجع ويتظاهر بأنها حدثت لشخص آخر، شخص يشبهه، ولكنه كان على الجانب الآخر من المرآة يعاني، بينما في هذا الجانب يعيد صاحب الصورة ترتيب نفسه، يقف منتصباً، ينهض من السرير، ويرتدي ملابسه. منذ أن أصغى إلى رافائيل في الليلة السابقة ورأى وجه حفيدته، ونظراتهما تتقاطع بعضها مع بعض، أدرك أن لا شيء يمكن أن يوقفها: سوف تقوم بالرحلة التي كانت تتهيأ لها سراً كل عام، والتي ظل هاجسها يطاردها منذ طفولتها، بحيث جعلها تنأى عن مراقبة جدتها وتختبئ في غابة المطاط حتى عثر عليها خواكين وأخذها إلى المنزل، وهي ترفس غاضبة، وتصرخ بأنها تريد معرفة مكان والديها، وأنها ستذهب للبحث عنهما إلى

واسلالا، المكان الذي كان بالنسبة إليها المكان السحري الذي اختفى فيه والدها ووالدتها.

كان عليه أن يسمح لها بالرحيل في نهاية الأمر، وأن يُترك بمفرده كما كان عليه حين ماتت زوجته. وعلى الرغم من وجود الكثير من الأشخاص المحيطين به وميليساندرا التي كانت تحاول مواساته، فإنه لم يجد أية سلوى سوى في تخيل أن ماريا في غرفته وأنها على قيد الحياة يتحدث إليها عن رعبه من أولئك الذين اعتقدوا أن الوجع أفقده عقله. لم يكن أمامه سوى الصبر والاستسلام، مثلما فعل حين غادرت ابنته مع صهره وتركت الفتاة البالغة من العمر ثلاث سنوات، التي لم تتوقف عن البكاء، وترفض أن تنام، حتى إن الجدة حين استنفدت كل الطرق، أجبرتها على شرب الحليب مع السكر وشراب الروم. كان المسؤول الوحيد عن كل ما حدث. تنهد. سار عدة خطوات في الممر دون أن يعرف إلى أين يتجه، كما لو أنه ترك اتجاه تحركاته في يد شخص آخر.

الفصل الرابع

استيقظ رافائيل فجراً. لم ينم كثيراً. حين وصل إلى فراشه، كان مُرهقاً جداً بحيث اعتقد أنه سوف ينام بمجرد أن يضع رأسه على الوسادة، لكن السكون أبقاه مستيقظاً. صمت مُطبق، نسج الحياة في الغابة والنهر، الحشرات، الضفادع، البوم: الليل الأصيل البدائي الذي لم يمَسّه أحد. وضع رأسه تحت الوسادة آملاً أن يتوقف عن التفكير.

لمَ يشعر بالحاجة إلى أن يتنشق رائحة ميليساندرا وشمها مثل حيوان؟ منذ أن تحدث إليها وأدرك غيابها الطاغي ونضارتها، شعر أن حقيقة وجود شخص مثلها كان سبباً كافياً لإنعاشه.

نهض عند الساعة السابعة صباحاً. عبر النافذة الريفية لغرفته، رأى الحديقة الصغيرة مع الورود المزروعة في أحواض الزهور، مريضة وذابلة، وفي الخلف يعرش نبات الجهنمية الأرجواني الغامق المتسلق على الشرفة الأرضية. ارتدى ملابسه على عجل، غسل وجهه في المغسلة، وخرج إلى غرفة الطعام. كانت مرسيدس تكنس المنزل.

– صباح الخير –حياها– سأقوم ببعض التمارين.

– ثمة طريق على طول النهر أمام المزرعة –قالت– ستراه عندما تصل إلى المنحدر. اذهب للتمشي هناك، لكيلا تضيع.

حين دخلت ميليساندرا إلى غرفة الطعام، كان دون خوسيه يتحدث مع مرسيدس، يشرح لها عن الذراع الاصطناعية لموريس: جهاز متطور وحديث لدرجة أنه قادر على قياس عدد الميكروبات والجزيئات الكيميائية في كوب بسيط من الماء.

- العلم يكتسح الأرض يا مرسيدس، وعما قريب لن يعود للموت وجود. يقول البروفيسور موريس إن هناك قلوباً ميكانيكية.

- يا للعالم المجنون! إنهم بهذا يلمسون الله بأيدٍ قذرة، وينكرون النعمة التي أسبغها عليهم - ردت عليه محاولة أن تمحو من عقله رؤية انتفاخ الثديين الذي أثاره ذكر القلوب الميكانيكية. هذا العمل مناهض للطبيعة.

- ما هو الطبيعي وما هو غير الطبيعي؟ الضوء الكهربائي ليس طبيعياً ...

قبّلت ميليساندرا جدها، ملأت فنجان قهوته واستقرت بجانب الرجل العجوز بينما كانت مرسيدس تقلي البيض، وتغمغم قائلة إنه لا توجد مقارنة بين الضوء الكهربائي والقلب الاصطناعي. من الواضح أنها كانت حيرى من ملاحظة الرجل العجوز.

- ألم يستيقظ ضيوفنا؟ - سألت ميليساندرا.

- ذهب الصحفي لممارسة الرياضة. قال إنه سيتناول الإفطار بعد العودة.

- لماذا لا تذهب للتمشي يا جدي؟ ربما تجده.

- آه يا صغيرتي، صغيرتي. أنت تذكرينني كثيراً بجدتك. هل حدثتك عن المرة التي كانت قد اصطادت فيها نمراً أمريكياً بالقرب من هنا؟ كانت وحدها. ربطت الحيوان بالجيب وجرّته على الطريق. يبدو لي أنني أراها تظهر في الصباح، حمراء مثل لبوة، يتبعها صغارها لرؤية النمر النافق. صنعت قلادة لأمك من أسنانه. يا لكُنّ من نساء! ما الذي يمكن أن يفعله المرء!

***

وجد دون خوسيه، رافائيل على الرصيف يتأمل زوجاً من اليعسوب يتزاوجان بسرعة في الهواء بصوت عالٍ.

- رجال أصحاء بأجساد مفعمة بالحيوية. لنرَ إن كنتَ ترغب في مواصلة تمارينك بمرافقتي في التمشي - قال مستنداً إلى عصاه.

تبعه رافائيل في الطريق الممتد على طول النهر.

- ما هي تلك الأبراج الضخمة التي تُرى من هنا؟ -سأل- تبدو كأنها جزء من قلعة قديمة ...

– إنها قلعة الحَمل الطاهر. من هذا الموقع، سيطر الإسبان على حركة المرور ومنعوا الإنكليز من عبور أعالي النهر إلى أراضيهم. حكم الإنكليز غري تاون، المنطقة التي نزلتم فيها. كانت ميناءً على المحيط الأطلسي. في البداية كانت مخبأً للقراصنة ومملكة الصيادين، حتى إن اللورد نلسون حضر بنفسه إلى هنا. عدو نابليون أبحر في هذا النهر الذي تراه، ومن هنا انطلقت شهرته التي امتدت حتى الطرف الأغر.

باستخدام عصاه كمؤشر معلم وكأداة لإزالة الشجيرات، تقدم دون خوسيه ببطء، ولكن دون تردد. وواصل حديثه عن ذلك الجسم المائي الضخم، في القرون السابقة، وعن المعارك الدموية التي شنها الإنكليز والإسبان. قال إن من أشهرها قصة رافائيلا هيريرا. فتاة كانت تبلغ من العمر ستة عشر عاماً، حين توفي والدها في إحدى الهجمات على القلعة. رفضت الاستسلام وأسقطت ملاءات مشتعلة تسببت في نشوب الحريق بين صفوف الجيش الإنكليزي مما أدى إلى تسلل بعض رعايا جلالة الملك...

– بدلاً من الجنود، هناك الآن مهربون – علّق رافائيل.

– ليسوا جميعاً مهربين. نحن أناس شرفاء، كما تعلم. لا آوي في منزلي أبداً سوى مجموعة مختارة من المسافرين مثلك، اعتبرهم تجاراً مهذبين يلجؤون، بشروطنا الخاصة، إلى المقايضة والتبادل. شرحت لك أن المال لا يعود بالفائدة الكثيرة.

– ذكرتَ أن هناك تجارة أسلحة قوية، وتحدثتَ عن الترسانات المهجورة.

– أعتقد أن ماكلوفيو متخصص بذلك. لستُ متأكداً، لكن حفيدتي تعتقد أنه، من بين كل مَن نعرفه، هو الأكثر غموضاً. تروق لي قدرته على سرد القصص. يُطلعنا على آخر ما توصلت إليه التكنولوجيا. لديه حساسية الأمريكي اللاتيني لمعرفة الأشياء التي يمكن أن تبدو أكثر روعة بالنسبة لنا.

– أتساءل ما الذي يمكن لماكلوفيو أن يحصل عليه هنا من أسلحة – قال رافائيل وهو ينحني ليقطف زهرة صفراء برية صغيرة.

– الله أعلم يا بني. الله أعلم!

– يقال إن فاغواس تنتج مخدرات عالية القيمة – قال رافائيل بفضول.

– مخدرات؟ بمَ تنفع إذا كانت هناك مُركّبات صناعية؟ – قال دون خوسيه بعد أن توقف قليلاً ليحك أنفه.

المخدرات الاصطناعية لم تحقق النجاح الذي كان مُعوّلاً عليها، أوضح رافائيل.

– المحظورة، دون خوسيه، ما تزال لها سوق رائجة، وتحقق أرباحاً كبيرة للتجار. هل سمعت عن الفيلينا؟

– الفيلينا؟ ما هذه؟

– طفرة جينية. مزيج من الماريجوانا والكوكايين.

– الاسم ليس غريباً على أسماعي، لكن لا، لا أعرف عنها شيئاً. ربما تمتلك ميليساندرا معلومات عنها أكثر مما أعرف أنا، على الرغم من أن حفيدتي لم تكن في الداخل قط. من الأفضل لك أن تجد مرشداً له خبرة في هذا الشأن.

– شيء ما يخبرني أنه لا يمكن أن أجد دليلاً أفضل.

حدق دون خوسيه في الضفة المقابلة، ملتزماً الصمت.

– وكيف تعرف عن واسلالا؟ –سأل الرجل العجوز أخيراً– لم يسبق أن مرّ هنا شخص كان يضع نصب عينيه، البحث عنها.

– أحد أصدقائي الذي سافر عبر فاغواس، حدثني عن واسلالا. اسمه ألان تومليمسون.

– ألان؟ أهو إنكليزي؟ –تفاجأ دون خوسيه– حقاً؟

أومأ رافائيل برأسه مبتسماً.

– تحدثتُ مع ألان مطولاً حول هذا الموضوع –تابع دون خوسيه– اعتقدتُ أنه سيغامر بالبحث عنها، لكنه لم يعد قط. ألان شخصية مميزة جداً. إذن فهو صديقك... مرحى يا رجل، يا للصدفة!

– حين كنا طلاباً، كنا نتقاسم نفس الغرفة في الجامعة. حدثني كثيراً عن واسلالا لدرجة أنه أقنعني أخيراً بالمجيء وكتابة القصة – قال رافائيل مفكراً في ذلك بالطبع، وبشدة. مَن غير دون خوسيه يمكن أن يكون الرجل العجوز

الذي أشار إليه ألان. الرجل العجوز المتنور الحالم، الذي نسب إليه صديقه مهارة إخراج العالم كله من كمه.

وصلوا إلى النقطة التي تحول فيها المسار نحو المنزل.

رفع دون خوسيه عينيه ونظر إلى الجزر الواقعة في وسط النهر بملامح غائبة.

- مخلصاً أتمنى أن يكون لاسمه فأل حسن - قال.

الفصل الخامس

أطلت ميليساندرا، في وقت لاحق، على مكتب الجد ورأته جالساً خلف طاولة الكتابة محدقاً في ثقالة الورق الشفافة. لم يكن قد لاحظ حتى، أن الضيوف كانوا يستخدمون أدواته الإلكترونية، وهو حدث لم يتوقف قط عن الإعجاب به والحوم حوله بإصرار وعناد لأنه وحده يعرف كيف يكون. ظلت ترنو إليه لفترة، من على عتبة الباب. من العسير أن تودعه. كان جدها مسناً. ربما لن يكون على قيد الحياة بعد عودتها. كانت بحاجة إلى الانشغال بشيء ما، وقلع تلك الأفكار من رأسها.

غادرت المنزل وتوجهت إلى «الدوار» حيث ينتهي الطريق المرصوف بالحصى الذي يتقاطع مع المزرعة ويؤدي إلى القرى المجاورة. يتميز مركز «الدوار» بوجود جرار قديم صدئ من نوع كاتربيلر4 – D ، تسلقته زهور الجرس الأزرق. كان النصب التذكاري الذي قام به الجد تخليداً لذكرى الجدة، أول وآخر بادرة شخصية. تحت السقيفة إلى اليمين، كانت بقايا أخرى للمزرعة: عربة جيب كهربائية من طراز سام، هدية من الحكومة. جلست ميليساندرا خلف عجلة القيادة وانطلقت بعيداً تاركة خلفها سحابة من الغبار.

وجدت خواكين من جديد في غابة المطاط، يعمل على إصلاح الأنبوب الذي يزود قن الدجاج بالماء. رأته يقترب منها، وهو يخلع قبعته المصنوعة من القش.

– ما الذي أتى بك إلى هنا؟

– سأرحل غداً، خواكين –قالت– أريد أن أوضح لك الأمور وبالترتيب.

وقفا في صمت متواجهين. أخرج من خصره منديلاً أزرق كبيراً متسخاً ومسح العرق دون أن ينظر إليها.

– قد يموت جدك في أية لحظة. هل فكرتِ في ذلك حقاً؟

– لن يموت –قالت– لا تبتزني.

– يمكنك أن تنتظري حتى يموت. أنتِ تعرفين أن رجالاً آخرين سيمرون من هنا. هذا الصحفي ليس الوحيد.

– ليس لدينا الوقت لمَشاهد الغيرة، خواكين. وعدتني بمد يد العون.

– بالتأكيد، أساعدك. اهتمي بي ريثما تذهبين لتعيشي مغامرتك.

لم يكن خواكين خاسراً. قواعد العلاقة كانت واضحة منذ البداية. لا توقع. لم ترد ميليساندرا. بدأ يرسم بقدمه دوائر على الأرض.

– لا تسيئي فهمي. أنا أريد أن أحميك – قال.

– هل تحب أن نتحدث الآن أم تفضل أن أعود فيما بعد؟ – سألته متوجهة إلى الجيب. تبعها.

– ماذا سأفعل إن مات جدك؟

– تدفنه إلى جانب جدتي، خواكين.

– بحضور قسيس أو من دونه؟

– مع قسيس.

ركبا الجيب وقاما بجولة في المزرعة. كان العمل مقسماً بين العائلات المختلفة التي قدمت لهم الجدة ملجأ بعد وباء الملاريا الذي قضى على القرى المجاورة. مع الحد الأدنى من الموارد والعمل الدؤوب، كانت الأرض تنتج ما يكفي من الخضار والحبوب للاستهلاك الذاتي لسكانها. كان لديهم أيضاً مزرعة دجاج وخنازير وقطيع صغير من الماشية للحوم والحليب. عمدت ميليساندرا إلى إخبار جميع الأسر برحلتها القادمة. وأخيراً، واسلالا. لم يتفاجأ أحد. كانوا ينظرون إليها بحسد وحنين. لقد اعتادوا على أن يرحل عنهم الشباب. كان المراهقون يغادرون باستمرار للذهاب إلى الحرب، وكثيراً ما كانت ميليساندرا تستقبل الجثث، وترأس

الجنازات، وتعزي الأمهات. بين الحين والآخر يصل رجال مسلحون يريدون كسب مناصرين لقضاياهم، وكان لا بد من إبعادهم بالقوة أحياناً. كان النهر محايداً لكن الحياد يتطلب أن يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم. أثناء عودتهم إلى المزرعة مروا بغابة المطاط مرة ثانية، وبالأشجار الضخمة بأوراقها اللامعة الناضرة.

– كنت تعرف دائماً أين تجدني ولم تُخطئ يوماً، خواكين – قالت مُلتفتة إليه.

الفصل السادس

وجد ماكلوفيو، فيرمين على الطريق الذي لا يبعد كثيراً عن الرصيف. وفي إحدى الجزر الصغيرة للنهر، خرج اثنان من عجول البحر للتشمس. كانا يزحفان على الرمال بشكل غريب. حين أيقن الأرجنتيني أن أحداً لا يراهما، أخرج جراباً من حقيبته وقام بتسليمه للصبي.

– لا أعتقد أن هذا الأمر سيحدث مرة ثانية – قال فيرمين.

خفض ماكلوفيو ذراعه. أخرج علبة سجائر من جيب قميصه، وقدمها للصبي الذي أخذها بحركة سريعة.

– ماذا يحدث الآن؟ – سأل ماكلوفيو محاولاً ألّا يُظهر نفاد الصبر في صوته.

كان فيرمين، مخبره وشريكه، مسؤولاً عن تنفيذ عمليات نقل الأسلحة من غري تاون إلى الداخل، لكنه في كل مرة يزداد تردداً. في الآونة الأخيرة، كان على ماكلوفيو أن يمسك نفسه ويبذل جهداً حتى لا يقوم بممارسات عنيفة. كان التواصل على النهر مسألة جوهرية لا بد منها. استغرق الأمر منه سنوات لإنشاء شبكة فعالة في المزرعة لجمع الأسلحة في الميناء وتفريغها في أحد الخلجان الآمنة في أعلى النهر، بالقرب من لاس لوئيس.

من المؤكد أنه إذا ما قارن هذه الصعوبات بالمخاطر التي تعرض لها في نيويورك، فإن إقناع فيرمين كان بالنسبة له مصدر إزعاج مُسيطَر عليه. فكر أن لا يُضايق نفسه ما دامت فاغواس تمر بفترة سلام بين الحروب، والعمل يسير نحو الأفضل. ونشط المتنافسون الأبديون لأنهم عرفوا مدى قصر السلام، لذلك شعر بالتردد في التحلي بالصبر. كان العملاء المتعطشون للأسلحة مستعدين لمقايضة والدتهم مقابل بندقية جيدة.

قال فيرمين إنه يخشى أن يتم اكتشافه. كانت ميليساندرا تشك بأمره، بحيث كانت تنظر إليه نظرة ارتياب تجسسية. لم يشأ تسخير قارب المزرعة الكبير لإجراء عملية النقل، حتى لا يجازف باكتشاف ميليساندرا له وطرده هو والآخرين من الأرض التي أُعطيت لهم للعمل بها. إن حدث ذلك، فسيتعين عليهم الذهاب إلى المدينة والانخراط ضمن المرتزقة.

- رحلة أخرى، فيرمين -طلب ماكلوفيو- لا يمكن أن يخطئوا الغرض الآن ما دمتُ امتلك أكبر شحنة تنتظر على القارب. لن ينتظر القبطان طويلاً. سيرميها في المياه ويغادر إذا لم تلتقطها في الأيام القليلة المقبلة... ميليساندرا لن تعرف ...

لا يمكن أن يضيعوا هذه الفرصة، أصر الأرجنتيني.

- أنت لا تعرفها جيداً. تكتشف كل شيء. يبدو الأمر سهلاً للغاية، ولكننا هنا نعلم جيداً أنها حين تقرر أن تقوم بشيء، تكون قاسية بعض الأحيان. في إحدى المرات، جلستُ وحدي الليل بطوله مع جثة أخي حتى أبعد عنها فكرة الذهاب إلى الحرب. أخي المسكين. كانت رائحته كريهة جداً ...

- المهم أنك نجحت -تمتم ماكلوفيو- إن علمت ميليساندرا بشيء، فسيكون بسببك.

كان ماكلوفيو يعتقد أن الشباب أنفسهم أثاروا الريبة بداخلها. ستفضحهم آثار المخدرات الخفيفة التي جلبها لهم أو الويسكي أو السجائر الرخيصة والأطعمة المعلبة. لم تكن غبية وسوف تعرف أن هناك ما يُقدَم بالمقابل. لابد من التحلي بالصبر، كان ماكلوفيو يردد مع نفسه. الأمر ليس لعبة، بعد كل شيء. إنهم ينتظرونه في نيويورك منذ شهرين كاملين محملين بشحنة من أوراق الفيلينا، وإذا لم يسلم الأسلحة، فلن تسمح له عائلة إسبادا بإخراج المخدرات، والأسوأ من ذلك، ربما تقوم بإضرام النار في أراضيه.

- أشعر بالأسف من أجلك -قال ماكلوفيو- مع هذه الحالة لن تتقدموا أبداً. لن يقوموا بشيء إذا كان لديهم شيء من الحصافة.

- نساء تلك العائلة نصف ساحرات -أجاب فيرمين- العالم بأجمعه كان يخاف من جدتهم. أنت تتحدث لأنك لا تعرف.

لم ينظر إليه فيرمين، بل كانت عيناه في الأرض، يرنو إلى قدميه الخشنتين. هؤلاء الملعونون لا ينظرون في العيون أبداً، فكر ماكلوفيو.

- حسنٌ، أنا لا أخشى ميليساندرا -أظهر تحديه- سوف أتمكن بطريقة ما من اختراع شيء ما لإلهائها. اذهب غداً إلى القارب، وسأعمل أنا على أن لا تكتشف شيئاً. خذ، احمل هذه -سلمه الحقيبة- قل للآخرين أن تهيأوا.

رفع فيرمين عينيه ونظر إليه دون أن يكون على قناعة. حلّق أحد طيور مالك الحزين، على ضفة النهر ومضى يصفق بجناحيه فوقها.

الفصل السابع

كان المصباح فوق منضدة دون خوسيه هو النور الوحيد في المكتب. في مواجهة الرجل العجوز، كانت ميليساندرا ورافائيل يجلسان على كرسي متهالك تحت النافذة، يصغيان إليه ويحتسيان القهوة التي أعدتها مرسيدس، والتي ما يزال البخار يتصاعد منها. كانت الحشرات الصغيرة تطن على نحو متواصل، منجذبة إلى الضوء، والكلمات تطوف في هدير النهر.

– مُخطئ مَن يظن أن الوحدة هي مكافأة جاحدة لمن يختار حياة التأمل والدراسة. كانت حياتي مليئة بالناس دائماً، إذ رافقني مفكرون وكتّاب وشخصيات أدبية على نحو دائب. كنتُ أشعر بهم كما لو كانوا إلى جانبي شخصيات حقيقية من لحم ودم. مرت عليّ أوقات، أصبحت فيها هذه الكائنات هاجسي الأوحد، مرتبطة بدواخلي مثل ارتباط أوديسيوس بسارية المركب، وصوت صافرات الإنذار المجنونة، ورأيت، من زاوية غرفة أوديب، الانتحار اليائس لـ «جوكاستا». لقد عانيت من هلوسة كنت أتحدث فيها مع السيدة دالواي والسيدة رامزي. قضيت ليالي أتحدث مع سيرفانتس وبورخيس حول إمكانية قيام شخص ما بإعادة كتابة دون كيشوت مع أني لم أقرأها مطلقاً، لدرجة أدخلتني زوجتي حينذاك إلى مصحة الشابوي ورقدت فيها بضعة أشهر. كانت تظن أنني ربما أكون قد فقدت عقلي. لكني لم أكن مجنوناً بالطبع. وكان عليها أن تعترف بذلك مع الأطباء. وجدت نفسي محشوراً في عقلي، أشارك مساحته الصغيرة بأصواتٍ كثيرة جداً. في بعض المناسبات، تتلبسني المناظر الطبيعية حيث هامت أرواح هيثكليف وكاثي، أو حيث جنح إلى البر، المحكومون الإسبان لغارثيا ماركيز، أو المستنقعات أو ماجدولينا الشاسعة. كانوا

جميعاً يتجسدون في حياتي كأبعاد بديلة للواقع، حيث أستطيع فيها أن أمشي أو أبحر لساعات دون هدف.

قادتني تخيلاتي إلى الخروج بحثاً عن طواحين الهواء. انضممتُ إلى مجموعة من الشعراء الذين اقترحوا إنشاء نموذج للمجتمع جديد وثوري تماماً، من خلال اللجوء إلى الخيال، وتراكم الأساطير، والخبرة الجماعية الموجودة في الأدب الإنساني وفي الشعر في جميع عصوره.

غاصين بكمية من أدب الخيال المُتراكم، اندفعنا نحو مهمة تحديد النماذج وتطوير عمليات تصنُّع لا حصر لها، بالتنظير في هذا البديل أو ذاك. بالكاد كنا ننام، متفخين بالدخان المنبعث من المدخنين وأبخرة إيثيل أولئك الذين لم يكونوا ليستطيعوا التفكير دون أن تسري جرعة مناسبة من الكحول في دمائهم. لم يكن من السهل إطلاق العنان لمجموعة من الشعراء ثم يُتوقَع منهم أن يتصرفوا مثل علماء اجتماع باردين – ابتسم دون خوسيه.

واصلنا القيام بهذه الممارسة المُبالغ بها، لعدة أشهر، قبل أن يطرح علينا صديقي العظيم أرنستو، الشاعر الهادئ والحكيم، ذو المعرفة العميقة بالفيزياء والكون، المشكلة الأساسية التي وجدها في مقترحاتنا: وبدأنا من الصفر. كان نموذجنا قابلاً للتطبيق فقط في بداية افتراضية للعالم. «إنهم يعودون تقريباً إلى الانفجار العظيم»، قال أثناء احتسائه رشفة من مشروب الروم الأصلي. «أو إلى عصر ما بعد القنبلة النووية، أو كارثة من هذا الحجم تجبر الرجال والنساء على إعادة التفكير في طريقة الوجود». اعترف لي فيما بعد بأنه كان مهووساً بفكرة كيفية محاكاة تلك البداية المعقمة والافتراضية التي كانت مفقودة في تخميناتنا، واعتبرها إحدى ضرورات نجاح التجربة. «نحن بحاجة إلى الجزيرة لإنشاء المدينة الفاضلة»، قال. لابد من إرساء نواة حقيقية وتطهيرها عبر أجيال عديدة، تتكون فقط من الرجال والنساء الذين لم يعرفوا قط الطمع، والسلطة، والجشع، والشر. إنها تتعلق ببناء الخليّة، الجسيم، أول كائن حي.

هذه الخلية الاجتماعية التي اقترحها أرنستو، يجب أن تنمو في بيئة قاحلة، في فراغ... ويشترط فيها الاستغناء تماماً عن إغراء التكاثر، لفترة

غير محددة. ولم يتم الاتفاق على هذا المقترح الأخير، لتعرضنا إلى انقلاب وحرب جديدة. كان القمع الذي واجهناه شرساً. لقد توقعنا أنه عندما يتم القضاء على النظام القائم، فإننا بذلك نقوم بخلق فرصة مادية ومعنوية لكي يتمكن البعض من أن يكونوا جزءاً من مشروعنا الابتكاري.

حدثنا أرنستو عن مكان في شمال البلاد. وصف لنا جماله الطبيعي المُذهل، والجدول الذي يمر عبره، والجبال المحيطة التي نمت حول الغابات الاستوائية الرائعة، مكان تكتسب فيه الأحلام نسيجاً حيوياً مُريعاً. في إحدى الليالي التي قضاها هناك، حلم بمدينة فضية. برز اسمها «واسلالا» لامعاً على جذوع أشجار السيبو العريقة والضخمة.

أجمعنا أن حلمه، رؤية. وقررنا أن نذهب إلى واسلالا في أسرع وقت ممكن، إذا لم نكن نريد أن ينتهي بنا المطاف في زنزانة ما أو تعذيب وحشي أو قتل.

كانت كلمات دون خوسيه الهادئة تضج بالحنين في هذا الليل الصافي.

– من النهر، أبلغتني زوجتي التي لم أرها منذ الانقلاب، أنه يجب أن أغادر، وسوف تلحق بي فيما بعد.

استغرقت الرحلة إلى واسلالا أسبوعاً. كان المكان مذهلاً. التقاء المناظر الطبيعية المتنوعة أدى إلى بروز ظاهرة غريبة وفريدة من نوعها للطقس: يمكن للمرء أن ينتقل من مناخ دافئ إلى مناخ معتدل بمجرد المشي بضعة أمتار عبر ممر، كانت تدور فيه الرياح. في الوادي المعتدل شرعنا في إنشاء المجتمع. تم تحديد امتداده بأربع شجرات سيبو عملاقة. بدأنا في بناء المنازل وفتح الممرات وإنشاء الحدائق. كانت الملابس في «ممر الرياح»، تجف خلال دقائق، مما يشكل خليطاً باهراً من الخرق الملونة التي ترفرف في الهواء دون أن تتساقط. آه! كيف يمكن أن أنقل لكم مجريات تلك الأيام! بعيداً عن الاضطهاد، وبروح رائدة وهمة عالية سمت بنا جميعاً، شددنا العزم بمؤازرة بعضنا لبعض، والتخلي عن كل صغائرنا وأنانيتنا، والتصرف بعفوية تتوافق مع مجموعة بشرية كانت مستعدة تماماً للتعايش المادي والروحي. بنيت مسكني الصغير على ضفاف الجدول حتى لا يفوتني خرير الماء. كان

نهر واسلالا بالنسبة لي، نهري دجلة والفرات من الجنة الأرضية. أستطيع أن أقول، ودون خوف من أن أكون مخطئاً، إنني في تلك الأيام كنت أسعد إنسان.

– وزوجتك؟ – سأل رافائيل.

– كانت همي الوحيد. مضى على انفصالنا شهور... كنت أعرف أنها ما تزال هناك في النهر آمنة، لكنني لم أكن أمتلك وسيلة لإخبارها بالمكان الذي كنت فيه، ولا الخروج للعثور عليها أو استدعائها دون تعريض موقعنا السري للخطر. اندمجتُ في العمل وقررت أن أنتظر اللحظة المناسبة. مر أكثر من عام قبل أن يخبرنا أحد القرويين أن الجنرال الذي كان يطاردنا، قد اغتيل على يد مرؤوسيه وأن فاغواس بدأت تنضج فيها تجربة الحرية والديمقراطية من جديد. حين قررتُ الخروج للبحث عن زوجتي، كنا في واسلالا قد تمكنا بالفعل من الاستعداد لممارسة الحياة اليومية. بدأت بساتيننا الدافئة والمعتدلة تؤتي ثمارها، ومزرعة الأرانب والدجاج تتكاثر، وورش العمل الخاصة بالجلود والنجارة والميكانيك والطبخ والفنون تعمل على نحو دؤوب، وكذلك مدرستنا الصغيرة. لقد عشنا في حالة من السلام لا تُوصف، محاطين بأشجار السيبو والمناظر الطبيعية المختلفة التي جمّلت نوافذنا، وتركنا أنفسنا لمحادثات مسائية طويلة بعد العمل ونزهات منعشة ورحلات استكشافية في عطلة نهاية الأسبوع.

لم نتوقف، أنا وباقي الشعراء، عن الإعجاب بالنجاح الذي أثمرت عنه تجربتنا. وانتهى أرنستو من صداع الرأس الذي كان يعاني منه وصار ينام الليل بطوله حتى الصبح. أما أنا، فلم أتذوق الراحة رغم شعوري بالسعادة. ظلت الوداعة التي كانت تؤنسنا، تزعجني. شعرت، عن غير قصد، بأننا ننجرف عن الميل إلى عزل أنفسنا لدرجة أن اتصالاتنا مع مجتمع الفلاحين المجاورين بدأت تنتشر. في تلك الأيام بدأت أتساءل عما إذا كانت الخلية ستتكاثر يوماً ما أو إذا لم يكن هناك خطر من حبس أنفسنا من خلال صد المؤثرات الخارجية، وتحولنا إلى نوع من «أفالون» حديثة، جزيرة من ضباب وحصن منيع لا يطاله البشر. هذه الفكرة لم تثرني. شعرت ربما بحنين سابق لأوانه لفكرة العيش بعيداً وخارج الأرض الخصبة حيث تنمو التيارات الفكرية الجديدة والمثيرة للاهتمام دائماً. ذكرت هذا لأرنستو،

فوبخني على نفاد صبري. أخبرني أنني لا يمكن أن أكون سعيداً هناك، ما لم أمتلك الصفاء الكافي بشأن الفكرة الأساسية القائلة إن واسلالا ستنمو في البداية على أرض معقمة، بعيدة عن ضجيج الصراعات الخارجية. أصرّ على أننا يجب أن نقبل بسخاء إمكانية التضحية بعطشنا الفكري إذا أردنا أن نشهد ولادة جيل قادر على بناء المدينة الفاضلة الحقيقية، بمنأى عن عيوبنا.

اعتقدت مرات عديدة أن الشكوك والمخاوف التي كانت تلازمني، تتآمر ضدي. قلة الإيمان والتذبذبات الفكرية ربما تداخلت مع الطاقة الجماعية التي أحاطت بواسلالا وجعلتها بعيدة المنال عن نظري. لا أعرف. مؤكد أنني عندما حاولت العودة، لم أتمكن من رؤيتها مرة ثانية، ولم أستطع العثور على أشجار السيبو، ولا غروب الشمس الذي تحول إلى دوامات في «ممر الرياح».

توقف دون خوسيه فجأة. لفترة طويلة فقط لم تكن تُسمع في المكتب سوى أصوات الصراصر ونقيق الضفادع الليلي.

نظرت ميليساندرا إلى عيني جدها، المبللتين والمتوهجتين. حدقت فيهما معتقدة أنها بالولوج إليهما، ستتمكن من أن تلمح، ولو من بعيد، الجدول، والغابة الرطبة والخضراء، وهواء واسلالا النقي المنعش.

وقف رافائيل في حالة ترقب بانتظار أن يواصل الرجل العجوز حديثه، خشية مقاطعة صمته. لاحظ عيني الشاعر الزرقاوين، مُخمناً أنه أُعطي فرصة للمشاركة في طقوس، هي نوع من الأناشيد المُفعمة بالذكريات لإحياء هذا المكان الغامض، وتسميته حتى يكون موجوداً. وعلى الرغم من الوصف الدقيق لحدود واسلالا الجغرافية -التي ربما سهلت عملية العثور عليها- فإنّ كلماته كانت مُحاطة بمراجع ضبابية غامضة.

– لكن -تجرأت على أن أكسر صمتي أخيراً- كيف تستطيع أن تحدد مكان واسلالا الحالي، دون أن ترجع إلى هناك مرة ثانية أبداً؟

– لقد وصلتُ -أجاب دون خوسيه، دون أن يلتفت إليه. كانت نظراته زائغة في نقطة غير موجودة في الفضاء- باتباع الإحداثيات الجغرافية، وصلتُ إلى ما كان يجب أن يكون الموقع الدقيق -قال ملتفتاً إليه هذه

المرة- المحير في الأمر أن المكان لم يعد موجوداً. لم تكن الأنهار في الموضع ذاته، ولم يكن هناك واد بينها، ولا بين الغابة والجبال. لم أجد أشجار السيبو ولا «ممر الريح». لم أجد سوى القروي العجوز، عمدة فارا الذي حدد لنا المكان، والذي بدا لي ضائعاً مثلي. لم يتعرف عليّ. كل ما استطعت الحصول عليه، هو سماعه يقول ما كنتُ أعرفه بالفعل: كانت واسلالا قد اختفت.

قال لي: لقد رحلت أشجار السيبو بعيداً. استناداً إلى أساطيرهم المتوارثة عن المايا والأزتيك، فإن السيبو هي شجرة مقدسة، الشجرة التي تحافظ على العالم. سوف يختفي العالم باختفاء شجرة السيبو.

- لكن كيف يمكن أن تختفي؟ - أصر رافائيل.

- الأساطير مليئة بالأماكن المماثلة -واصل دون خوسيه- من ناحية ثانية، من الممكن، وهذا شيء توقعته شخصياً، أن ما بدا كأنه ظاهرة مناخية -«ممر الرياح» وهواء واسلالا الدافئ- لم يكن أكثر من علامات لفتحة في الزمان - المكان الذي وصلنا إليه بالصدفة.

- لكن هناك أشخاصاً في المناطق الداخلية من البلاد يؤكدون أنهم شاهدوها، هل هذا صحيح؟ - سأل رافائيل.

- نعم، هناك روايات لمسافرين ادعوا أنهم عاشوا يوماً أو يومين في واسلالا، لكنهم حين يستيقظون فيما بعد، يجدون أنفسهم وحيدين في مشهد مختلف. من الواضح أن العثور عليها، مسألة غريزة تكمن في الوصول إلى المكان التقريبي والاسترشاد بالحدس والرائحة... لا أعرف. لستُ الشخص المثالي للحكم على ذلك، لكني لم أستطع العودة قط، ربما لأن واسلالا لم تعد موجودة، وربما هي موجودة تنتظركم هناك، وربما هناك مشكلة في العيون بحيث لا تراها. لا أحد يعرف! لولا زوجتي، لكنت ما زلت أتجول بحثاً عنها، عن أشجار القطلب، وأشجار السيبو العملاقة.

صمت دون خوسيه ثم اعتمر قبعته وأطبق عينيه المُتعبتين.

- تحولت واسلالا إلى أسطورة وطنية -تدخلت ميليساندرا بعد أن نهضت لتطل من النافذة- المكان الذي لا يمكن الوصول إليه. إضافة إلى

رواية بعض الأشخاص المضللين الذين يدّعون أنهم كانوا في واسلالا، يقول آخرون إنهم رأوها في الضباب أو في نهاية طريق لا يقصر مهما مشينا فيه. اقترحت إحدى حكوماتنا العديدة إحضار قادتها إلى العاصمة لتعليمهم سر الحكم الرشيد. ولم تتمكن الدوريات المرسلة عبر البلاد من العثور عليها. لقد عادوا بمزيد من الأساطير والروايات المدهشة. حكومة أخرى، أحدث، قررت أن واسلالا منطقة ميتة، وتم تحريم كل ذكر لاسمها وحكموا بالسجن على الذين عقدوا العزم على البحث عنها. في ذلك الوقت، استيقظ الرجال والنساء والأطفال، وخاصة المسؤولين عن التحريم، وهم يحلمون بهوس واسلالا، ليلة بعد أخرى. وفي ذلك الوقت أيضاً غادر والداي. ربما ما زالا هناك.

– كل شيء جائز – قال دون خوسيه.

***

– لا بأس من التمشي قليلاً – قال رافائيل لميليساندرا حين غادرا المكتب.

سارا على طريق النهر. كانت الليلة صافية تحت القمر. تقدمته بثبات، برأسها المستدير محاطاً بهالة من الشعر الأحمر، والريح تعصف على قمم النخيل وبين الأغصان الطويلة للأشجار. وصلا إلى الرصيف. اعتلت ميليساندرا الدرج الخشبي، ووصلت إلى الحافة حيث جلست وساقاها تتدليان فوق المياه، فيما جلس هو إلى جانبها.

– ستعتقد أننا مجانين – قالت.

– كلا، كلا –قال– جئتُ أنا بالطبع من حيث لم يعد أحد يؤمن بالمدن الفاضلة. يقلقني أن جدك تبنى المزيد من خياله على محمل الجد. لكن هذا هو التحدي. سوف نرى. سيتوجب علينا التحقق من ذلك بأنفسنا.

– قال لي جدي إنك تعرف ألان، وبذلك تكون قد دعمتَ روايته، وإلا، ما كنتَ هنا... – ابتسمت ميليساندرا في الظلام، ابتسامة بيضاء مشرقة.

– أنا لستُ صحفياً متشككاً. هذه هي نقطة ضعفي الكبيرة، ولكنها فضيلتي العظيمة في الوقت ذاته – قال غامزاً.

- يروق لي تواضعك - قالت ساخرة.

- التواضع فضيلة عادية.

ضحكت ميليساندرا.

- أنتِ على قدر كبير من الجمال - قال وهو ينظر إليها باهتمام، مدمدماً مع نفسه أكثر مما معها.

- سأشتاق للنهر - قالت وهي تنظر إلى انعكاس قدميها في الماء.

الفصل الثامن

أيقظها الصوت الأجش البعيد لحلزونة بيدرو عند الفجر. أطلت من النافذة وشهدت ضوء الفجر الوردي يتلألأ فوق ظلال النخيل، على الجانب الآخر من النهر.

ألقت نظرة فيما حولها. هذه الغرفة ستكون بعد قليل، مجرد ذكرى، كما هو الحال بالنسبة لوجه جدها، ولخواكين، وللنهر ذاته الذي كان يمثل طوال حياتها، الحبل السري الدائم والمستقر للعالم الوحيد المسموح به.

عندما خرجت إلى غرفة الطعام، كان دون خوسيه ينتظر مرتدياً بنطاله الأسود وقميصه الأبيض المكوي جيداً، واضعاً قبعته وعصاه على ساقه، تفوح منه رائحة الكولونيا. تناهى إلى سمعها أنين حلزونة بيدرو وقد أصبحت أقرب. كأنهم مرهونون بأحلامها، وبسحر استدعائها، اجتمع الزوار في غرفة الطعام واحداً تلو الآخر، بعد أن وضعوا حقائبهم على الظهر وأجهزتهم على الطاولات وعلى الأرض.

اقترب رافائيل من دون خوسيه وميليساندرا. ظن أن الرجل العجوز كان يرتدي ثياباً باللونين الأبيض والأسود حتى يبقى في ذاكرتها ناصعاً وجديراً.

انتهى الإفطار في الوقت الذي رسا فيه قارب بيدرو على الرصيف.

جففت مرسيدس يديها بمئزرها وخرجت مع دون خوسيه إلى الممر لمراقبة الاستعدادات. اقترب المجذفون من القارب وربطوه بالرصيف وبدأوا بتحميل أمتعة المسافرين.

– لا تقلقي على ميليساندرا –قال الألماني هيرمان لمرسيدس، حين اقترب من خلفها وهمس في أذنيها– إنها ليست من النوع الذي يضيع بسهولة.

- انتبه إليها من ماكلوفيو -همست مرسيدس- لا أحب هذا الرجل.

مرت المرأتان الهولنديتان بجانبهما وهما تحملان حقائب الظهر. رنت مرسيدس إلى هيرمان في انتظار تعليقه على رأيها.

- لا تقلقي من أجلها - قال.

انحنى ليعانقها ويودعها. وعدها أن يفعل ما بوسعه للحفاظ على ميليساندرا.

جاء موريس ليودعها أيضاً. كانت تشعر بالراحة لهذا الرجل العالِم. على الرغم من أنه كان هادئاً وصامتاً، لكنه كان يتمتع بمزاج رجل طيب. من بين كل أولئك الزائرين، كان ماكلوفيو، المخلوق السيئ الوحيد.

- إلى اللقاء، مرسيدس - هتف لها بخبث أثناء سيره نحو الرصيف. رفعت له يدها مبتسمة، لأنها لا تريد أن تفعل شيئاً من شأنه أن يضايقه في المزرعة، لأنه سيكون رفيقاً لميليساندرا في الرحلة.

سمع بيدرو، دون خوسيه يوصيهم مراراً وتكراراً بالحفاظ على حفيدته. كان مضطراً لتركها مع رافائيل وموريس عند إنغراثيا. سوف تعتني بهم وتزودهم بالوسائل التي تسهل عليهم السفر إلى الداخل. نظر البحار إلى رافائيل، بارتياب. لم يكن يتوقع أن ترافقهم ميليساندرا، رغم أنه كان يعرف حق المعرفة، رغبتها في القيام بهذه الرحلة.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً، حين أشار بيدرو للفتاة أخيراً أن وقت الرحيل قد حان. ذهبت للبحث عن جدها لكي تقوده من ذراعه إلى الرصيف. هناك تودعا في النهاية. احتضنتها مرسيدس بقوة وهي تبكي. شمت بعمق رائحتها النظيفة ثم احتضنت الجد بشدة، مغمضة عينيها لفترة طويلة. حاول دون خوسيه جاهداً أن يحافظ على كرامته الأرستقراطية، لكنه لم يتوقف عن لمس طرف أنفه على نحو متكرر.

- لا أريد أن أقضي بقية حياتي في انتظارك يا ابنتي -قال- عودي بسرعة - أضاف بعد أن خلع قبعته بحركة فسرتها ميليساندرا، بشكل مؤثر، على أنها طريقته في البكاء في الأماكن العامة.

احتل بيدرو مكانه في مقدم قاربه تحت أشعة الشمس الدافئة لصباح

شهر تشرين الأول الأزرق ذاك. رن هدير الحلزونة الأجش والمطول. «هيايايايايا» صرخ المجذفون في الوقت ذاته، وبدأت المياه تنشق أمامهم. وانسل القارب في أعلى النهر.

أعالي النهر.

الفصل التاسع

كان قارب بيدرو، «الملكة»، مركباً ذا أبعاد مناسبة، نسخة أصغر وأكثر استطالة من سفينة نوح. صُنع من ألواح أرزية طويلة وعميقة وضيقة. طاقمه يتكون من عشرة مجدفين، خمسة على كل جانب، يشغلون نهايات مقاعد عرضية طويلة تمتد من المقدم وحتى بداية سقيفة الركاب في المؤخرة. احتل بيدرو، المسؤول عن الدفة، المقدم الذي يعلو عن باقي المركب بجسر ضيق يمتد خلف السقيفة، حيث كان يتحكم في الملاحة عن طريق أصوات محارته.

وعلى الرغم من محاولات تحديث وسائل النقل النهري، لم يكن هناك شيء على النهر يمكن أن يضاهي كفاءة تلك المراكب البدائية، التي صُنعت بمميزات تتجاوز أغلب المشاكل ومنها مستويات أعماق النهر المختلفة، وسوء استخدام البحارة. إحدى الشركات المصنعة التي تمتلكها مجموعة من مستثمري أمريكا الشمالية كانت قد حاولت منذ سنوات عديدة، إدخال زوارق سريعة بمحركات طائرات ترتفع فوق مستوى المياه، بيد أنها فشلت ولم يتبق منها سوى الخوذات المنسية هنا وهناك، التي أصبحت مصدر تسلية للطحالب والأطفال. لقد كانت ضحايا للقباطنة والميكانيكيين المحليين، الذين لم يفهموا جيداً نسبة خلط الزيت والبنزين المطلوبة لتشغيلها، على عكس المراكب البدائية التي بقيت على قيد الحياة لم تطلها يد التآكل والاندثار تقريباً، إذ تمت قراءة المواصفات الجيدة للمراكب في روايات الرحالة في القرن التاسع عشر، ومن ثم تطبيقها مع تعديلات طفيفة. كانت قد أجريت بعض التحسينات: الجزء العلوي من سقيفة «الملكة» مصنوع من مادة بلاستيكية جديدة وشفافة تماماً، مما سمح للركاب بالاستمتاع بالمناظر

مع حمايتهم من أشعة الشمس الضارة. أرضية السقيفة صُنعت من الخشب، مع تغطيتها بسجادة اصطناعية يمكن تنظيفها بسهولة من خلال هزها من جانب القارب. لم تكن المساحة المغطاة المخصصة للمسافرين واسعة جداً. كان باستطاعتهم خلال النهار التجول بين المجذفين والجلوس في الجزء الوسطي من المقاعد أو أخذ حمام شمس على سطح السقيفة. تقوم بطارية خفيفة الوزن وقابلة لإعادة الشحن، بتشغيل مجموعة من شمعات الإنارة الصغيرة ذات الجهد المنخفض وهي تعمل كمصابيح ليلية.

لم يكن القبطان بيدرو ليمتنع عن التصريح بأن ميليساندرا، كانت بالنسبة له، الشخص الأعلى مرتبة من بين المسافرين على ظهر قاربه. يمكن للآخرين أن يجلسوا أينما يحلو لهم، لكنه احتفظ لها بمكان تحت جسر القيادة، في عمق المؤخرة، حيث يمنح انحناء السفينة مساحة رحبة ومحمية. أذعنت ميليساندرا لهذا التميز. وضعت أغراضها، لكن بعد إجراء بعض الحسابات والاتفاقات والتعديلات البسيطة، استقر الركاب الآخرون جالسين تحت السقيفة. صعد رافائيل للجلوس إلى جانب ميليساندرا.

تلاشى المنزل وسط الخضرة الكثيفة على ضفة النهر. ودعهم الرصيف الخشبي البدائي بركائزه الحمراء الخشنة، مثل ذراع مفتوحة. توغل القارب في الجزر الصغيرة التي تسكنها عجول البحر النائمة باسترخاء تحت الشمس. بدا نفق الأشجار المتقاطعة مع النهر كأنه قطعة هاربة غامضة من الليل. ولم يتبق بعد هذا المشهد سوى مياه النهر الصافية التي يلطخها بين الفينة والأخرى وعلى نحو عابر، مرور أسراب الطيور التي تحلق أمام القارب.

أغمضت ميليساندرا عينيها. كان منزل المزرعة يذوب. مع مرور الأيام، ربما سيحدث لها ما قد حدث مع جدها بشأن واسلالا: ستضمحل الحقيقة لتصبح خيالاً، وسوف يكتسب المنزل والرجل العجوز ملامح وسمات غير طبيعية، تستولي عليها في القادم من وحدتها، لكي تحافظ عليهما مثل تعويذة وذكرى لطيفة تطمئن إليها. ابتهلت إلى روح جدتها أن تحميهم. كانت على ثقة تامة من أن خواكين سوف يحافظ على المزرعة أيما حفاظ. «لم يأت لتوديعي»، فكرت. شعرت بالحزن، ولكن بالحرية في الوقت ذاته.

فتحت عينيها. التفتت إلى مقدم المركب. فقد النهر تياره، وسدت الأشجار الممتدة في الأمام مثل أقواس، بظلالها، مرأى المياه. تنفست بعمق لتخفف التشنج غير الإرادي الذي كان يجوس خلال عظام صدرها.

وضع رافائيل يده على يدها، وضغط عليها برفق.

– سوف تعودين –قال– وسيكون جدك في انتظارك أنتِ وما تحملينه من أخبار عن واسلالا.

– شكراً على كلماتك التشجيعية، لكنني أود في هذه اللحظات لو كنت أمتلك كرة بلورية لأرى المستقبل وأعلم بيقين أنه سيبقى على قيد الحياة لحين عودتي.

– سيعيش ما دام به فضول – أكد لها بثقة تامة.

قام رافائيل بتعديل عدسة الكاميرا الصغيرة التي كانت مثبتة على حافة القبعة، والتي لم يتوقف عن التصوير بها.

– أعتقد أن جدي تطوع منذ وقت لتجربة عقار يُطيل الحياة. من بين المسافرين، اعتاد أحد الأطباء أن يزورنا، فيحبسان نفسيهما لساعات طويلة في المكتب. قال لي فيما بعد إن العلم سيتغلب في القريب العاجل على الهرم والموت. ولم نعد نر الطبيب منذ عامين. أتساءل عما إذا كان الأشخاص الذين خضعوا للتجربة، قد بدأوا يموتون.

– ربما هناك أشخاص يأتون إلى هنا لغرض تجربة عقاقير جديدة على الكائنات البشرية. هناك طفرة جينية للكوكايين والماريجوانا والفيلينا، أخذت تنمو على ما يبدو في فاغواس، ويبدو أيضاً أنها تكسب المعركة ضد العقاقير غير الضارة بينما من المفترض أن يكون هدفها القضاء على العقاقير الضارة.

تحركت ميليساندرا على نحو غير محسوس تقريباً. نظرت عبر السقيفة. كان موريس وهيرمان يتحدثان، بينما النساء الهولنديات وماكلوفيو جالسون على مقدم القارب.

– سمعتُ شيئاً عن هذا النوع من المخدرات –خفّضت صوتها، وأومأت إليه أن يُوقف الكاميرا– يشك بيدرو في أن كميات كبيرة تخرج من غري

تاون، لكننا لم نشأ الخوض في هذا الموضوع. الأمر خطير. إن إسبادا أعداء ولابد من الحذر منهم. إنه لأمر مؤسف حقاً -أضافت- لكن كل شخص في فاغواس مشغول بأموره الخاصة فقط. العمل وفير.

- من الأفضل أن نغير الموضوع -همس- إن إسبادا وماكلوفيو، شركاء.

مروا في هذه اللحظة بالقرب من الشاطئ لدرجة أنه كان باستطاعتهم رؤية العيون المستديرة الكبيرة للسحالي الخضراء المجعدة، من فوق الأشجار على الضفة.

نظر رافائيل إلى ظهر ماكلوفيو. لقد كان الرجل الأهم، دون أدنى شك، لكنه ماهر جداً أيضاً. كان قد حاول محاصرته ببساطة متظاهراً بالفضول، من خلال طرح الأسئلة المباشرة، لكن ماكلوفيو عرف كيف يتملص، ويلعب دور الوغد اللطيف. واعترف دون أدنى تردد بدوره في تجارة السلاح. «على المرء أن يعيش. لا يمكنك أن تكون أكثر بابوية من البابا». كان يستبدلها بلقى أثرية، قال له، ونفائس حقيقية يبيعها باحترافية في أسواق الفن. إنه ليس نوعاً من السلب، بل إنقاذ، وعلاوة على ذلك كله لم يكن ليعير أهمية لأي شخص هناك.

بيد أن الأرجنتيني لم يكن أحمق، إذ سأله عن دوافعه لكتابة تقرير عن واسلالا. هل يهمه ناشرك فعلاً؟ سأل دون أن يخفي شكوكه.

- أتيتَ إلى فاغواس إذن للبحث عن واسلالا حتى تتمكن من التلويح أمام العالم بفكرة بناء مجتمع مثالي، في ظل هذه الخيبات؟ -قالت ميليساندرا ساخرة- لا أعرف السبب الحقيقي، لكني أشعر بعدم القناعة في نواياك.

- عدم القناعة تشويه مهني. من الصعب أن يكون المرء عرضة للارتياب في يومنا هذا -أجاب، وهو يراها تلمع كالنحاس المصقول فوق السقيفة- والآن، اسمحي لي، سأذهب للتحقق من بريدي الإلكتروني. الناشر الذي أعمل معه، رجل عصبي للغاية... - قال، منزلقاً من السقف إلى داخل المركب. ومثله فعل المسافرون الآخرون الذين كانوا يجلسون في أماكن متفرقة على القارب.

بدأ المجذفون ينشدون أغنية صغيرة رتيبة تتوافق مع حركاتهم الإيقاعية.

استلقت ميليساندرا على ظهرها، وأخذت نفساً عميقاً. ما إن شرعوا بالابتعاد، حتى انخفض مستوى الاحتقان لديها. وبعد قليل، تناغم جسدها مع صوت المياه والرياح واللحن الإيقاعي، وارتخت متمددة تحت الشمس.

من داخل السقيفة، رفع هيرمان عينيه ورأى عبر الهالة الحمراء لرأس ميليساندرا، التشابك الأخضر للأشجار التي تمتد أغصانها من ضفة إلى أخرى، وكذلك ألسنة خضراء تتدفق من وسطها المُضاء.

كان النهر مشهده المُفضل. كثيراً ما كانت ذكرى وجوده في بريمن، سواء في المنزل أو متجولاً شتاءً في ساحة السوق بمبانيها التي تعود للقرون الوسطى، تبلل عينيه وتوثب فيه حنيناً لا يطاق. لم تنجح التكنولوجيا في إيقاظه من الانبهار الذي أثارته الطبيعة التي لا تقهر، فيه. كل شيء متحضر للغاية في حقول ألمانيا: الغابات المرسومة بحدود مفروضة على نحو صارم، والمساحات الخضراء للمراعي المزروعة والمحروثة، والمتنزهات المُحافَظ عليها باعتناء تام. أما هنا، فلا يتوجب على المرء سوى ركوب النهر، لاستعادة المشاهد المفقودة ورؤية صغر حجم الإنسان أمام وفرة قرون من الخضرة.

ألقى المجذفون، عند الظهر، مرساتهم تحت بستان نخيل كثيف. بسراويل مطوية حتى منتصف الساق، هبطوا على امتداد الضفة الضيقة من أجل تهيئة طعام الغداء. قطعوا عذقاً من شجيرة الموز التي جاؤوا بها مربوطة بأحد أعمدة السقيفة، وأعدوه على موقدٍ آني، لطبخه مع اللحم المملح والأرز.

كانت الرمال غامقة وناعمة. استنتجوا من خلال الآثار الموجودة عليها، أنها المكان المفضل للسحالي التي تعرض أبدانها للشمس. حدثهم ماكلوفيو كيف أنهم حين توقفوا فيها للمرة الأولى، لأجل تناول طعام الغداء، حاول أن يشق طريقه بين النخيل، لكنه فشل ولم يستطع التقدم أكثر من خطوتين. قال كأنه واثق من معلوماته، إن الأشخاص الوحيدين الذين عاشوا داخل تلك الغابة هم أفراد قبيلة من هنود الغواتوثو الذين يتنقلون على شكل مجاميع، مثل القرود، فوق رؤوس الأشجار، حيث يقيمون هناك طوال

موسم الأمطار. هؤلاء الهنود تم اكتشافهم قبل قرنين من قبل أميركي من كاليفورنيا، كان أسيراً لديهم، ولحسن الحظ أن ابنة رئيس القبيلة أغرمت به، وأنقذته من موت محقق. تزوجها المسافر، بيد أن الأمطار حين هطلت وبدأت القبيلة حياتها القردية فوق الأشجار، لم يستطع الكاليفورني أن يقاوم. هرب وهجر الأميرة.

- جماعة من مهربي الحيوانات سرقوا أطفالاً من هنود الغواتوثو وباعوهم على أنهم قرود شمبانزي عن طريق الخطأ -قال- لم يتنبه المشترون للأمر حتى بدأت «القرود الصغيرة» تتحدث إليهم تطلب الموز. تخيل، يا صاحبي، مقدار الندم الذي أكلهم - أضاف ضاحكاً بصخب متجاوزاً سحر قصة الأميرة دون مقدمات.

- المسألة أكبر من أن تدعو إلى الضحك - تمتم موريس بعد أن نهض مُبعداً عن ذراعه المعدنية حبيبات الرمل.

- إنني أضحك من غباء المهربين - قال ماكلوفيو.

- أخشى هذا النوع من الغباء، ولا أضحك منه - واصل موريس، وهو يلملم أطراف بنطاله للعودة إلى القارب.

عمل هيرمان على تدوير الماء الصافي في قدحه ونهض أيضاً.

في رحلاته الأولى، كان يشتبه بأن الأطفال العراة ذوي البشرة السمراء، قردة، مندهشاً من مرونتهم القردية. وتغيرت بعض مفاهيمه عن البرية. بعد رحلته الثانية أو الثالثة إلى فاغواس، أدرك أنه لم يرجع إليها من أجل التجارة، إنما لشيء أقل ارتباطاً بتهريب الذهب. كان يبحث عن واسلالا أيضاً. ليست التي يبحث عنها الآخرون، بل واسلالا التي تخصه.

صفّر قارب بيدرو مندفعاً بقوة المجذفين، وانسل في المياه بسرعة، مغادراً الشاطئ.

عند الساعة الخامسة بعد الظهر، توقفت فجأة الحركة المثالية للمجذفين، وكذلك أنشودة اللحن القديم الغامض الذي كان يرافق ضربة المجداف. في الوقت ذاته، رفعوا مجاذيفهم من الماء، خلعوا قبعاتهم وأغطية رؤوسهم، ورتلوا بصوت أجش وعميق «أنا ماريا» ثم «أبانا». صلى الطاقم بأكمله

«ليحفظك الله يا ماريا، المليئة بالنعمة». خلعت ميليساندرا القبعة التي يرتديها عادة سائقو الجرارات، ووقفت بوجه الشمس. شعرت بالفخر لانتمائها إلى النهر، ولكونها جزءاً منه.

عبر سرب من الببغاوات، السماء، وأقلقت الأجواء بصيحاتها. انتهت الصلاة. انحنى المجذفون وأمسكوا بمجاذيفهم من جديد، متبادلين الضحكات والتعليقات. اللحظة الجليلة قبل بضع دقائق بدت لرافائيل حلماً قديماً، وهلوسة في عقله.

– لم نتعود على الخشوع منذ فترة طويلة – قالت ميليساندرا على سبيل التوضيح، وهي ترى تعابير جارتها المحيرة.

– هذا الموقف يذكرني بالقصص التي سمعتها من جدي عن بحارة السفن البخارية التي كانت تمخر عباب نهر المسيسيبي قبل قرنين من الزمان –قال موريس جالساً إلى جوارهم– لم أعاصرهم، ولكني أشعر بحنين دائم إلى هؤلاء الأشخاص. كانوا يعيشون حياةً جيدة، بيد أن مجموعة «تيل تالز» الشهيرة نشرت حكايات وأكاذيب عنهم.

– إذا كنت تريد سماع القصص، فانتظر حتى يحل الليل –قال بيدرو من موقعه– لا أحد يستطيع مواكبة هؤلاء الكاذبين.

– إلاّ أنا – صرخ ماكلوفيو من الأسفل، وهو يخرج رأسه من كتاب ضخم لجأ إليه بعد أن أجمع الآخرون على عدم الخوض في موضوع القردة بسبب الاستهزاء من قبيلة الغواتوثو.

اجتازوا جزر الجمالوت والكاريثاليز، المتناثرة بكثرة في الجزء الضحل من النهر. ومن هناك شاهدوا سحالي كسولة تقفز في الماء وتسبح تجاههم بفضول، فاتحة أفكاكها الشنيعة على مضض. صاح هيرمان «قولي مرحباً لأقاربك، ماكلوفيو»، مما أسبغ شيئاً من المرح على المشهد.

انفتح النهر على خليج صغير وظهرت «قلعة الحمل الطاهر» كرؤية لواقع آخر، مثبتة على لسان مقطع من الأرض منحدر نحو الماء. كان العلم الأبيض للمنطقة المحايدة يرفرف من أعلى أبراجها. أعلن بيدرو أنهم لن يتوقفوا هنا، لأن ظلام الليل آخذ في الانتشار والمكان معروف بكثرة الثعابين السامة.

يوماً ما سآتي إلى هنا لاستكشاف هذا الموقع، قال رافائيل لنفسه، وهو يحدق في الجدران والنباتات الكثيفة على المنحدرات المظلمة التي كانت تنتصب فوقها أبراج القلعة القديمة المحصنة.

بدأ النهر يجري بمحاذاة الضفاف العالية التي دلّت عليها نقطة الالتقاء مع نهر «كولورادو». اختلطت هنا أشجار النخيل الشاهقة بأشجار ضخمة عمرها مئات الأعوام، نمت على جذوعها القوية كميات هائلة من الطفيليات والنباتات، وعلى أغصانها تكاثفت النباتات المتسقة العملاقة، بحيث بدت الأشجار كأنها صيادون جاثمون على مجرى النهر بغير حراك إلى الأبد. إن كثرة الطيور المندفعة بريشها الزاهي على نحو مباغت من الأغصان العالية التي تطايرت زهراتها في الهواء، أثارت إعجاب رافائيل الجالس إلى جوار ميليساندرا تحت السقيفة. ولم يتوقف عن إظهار دهشته بجمال هذا المكان المُحاط بهالة من الضوء المائل إلى الاحمرار لغروب الشمس. كان من المناظر الجميلة التي لم يتذكر أن عينه رأت مثلها من قبل على الإطلاق.

رفعت ميليساندرا رأسها. شدّت انتباهها شجرة ملتوية غرقت جذورها في المياه.

– الأشجار مثل الإنسان، ألا تؤمنين بذلك؟ من الممكن أن نتخيلها شخصيات خجولة، متكبرة، حكيمة، وشهوانية.

كان الظلام قد حل حين أمر بيدرو بالتوقف والرسو. كان الجو مليئاً باليراعات والحشرات الأخرى الأقل لطفاً للعين وللجلد. أوصى بيدرو الركاب بعدم التحدث بصوت عال حتى لا يثيروا البعوض. قام بإشعال شموع القارب التي أضفت على المكان أجواءً غريبة لكرنفال ريفي عائم. قفز المجذفون في الماء واحداً تلو الآخر. وزعوا قطعاً من الحلوى النظيفة والطازجة، مع الجبن والقهوة كطعام للعشاء، واسترخوا بعدها على المقاعد وشرعوا في تدخين بعض السجائر البدائية التي قاموا بلفها هناك، والتحدث فيما بينهم بحماسة. معظمهم لم يتجاوز الثلاثين من العمر، لكن الشمس والحياة في العراء لوّحتا بشرتهم بخشونة بحيث جعلتاهم يبدون أكبر من أعمارهم الحقيقية. لم يكن هناك أحد أطول من

بيدرو الذي كان صامتاً أغلب الأوقات. كانت أذرعهم العضلية تشبه أذرع رافعي الأثقال الأقوياء.

– هيا يا شباب، اسردوا على ركابنا، بعض القصص عن النهر –طلب بيدرو من موقعه حيث كان يدخن أيضاً– فيلمون، أخبرهم بقصة شبح لا بارتولا!

– إنها ليست قصة –أجاب الرجل المعني، وهو بحار كانت ثلاث أسنان ذهبية تلتمع في فمه بفخر وتبرز أثناء ابتسامته– لقد رأيته بعينيّ هاتين –اكتسى صوته نغمة منخفضة وهسهسة، واقترب الركاب للاستماع إليه– كنت في منتصف النهر متوجهاً بقاربي إلى لاس لوثيس –قال فيلمون، وهو ينفث سحابات من الدخان من لفافته– عندما حدثت هزة أرضية كبيرة زحزحت كل شيء من مكانه وانتفضت المياه من جهة إلى أخرى. قفزت السحالي من الماء وسقطت على الضفتين يصاحبها عواء القردة. كانت الأجواء مشحونة بالجنون –قال الرجل محركاً يديه– في أقل من الوقت الذي يستغرقه صياح الديك، امتلأ قاربي بالسمك وسقطت عليّ من السماء اثنتان من إناث الببغاوات وفحل واحد، بحيث تقطعت بي السبل وأصبحتُ غير قادر تقريباً على مواصلة التجذيف. سحبني التيار إلى أسفل النهر وتنبهت إلى أن إحدى الموجات سحبت قاربي، بسبب قوة الزلزال، وأودت به إلى شواطئ جزيرة «لا بارتولا» ليتحطم هناك. أسلمتُ نفسي إلى الرب الجميل، معتقداً أن المنية ستوافيني عند إحدى شجرات جوز الهند، لكن حين عدتُ إلى وعيي، شعرتُ بالرمال تغطي جسدي، وأنني مستلقٍ على ظهري على الشاطئ نصف ميت، مع قطع من قاربي المتهشم، منتشرة في كل مكان. تحسست ضلوعي ووجهي لأرى ما إذا كنت على قيد الحياة. في البداية، ظننت أن الموت يسخر مني، ويمارس حيله معي، لكن في وقت لاحق، حين أدركت أنني عدتُ إلى الحياة بأعجوبة، زحفتُ على بطني إلى اليابسة، دون أن أعرف متى باغتني النوم. واستيقظت ليلاً. أتذكر أن القمر كان ضخماً مُحاطاً بقوس أحمر عند حدوث الزلزال. كان الألم يمضغني من آخر شعرة في رأسي حتى أخمص قدمي، مع برد شديد يلازمني من ألف شيطان. كنت في شاطئ مهجور لا شيء فيه سوى بعض الأشجار الشائكة والنخيل والموز. ولأنني لا أعرف «لا بارتولا»،

فقد حشرتُ نفسي في دائرة من الصخور السفلى وقطعتُ بعض أوراق الموز لأحتمي بها. لم أكن خائفاً. لم أتذكر حتى حكاية البحارة الإنكليز المدفونين في الجزيرة الذين يقال إنهم يظهرون ليلاً للعمل عل إنجاز قارب أشباح من أجل أن يعود بهم إلى بلادهم. لكن صدقوني أنه حينما أيقظتني بضع خطوات، تجمد الدم في عروقي وتذكرت هذه الأشباح. لم أشأ أن أُخرج رأسي، لكن الفضول تمكن مني. كانت أسناني تصطك من الرعب. لم أكد ألمح الرجل الذي يسير على طول الساحل، حتى صرخ بي: «مَن يعيش؟». وبدلاً من الاختباء مرة ثانية، قفزت من الخوف، وانتصبت. لم أستطع أن أفوه بأية كلمة سوى أنني غريق. حين أحسست به إلى جانبي، ينظر إليّ من رأسي حتى قدمي بعجرفة كبيرة، أمرني صارخاً بصوت عال:

- عرّف نفسك.

- فيلمون ريفيرا. بحار. أسكن بالقرب من «لاس لوثيس» - قلتُ مُتلعثماً.

نظر إليّ ذلك الرجل بهيئته المتغطرسة وجلس على صخرة. ظل صامتاً لفترة طويلة لدرجة ظننتُ معها أنه فَقَد كل اهتمامه بي. لاحظت أنه كان يرتدي ملابس غريبة، ومضحكة إذا كنتم تريدون مني أن أكون صريحاً. كان سرواله الأزرق الفضفاض يصل إلى ركبته، ويرتدي جوارب بيضاء مثل الجوارب النسائية، وزناراً عريضاً من القماش يدس به مسدسه الكبير، وعباءة حمراء، وقبعة تشبه سفينة مقلوبة رأساً على عقب. ملامح وجهه غريبة: فك قوي، وأنف كبير، وعينان زرقاوان محمومتان. لولا الريح التي كانت حين تهب، تعري ذراعه، وساقه أو نصف جسده من الملابس، تماماً مثلما يحدث للظل على الماء، لأدركتُ أنه شبح، لكنه كان حقاً من لحم ودم.

بعد فترة صمت لم يفه فيها أحدنا بكلمة، فكرتُ أنه بما أن الإرادة الإلهية كانت قد وضعتني في هذا الموقف، فسيكون من الأفضل أن أتحقق من بعض الأشياء التي يعرفها الموتى فقط، لذلك تحدثت معه.

- أعطيتك اسمي، لكنك لم تعرفني عن اسمك - قلت لأرى إن كان بإمكاني الحصول على كلمة منه.

– بيثكونته هوراثيو نيلسون، بارون النيل وبورنهام –ثروب، أميرال البحرية الملكية البريطانية– أجابني.

– شخص مثلك يحمل هذا الاسم والألقاب، ما الذي يفعله هنا موجوعاً بعيداً عن وطنه؟ – قلت.

– بعيد جداً بقدر ما تسمح لي به هذه الروح. لن تعرف شيئاً عن مآثري، أيها الجاهل المسكين –قال لي بنبرة متغطرسة– من أجل واحد من الألقاب، جئت لأتوقف هنا، وهو أعظم انتصار. لابد أن تعلم أن الظلم يُرتكب حتى في الموت. كنتُ مضطراً لأن أختبئ هنا، وأنا ميت، من ذلك القزم معصوب الرأس. تخيل... إنه يطاردني شخصياً قرناً بعد آخر – قال لي الشبح، غاضباً.

– لكن مَن يلاحقك... ولماذا؟ – سألته دون أن أفهم شيئاً عن الموضوع.

– يطاردني لأنني حطمته، لأنني بددتُ جيشه، لأنني جعلته يعض التراب ويموت في المنفى، على إحدى الجزر التي تشبه هذه – قال لي، دون أن يشفي غليلي عما استوضحته منه.

– على الأقل يطاردك من أجل شيء ذي أهمية... – حاولتُ أن أخبره.

وسط الغضب والرياح التي كانت تعصف بشدة، كاد الشبح المسكين أن يتلاشى. انتُزعت منه أعضاء جسمه الكبيرة، لأنه بدأ يتحرك ويتكلم وهو يسير من مكان إلى آخر.

– ولكن كيف يمكن أن تكون هناك عدالة إن تمكن هذا الرجل العدم من حصري هنا –اشتكى– فقد أجبرني على المجيء والعيش في هذه الجزيرة طوال الدهر، في المكان نفسه الذي حولت فيه الحمى الصفراء أوائل انتصاراتي إلى هزيمة. حتى انتهى بي الأمر لأنقلب من شخص مشهور إلى مُدان! خصص له الفرنسيون متاحف ومقامات، بينما علقوني في إنكلترا على أحد الأعمدة، ليتغوط عليّ الحمام – اشتكى مكوراً نفسه داخل ردائه مقترباً مني جداً لدرجة شعرت معها بأنفاسه المتجمدة.

فجأة شرع يحدق في وجهي كأنه يكتشف للمرة الأولى أنه كان يتحدث معي. قال إنه كان يبدد وقته في التحدث إلى حطام سفينة، وإن بحارته لم يكونوا ليعملوا، إن لم يشرف عليهم شخصياً.

– وداعاً –قالها وتلاشى– قال فليمون – وتحول إلى دخان قبل أن أتمكن من سؤاله عمّا يثير اهتمامي حقاً. أعتقد أنني فشلتُ في الإصغاء إلى الرجل. يبدو أنه كان معتاداً على أن يستمع له الآخرون.

– يا لخيالك، فيلمون –هتف ماكلوفيو– في الرحلة القادمة سأخبرك بما قاله لي شبح بيرون ...

– ماكلوفيو، لابد أن تعرف –تدخلت ميليساندرا– أن اللورد نيلسون قُتل في النهر في معركة «لا بارتولا» التي وقعت عام 1780، وسطرها التاريخ في كتبه.

– في التاريخ يحدث كل شيء. لكن ما لا أؤمن به هو أن يكون نيلسون هنا.

– أنتم لا تؤمنون بأي شيء... نحن لا نعاني من هذه العقدة – ابتسمت ميليساندرا.

جاء المجذفون بقصص جديدة، لكن الوقت كان متأخراً مما دعا بيدرو إلى أن يطلب منهم أن يذهبوا إلى النوم، لأنهم سيبحرون في اليوم التالي في ساعة مبكرة جداً. تشارك رافائيل مع ماكلوفيو في النوم على أرضية السقيفة، محمياً بأراجيح شبكية حيث كانت تنام الهولنديتان وهيرمان، فيما استكانت ميليساندرا في المساحة المميزة أسفل قمرة القيادة، أما المجذفون فقد شغلوا المصاطب. قام بيدرو بإطفاء الإنارة، وفي غضون لحظات قليلة، لم يكن يُسمع سوى صوت ارتطام الأمواج على جدران القارب وتغريد الطيور الليلية.



الفصل العاشر

نام رافائيل نوماً هادئاً، بعد أن لف جسده ببدلة شبكية ضد البعوض. حين فتح عينيه وبحث عن ظل ميليساندرا، لم يستطع أن يميز في غبش الفجر سوى بطانيتها المطوية تماماً. كان القارب ينزلق على نحو صامت تحت دفع المجذفين فيما كان الركاب الآخرون يغطون في نوم عميق، كأنهم داخل شرنقة حشرة عملاقة. انحنى ورأى الفتاة واقفة في مقدم القارب تلف نفسها بشال غامق. أزاح عن جسده الغطاء الأبيض، طواه بعناية، وانتصب واقفاً من جديد بعد أن وضعه في حقيبته. ما رآه، جعله يشك في سلامته العقلية فتشبث بقوة بأحد أعمدة السقيفة: كانت مياه النهر حمراء. لم يكن لوناً أحمر أو أرجوانياً، بل دم حقيقي صارخ وكثيف لنسيج عضوي. بدأ الصبح يشرق فوق هذا المشهد المروع، حيث غمر أبصارهم الفجر الوردي، بحريق كذّبه النسيم العليل. كانت رؤوس الأشجار المنحنية فوق الماء، التي أصبحت نادرة الآن، تلتمع مستديرة وكثيفة، تناقض جذوعها الشاحبة والمائلة إلى اللون الأبيض جرّاء بقع الضباب التي تلفها.

وقف رافائيل ساكناً خائفاً من أن يتهشم السراب تحت أدنى حركة منه. كان يأمل أن تجعله أشعة الشمس يتلاشى، ولكن كلما زاد سطوعها، ازداد النهر احمراراً، لذلك قرر في نهاية الأمر أن يصعد إلى السطح ويسأل بيدرو عن سبب هذه الظاهرة.

– إنها نباتات ملونة –قال البحّار– لقد مررنا بمفرق كولورادو منذ أكثر من ساعة. يحدث أن يتحول لون النهر إلى لون دموي، مرة واحدة في كل بضع سنوات، بسبب انتشار نوع من الأزهار تشبه الخس، تنمو على جوانبه.

هذا هو التفسير العلمي... والآن، أنا ضد كل مَن يقول إن هذا هو دم كل الموتى الذين انتهوا هنا، لأنني أميل أكثر إلى فكرة الخس.

استيقظ الركاب واحداً تلو الآخر وسرعان ما انضموا إلى رافائيل على السطح، مأخوذين بالصمت الديني لرؤية مقدسة. ماكلوفيو فقط علق باستخفاف:

– ولا حتى موسى بكل مجده شهد هذا يا جماعة. الحقيقة أن البحر الأحمر الشهير أكثر سواداً من موريس.

– متى ستتعلم كيف تصمت؟ – تنهد وهو يشير بيده المعدنية.

أبحروا طوال الصباح عبر النهر الأحمر، منغمسين في نوع من النشوة المنومة. لم يتوقف بيدرو قط عن لمس قاربه برفق ليتأكد من مقاومته لتأثيرات اللون الكثيف. في ساعة الإفطار، وُزع شاي الزهرة الزرقاء على المسافرين والطاقم.

بدأ كل واحد منهم يرى في الحساء الملون، صوراً منسية منذ فترة طويلة تنزلق أو تقفز في الماء، ولم يعرفوا قط ما إذا كان ذلك بسبب الشاي أو بسبب التأثيرات السحرية للنهر. كانت ميليساندرا ورافائيل الجالسان جنباً إلى جنب يشهدان، كما لو كانا سمكتين ملونتين، أقدم ذكرياتهما وبالتحديد ذلك الجزء من الرحلة حين سافرا معاً، على مسافة أميال قليلة، في رحلة نحو علاقة حميمة يتعين على الرجال والنساء الآخرين المرور بها لأيامٍ وليالٍ.

تمكن رافائيل من تأمل الأدوار المضطربة لأجداد ميليساندرا، التي رأت بدورها أيضاً على سطح المياه، صوراً مبعثرة مرعبة لحرب الشوارع. كان رافائيل يختبئ خلف صناديق قمامة في شارع رمادي غامق، تحت وابل من الرصاص يخترق جوانبه، بينما يركض طفل غير بعيد عنه ويتكوم ميتاً برشقات الرشاشات.

– لم أنقذه –غمغم رافائيل– كنتُ منشغلاً بالتصوير. بقيتُ متيبساً كما لو أن الكاميرا فقط كانت هناك ولستُ أنا. تراودني صورة ذلك الطفل باستمرار. كان اسمه لوجو. منحتني تلك الثواني من التصوير شهرة وثروة. سمعة كبيرة في النقابة.

– لماذا كنتَ هناك؟

– قضيت أكثر من شهر مع إحدى العصابات، تدعى «التوابيت». كان الأمر أشبه بتغطية جيش في حالة حرب. بيد أن هذه الحرب كانت في وسط الأحياء الفقيرة. حرب في الأزقة من أجل الرموز، وبطقوس رائعة.

– لكن كان من الممكن أن تموت من أجل إنقاذ ذلك الطفل.

– هذا ما قالوه لي. ما كان ليؤنبني أحد لو لم أتدخل. لكنني لم أستطع إنقاذه فحسب، بل قمت بتصوير وفاته. كانت حدثاً ممتازاً لحياتي المهنية. لقد حولني إلى منتج مرغوب به، وجعل مني شخصاً مشهوراً بقساوته. وهذا ما هو مطلوب في هذه المهنة.

– وتقرير واسلالا، هل هو الذي تنوي تخليص نفسك به؟

– ربما.

خيم الصمت داخل القارب لأميال. وحسب ما أدلى به بيدرو، فإن الذين نجحوا في الإبحار عبر النهر الأحمر، تغيرت في دواخلهم الكثير من المفاهيم. كانت التجربة بالنسبة له، شبيهة بالموت، حيث يرى المرء حياته في الثواني الأخيرة، تمر أمام عينيه على سطح المياه دون عجلة، دون أن يلاحقه الموت، دون أوجاع جسدية، دون خوف أو غصة.

في وقت لاحق، بينما كان هيرمان وموريس يقومان بمحادثة فلسفية حول سهم الزمن، استقر رافائيل وميليساندرا مع بيدرو في مقدم القارب لمناقشة هبوطهم على رصيف إنغراثيا.

أصغى ماكلوفيو، الذي تظاهر بالنعاس في أرجوحة هيرمان، إلى محادثة الثلاثة بشغف، لأنه كان ينوي أن يولي اهتماماً خاصاً بمتابعة مسار ميليساندرا عن كثب حال رسوهم.

كان يعتقد أنهم إذا مكثوا عند إنغراثيا، فلن يكون من السهل مراقبتهم، لأنها السلطة البديلة الوحيدة، القوة الوحيدة التي لا تستطيع إسبادا إخضاعها أو السيطرة عليها. كانت عائلة إسبادا في حالة حرب مع كل مَن لا يدفع لهم الجزية أو لا يقدم لهم الولاء. كانوا ينصبون الحكومات ويطيحون بها على هواهم وهم المسؤولون عن تهريب المخدرات وألعاب القمار، التي كانت

أكثر وسائل الترفيه رواجاً في فاغواس، إضافة إلى حمايتهم في وضح النهار للعصابات التي تشتبك فيما بينها في الليل تحت أية ذريعة. كانوا يرتبطون بشراكات جيدة مع أكبر تجار الأسلحة. يعود خلافه الوحيد معهم إلى وقت طويل، حين وقف بوجه تجارتهم في تصدير الأيتام من بلدته «تيمبو»، كما كان يسميها، حيث يمتلك فيها منزلاً وسمعة طيبة وفوق كل شيء، مزارع الفيلينا. على مدى مسيرته المهنية الطويلة، لم يتوان عن إبرام الشراكات مع الكثير من رجال العصابات من جميع الأنواع، لكنه لم يجد شريكاً مثل هذه العائلة قط. كانت لا تكل من إشعال نار الحرب بضراوة، لأنها مصدر الرزق، الذي يسمح لهم بديمومة سلطتهم. كانت ماكينتها العسكرية مسؤولة عن التحريض على الاشتباكات الدائمة وحصرها في مجاميع صغيرة تثير نزاعاتها وتستفزها خلسة. يقال إنها لا تنام أبداً، وبالفعل، فإن ماكلوفيو، الذي كان يمضي أسابيع بأكملها معهم في المناسبات، لم يرهم ينامون مطلقاً، على الرغم من أنه كان يبقى مستيقظاً في محاولة للتجسس عليهم أثناء فترات الاستراحة. وفي نهاية الأمر، استنتج على نحو مؤكد أنهم مثل نابليون بونابرت، تعلموا النوم وقوفاً بأعين مفتوحة. كان داميان، أكبر إخوانهم، أحد أنواع «الكيشوت» المُزدوج، حيث كان يقوم عملياً بكل ما في وسعه للتأكد من أنهم لم يتوقفوا قط عن إقناع أنفسهم بأن ما يفعلون هي الطريقة الوحيدة من أجل حياة رغيدة، على الرغم من أنه كان يتصنع فداءه للفقراء والمظلومين. أما أخوه الأصغر أنطونيو، الرجل العملي الماكر، فلم يكن لديه وقت للرومانسية وكان أكثر المنتقدين شراسة وفعالية لأسطورة واسلالا، حيث كان يردد دائماً أن لها نفس التأثير المخدر للدين على العقول. كان ماكلوفيو على يقين من أنه سيعمل ما بوسعه من أجل تشتيت جهود ميليساندرا، مهما طالت إقامتها، بعيداً عن «المزرعة».

الفصل الحادي عشر

بحلول مساء اليوم التالي، سيصلون إلى لاس لوثيس ومن هناك سيكونون في ثينيريا بعد يومين أو ثلاثة من الإبحار. من خلال حديثه مع بيدرو وموريس، تكونت لدى رافائيل فكرة مبهمة عما سيجده: مدينة من الماضي تسكنها كائنات من الحاضر. أوضح العالِم أن سكان ثينيريا يعرفون في أي عهد هم، لكنهم لم يتمكنوا من جعل حياتهم تستوعب بعضها بعضاً بمرور الزمن. رغبوا بالحداثة لكنهم لم يستطيعوا الحصول عليها، لأنهم لا يمتلكون الوسائل اللازمة. الأشخاص الوحيدون الذين كانوا مسؤولين عن تشريعاتهم، لم يفعلوا شيئاً سوى إرجاعهم إلى الماضي أو في أفضل الحالات، إبقائهم على الحافة، في حلقة مُفرغة للوقت، يدورون فيها حول أنفسهم. كانت الأطراف المتصارعة تتناوب على حروب طويلة الأمد، دون الخضوع إلى أسباب معينة. وفكروا في عدم الانحياز إلى طرف ما مطلقاً. أما الجماعات التي يمكن اعتبارها أكثر عقلانية، من الذين يتطلعون إلى نظام معين، فقد كانوا مُختَرَقين من قبل عائلة إسبادا لدرجة لم يعد يُعرف مَن ينتمي إلى مَن.

تطلع رافائيل إلى ميليساندرا النائمة في ليلة مقمرة. تأملها في ليلة حالكة الظلام، وهي تغط في نومها في وضع أعزل، هادئة، نائية عن الأحلام التي تخيلها خضراء وخصبة. اتكأ على أحد أعمدة السقيفة. تخيل جسد ميليساندرا المصقول، مشدوداً ونظيفاً. تلفت إلى ناحية أخرى، حيث كانت المرأتان الهولنديتان تنامان ملتصقتين معاً داخل الأرجوحةالشبكية، كأنهما تمنحان بعضهما بعضاً دفئاً أمومياً.

***

كانت الشمس تلتمع على النهر حين استيقظوا من نومهم. عبروا ضفاف إحدى الجزر الصغيرة التي كانت تنمو بداخلها شجيرات النخيل عالية، ثم شقوا طريقهم عبر الغطاء النباتي الكثيف. استقام البحارة الذين كانوا واقفين فوق مقاعدهم، وقاموا في نسق واحد برفع أذرعهم وقبضاتهم المشدودة هاتفين «الموت للإنكليز» مراراً وتكراراً.

- إنها عادة قديمة -قال هيرمان لكريستا على سبيل التوضيح- في هذا المنعطف من النهر، قام الإنكليز عام 1800 بإزهاق العديد من أرواح سكان فاغوانا. يبدو أنها أصبحت عادة منذ ذلك الحين في أن يَقذفوا باللعنات كلما مروا من هنا. إنه جزء من التراث المناهض للإمبريالية في عرف هؤلاء الناس.

- لا نرغب بالمستعمرين -صاح بيدرو من موضعه- لقد كانوا أسوأ من وباء في هذا البلد. دمرونا في البدء ثم نسوا أمرنا... «الموت للإنكليز» - أضاف رافعاً أعلى ما لديه من صوت.

بعد الإفطار، تسنى لبيدرو وللمجذفين أن يستحموا طويلاً، لكي يشعروا بالانتشاء من أجل إكمال إبحارهم لعبور منعطف «الدوامة الكبرى» قبل أن يصعدوا إلى لاس لوثيس.

رأت ميليساندرا الأجسام النحاسية القوية تنغمس وتتحرك برشاقة في المياه الصافية، ولم تستطع كبح جماح رغبتها في القفز معهم أيضاً. فسح لها الرجال مكاناً محمياً للسباحة، ومرحوا بعضهم مع بعض داخل المياه على نحو عفوي. شعر هيرمان بنفسه واحداً من المتطفلين على اللوحة التي كانت تستحم فيها سوزانا أمام النظرة المُرتقبة والفضولية للرجال المسنين. لاحظ الركابَ الآخرين وهم يتأملون المشهد واستطاع أن يميز لدى ماكلوفيو، نوعاً من الحياء المُفتعل. تمكنت المتعة البريئة للبحارة والفتاة، من أن توقظ في هؤلاء الغرباء ذكرى عفوية مفقودة. فكر هيرمان في المفارقة التي جعلت الألفة بين ميليساندرا والرجال، تتسبب في إثارة ضغينة الشخص الذي كان يراقبها متصيداً في الماء العكر.

قبل انتصاف النهار بقليل، تغيرت الأجراء داخل القارب وأصبحت مشحونة. لاحظ رافائيل أن ميليساندرا كانت تراقب ارتفاع مستوى التيار بقلق، وسط تقدم القارب العسير.

– نحن نقترب من الدوامة –شرحت لرافائيل– أنه أخطر امتداد للنهر وأكثره سحراً. تُروى قصص رائعة عن مركز الدوامة، لكن محاولة رؤيتها تسببت في تحطم أكثر من سفينة. حين تستقر النظرة عليها، تتحول إلى شيء مادي: أسطورة، حبل سري غير قابل للقطع، يتشبث به الماء بقبضة حديدية حتى تُغرق الفريسة في الهاوية. لهذا السبب يتخذ القباطنة احتياطاتهم، فيعصبون عيون الركاب. يكفي أن يستخف شخص ما على متن السفينة بالأوامر، حتى تنجذب السفينة بأكملها إلى الدوامة على نحو لا يغتفر. كلما أمرّ من هنا، اقترح أن أراها لكن الخوف أقوى مني.

– ربما يمكنني تصويرها –قال– ستحميني الكاميرا من الاتصال المباشر بها – ابتسم.

– لا تفكر حتى في اقتراح كهذا. سوف يقوم بيدرو بطردك من القارب. يقول إن الناس اليوم لديهم هوس في الاعتقاد أن كل شيء قابل للتفسير وأن هذه هي معتقداتنا –غمغمت– الحقيقة أنني منذ كنت طفلة سمعت قصصاً لا حصر لها عن مثل هذه الحوادث. إنها ليست مزحة. يجب اتباع تعليماتهم.

– يراودني شعور لا تفسير له، في أنك تخبريني عن هذا كله لكي تقنعي نفسك. كفى، ميليساندرا، لا يمكنك أن تؤمني بهذه الخرافات على نحو جدي.

– لا أعرف لماذا لا تصدق وجود ظواهر عصية على التفسير، ومن الأفضل عدم تحديها – قالت بشغف وهي تتذكر كيف وجدت نفسها على القارب مع فيرمين، في آخر رحلة له، وكيف أخذها الذهول وهي تتبع الدوائر المتمركزة من تحت العصابة. كان بصرها يقترب أكثر فأكثر من دائرة الوسط، مأخوذة بجاذبية رغبة لا يمكن كبتها.

بعد الظهيرة بقليل، لمحوا الصخور الضخمة والغريبة التي بدت أنها لا تنتمي إلى النهر فحسب، بل لا علاقة لها بكوكب الأرض: سوداء، ناعمة ومصقولة، كما لو كانت مُنبثقة من نجم تائه غامض. انفتحت «الدوامة الكبرى» بزاوية شديدة الانحدار تشكلت بالقرب من الحافة اليمنى. لكي

تمر القوارب بأمان، كان عليها أن تبقى قريبة جداً من الضفة المقابلة، وتنزلق على طول شبكة من الحبال التي تتدلى من أشجار الشاطئ.

وزع بيدرو العصابات السوداء وأمر جميع الركاب بالجلوس على نحو منخفض تحت السقيفة، بأعين معصوبة جيداً. ارتدى هو وبحارته خوذاً لا يرون من خلالها سوى الأقرب إليهم، وشرعوا في الإبحار عبر التقاطع المتوتر للدوامة بعد أن أخذوا الاحتياطات اللازمة.

كانت صوت النهر في هذا الامتداد هادئاً ومُقلقاً: هسهسة ثعبان ضخم برأسين يروي الأسرار من طرف إلى آخر أو يلتهم نفسه باستنشاق الفقاعات وخرير المياه.

تنازلت ميليساندرا عن مكانها للسيدتين الهولنديتين واتخذت موضعاً عند مقدم القارب. كان الركاب يجلسون في الداخل، دون أن تتسنى لهم رؤية شيء سوى السماء فوق النهر. لكنها مع ذلك، أدركت من المكان الذي كانت تقف فيه حين أرخت العصابة قليلاً ونظرت من خلال أحد ثقوب المجاذيف، أن بإمكانها رؤية سطح الماء. نظرياً أدركت أنه من الميسور لها أن تلقي نظرة آنية وعاجلة على الدوامة، إن لم يقاطع عينيها جسم المجذف في تلك اللحظة.

خيّم صمت كثيف ومُطبق خلال فترة الظهيرة، كان يكسره من وقت لآخر، نعيب بعض طيور مالك الحزين أو غرق أحد طيور النورس في الإعصار المائي الذي يُقال إنه يحتوي على أسماك بعيون بشرية. كان جريان النهر وسرعة التيار يزدادان كلما اقتربوا. في المقابل، بدا قارب بيدرو بطيئاً لا يُجاري الحركة المتزامنة التي يسعى إليها المجذفون للإمساك بالحبال الممتدة على طول أشجار الضفة لضمان بقاء القارب بعيداً عن الدوامة.

قامت ميليساندرا بضبط المسار الذي ستتبعه عيناها لترى من خلال الفتحة الموجودة في العصابة عبر ثغرة المجذاف. أصبحت المهمة أسهل حين تزحزح المجذفون نحو الحبال. شعرت بالسكينة. غمرها إصرار بارد وعنيد. كانت ترنو إلى المياه التي تتحول إلى رغوة، وتفكر في جدها الذي يأخذ قسطاً من القيلولة على كرسيه الهزاز ممسكاً بقلنسوته بين يديه على

حجره، ورأسه مائل إلى أحد الجوانب. المياه تلتمع منعكسة على الصخور السوداء المصقولة مثل المرآة. فكرت بأنه ربما كان هذا هو المفتاح: عدم رؤية الدوامة مباشرة، بل رؤية انعكاسها -درع بيرسيوس، صورة ميدوسا- . ربما بهذه الطريقة يمكن تجنب التأثير المميت والانجذاب الانتحاري. وتمكنت من رؤية الدوائر المتمركزة والمياه تتحرك بكثافة على نحو زئبقي.

- ليطبق الجميع عيونهم - أصر بيدرو من قمرته.

أبقتهما ميليساندرا مفتوحتين على اتساعهما ورفعت العصابة عنهما إلى الأعلى بقليل. تنفست من فمها، في محاولة لفك الحلقة الحديدية التي تعلقت بعظام صدرها.

ورأت أخيراً المياه تغرق في دوامة مذهلة. كانت الألوان جميعها تذوب في أقواس قزح متتالية تتلاشى خلال لحظات عابرة. كانت النباتات المتسلقة الطويلة والطيور ذات الملامح الجذلة، تتعاقب أمام الفتحة التي أطلت منها عيناها. رأت وجه بحار شره وجسداً عارياً لامرأة شديدة البياض أثار جمالها حمية البكاء لديها. رأت خزانات، وسفناً، وكراسي، وجسور قيادة السفن الأشباح مع قباطنتها المتشبثين بالدفة في وقفة مُشرّفة هلكوا من أجلها، دون تبجح ولا شكوى. رأت أوركسترا كاملة: كماناتها، وكمنجاتها، ومزاميرها البراقة. رأت أمهات يظللن على وجوه أطفالهن الطافين على ظهورهم. رأت خرائط لمناطق مفقودة، ومنظاراً، وتماثيل جميلة على مقدم السفن، وأشرعة غاية في البياض. رأت آلاف الساعات الرملية تقوم وتنهار في دوائر لا نهاية لها. واستيقظت. تمنت لو ترى المزيد. تمنت أن ترى السمكة ذات العيون البشرية وحوريات البحر. تمنت أن تسمعهن يغنين. تمنت أن ترى قزحية الماء الهادئة في الوسط، جميلة مثل بحيرة في نهاية العالم. ولم يعد يهمها شيء بعد الآن سوى ذلك. كان كل شيء ينضح جمالاً عميقاً للغاية... مثل التكور في البطن، في فم الرحم ورؤية جوهر الحياة والموت، العوالق، الطحالب ومعمارية الكون. آه لو كان بإمكانها أن تصعد فوق مقعد المجذفين من أجل رؤية أفضل.

- ميليساندرا!!!!!!!!!

كان صراخ بيدرو يُوقف الزمن داخل المركب. بعد أيام، ستتذكر كريستا تلك اللحظات اللزجة التي بدا فيها أن أية حركة داخل القارب تتطلب جهداً شاقاً، كما لو أن الهواء كان قد تحول إلى نشاء، وبالكاد سمح لها بالحركة. تسللت الفوضى عبر الباب الذي لم يُغلق بشكل جيد، مما تسبب في فقدان القبطان والمجذفين تركيزهم، ثم تبع الصمت، ارتباك وصراخ وفوضى.

– لا تخلعوا العصبة، لا تفتحوا أعينكم –صاح بيدرو بصوت مزيج من الغضب واليأس– وأنتم، لا تتركوا الحبال – أمر مُخاطباً البحارة.

أزال رافائيل الذي كان يعد الوقت ليبدأ تصويره الخفي، العصبة عن عينيه دون تردد، وتسنى له إلقاء نظرة على ميليساندرا في اللحظة التي انتصبت فيها واقفة. بدأ القارب يميل بقوة نحو أحد الجوانب.

– لا تتركوا الحبال – صرخ بيدرو. لا تنظروا إلى الدوامة. ليلتفت الجميع إلى الجانب الآخر.

قبل أن يترك الطاقم مواضعه لإنقاذها، وصل رافائيل إلى جانب ميليساندرا وأحاطها بذراعيه بكل ما أوتي من قوة. تدحرج الاثنان على الأرض في الوقت الذي كان فيه القارب يعتدل مرة ثانية. حاولت ميليساندرا أن تحرر نفسها من ذراعي رافائيل لكنه لم يسمح لها بذلك وتمسك بها دون أن يعطيها فرصة للإفلات من قبضته على الأرضية الخشبية. كان الأمر أشبه بتدجين قطة برية بالقوة، لكن الأمر لم يدم طويلاً. هدأت ميليساندرا على حين غرة، واستكانت بلا حراك، كما لو كانت ميتة.

اقترب ماكلوفيو وهيرمان وكريستا منهما راكضين وسط اهتزازات القارب. شرع ماكلوفيو يلعن، دون توقف، فضول النساء اللواتي لم يتعظن على الرغم من فقدان الجنة الدنوية. كان رافائيل لا يزال على الأرض دون أن يطلق فريسته. أشار إلى الثلاثة ليعودوا إلى أماكنهم، إذ لم يعد بحاجة إلى مساعدتهم.

– أنا غير قادرة على كبح نفسي –همست ميليساندرا وهي لا تزال ممسكة بذراعي رافائيل– أنا آسفة.

– يبدو أن هذا ما يحدث هنا –غمغم رافائيل لاهثاً بشدة، دون أن

يتركها- لا أحد يستطيع أن يُقاوم إغراء التحديق فيها، والجميع على متن القارب فقدوا سيطرتهم وانتهوا برؤوسهم في الدوامة... - ثم اقترب من أذنيها وسألها عمّا إذا استطاعت رؤية شيء. أومأت برأسها موافقة.

- كيف كانت؟

- مثل بداية ونهاية كل شيء - غمغمت.

الفصل الثاني عشر

بعد الحادث، ومن أجل مصلحة بيدرو والمجذفين، أنكرت ميليساندرا أنها رأت أي شيء ووصفت الدوار الناجم عن مجرد النظر في حافة الهاوية، بأبشع العبارات.

– إن لم يكن لأجل رؤيتي للانعكاس على الحجارة السوداء فقط، فمن المؤكد أنني في هذا الوقت لن أحكي القصة – قالت.

– ولا نحن نريد أن نستمع إليك – تدخل ماكلوفيو.

اعتقدت كريستا أن الرجال يمكن أن يوبخوا الفتاة ما شاءوا ذلك، لكنهم في الأعماق معجبون بها بالتأكيد. ستظهر في أحلامهم في تلك الليلة، ومن دون أدنى شك، كقوة أرضية، ميدوسا مع ثعابين حمراء تنبت من رأسها.

مأخوذة بالقدرة وبمغناطيسية الرؤى، لم تستطع ميليساندرا أن تتخيل ما كان سيحدث لها لو لم يمنعها رافائيل من التحديق في مركز الدوامة. بعد أن تغلبت على السحر الذي جذبها، شعرت بارتياح كبير لكونها على قيد الحياة، وفي الوقت ذاته بفراغ وحزن.

استلقت تحت السقيفة لوقت طويل وشعرت بحنين عميق لجدها ولخواكين أيضاً. شعرت بأنها ودعتهما منذ زمن طويل وليس منذ ثلاثة أيام. أدهشتها السرعة التي تلاشت معها الذكريات وامتصاص الحاضر لها، مثل الدوامة، ولأصوات وصور الماضي القريب.

اقترب منها رافائيل متأثراً. لم يتعاف بعد من مشهد ميليساندرا حين كانت على وشك القفز من القارب، ولم يستسلم حتى، لإغراء النظر إلى الشيء الممنوع حين هب واقفاً لكبحها. استطاع، لأول مرة ومنذ زمن طويل، أن يذلل وعلى نحو تام، غريزة التحقيق في المجهول.

– هل تعافيتِ؟ – سألها.

– لا أعرف إن كانت الجنة أم الجحيم -قالت- لكنني واثقة من أنني رأيت باب أحدهما. لا يمكن للإنسان أن يتعافى من هذه الرؤيا... شكراً -أضافت وهي تنظر إليه بلطف- لقد أنقذت حياتي.

– آه! ميليساندرا، ميليساندرا! – هتف ساحباً رأسها إلى صدره.

تراجعت بجهد. عادت إلى الاستلقاء تحت السقيفة ثانية. أخذ يداعب شعرها متقصياً بأصابعه جمجمتها وشحمة أذنها حتى استغرقت في النوم.

كان الركاب غارقين في صمت عميق داخل المركب. بعد ثلاثة أيام من الإبحار، بدأ يظهر على وجوههم وفي حركاتهم، حالة من نفاد الصبر لأجل الوصول إلى الميناء، والإرهاق جرّاء الرحلة.

***

حين تراقصت أمامهم الصورة الظلية لميناء لاس لوثيس في الأفق، حدق رافائيل مشوشاً في البريق المنبعث من المشهد الجانبي الكبير للمدينة. كانت تشبه مرآة تشظت بداخلها صورة الشمس الحمراء الدائرية إلى ألف قطعة مُتخيلة من أشكال وألوان جميلة. تساءل مع نفسه عما إذا كانت مصنوعة من الألمنيوم لكنه استبعد الفكرة باعتبارها مجنونة ومكلفة. استدار ليعبر عن حيرته لموريس. ابتسم العالِم، الذي برق وجهه بسبب الوهج الساطع من ذراعه، وأومأ إليه في إشارة منه لحل وشيك للغز.

رسا قارب بيدرو في المرفأ واجتذب، كما لو كان مزمار «هاملين»، حشوداً بشرية برز فيها عدد كبير من الأطفال والشباب ذوي الثياب الرثة من الذين تقاتلوا فيما بينهم من أجل أن ينالوا شرف الأولوية في الاقتراب من الوافدين الجدد.

ساهم مزاج موريس في تدفق عواطفه بسهولة بالغة. الحركات الترحيبية التقليدية لسكان الميناء، والرجل العجوز الذي غالباً ما كان يعزف البوق تحية لهم، والنساء الكبيرات بأذرعهن العريضة ووجوههن المستديرة اللائي أحضرن لهم الخبز الطازج في سلال معطرة، وموظف الجمارك، والشاب الرسمي الذي منحهم نماذج التصريح الضريبي التي لم تكن تنفعه بشيء

سوى للتسلية -لأنه كان يحب قراءة العناوين البعيدة فيتخيل معها الشوارع التي لن يراها أبداً- هذا كله أثار فيه رغبة بالبكاء. وجد نفسه يربت بمودة على الأطفال وعلى جميع الذين كانوا يقتربون منه لتقديم خدماتهم لكنه تراجع. لم يكن يروق له أن يشعر بالشفقة ويمقت أبوية أولئك الذين عاملوا كل هؤلاء الناس، بغض النظر عن أعمارهم، على أنهم مخلوقات بريئة وعاجزة.

رآهم يتجمعون ويقذفون أنفسهم ويتنازعون فيما بينهم على نقل الأحمال إلى مكان الإقامة. دفع عنه بقوة اثنين من الصبية الذين كانوا يضايقونه.

مشى رافائيل خلف ميليساندرا مندهشاً. وتذكر موريس رد فعله حين هبط هنا للمرة الأولى. كان النهر شيئاً وداخل البلاد شيئاً مختلفاً تماماً. الإبحار نحو أعالي النهر ثم التعرف على الجد والحفيدة، يولّد لدى المرء انطباعاً بأنه كان قد دخل عن طريق الخطأ إلى «بلاد العجائب» مع «أليس» بشعرها الأحمر و«سومبريريرو المجنون» الموقر والعاقل. كانت لاس لوثيس بالفعل أول نافذة لرؤية فاغواس الحقيقية.

تقدم المسافرون نحو الشارع تتبعهم جلبة أطفال بثياب رثة وحمّالون يحملون أمتعتهم. انفصل ماكلوفيو عن المجموعة وهو يتفاخر بأنه مدعو إلى ضيافة صديقه العمدة للإقامة في منزله.

كان رصيف الطريق الرئيسي متعثراً بسبب الأمطار والصيانة القليلة، مما تحول إلى سلسلة متوالية من الحفر المليئة بالأحجار الصغيرة. كانت بعض نماذج SAM الكهربائية القديمة تسير ببطء، لكن العربات التي تجرها الخيول هي الوسيلة المفضلة للنقل. استرعى انتباه رافائيل أيضاً وجود أشخاص يركبون الدراجات وآخرين يدفعون عربات سوبر ماركت غير نظامية، قال موريس إنها جزء من المسروقات التي وصلت إلى فاغواس في حاويات قمامة.

كانت المنازل التي تصطف على طول الطريق إلى مكان الإقامة، تحتوي على أحواض استحمام قديمة، تستخدم كمناهل للخيول، ومناور قائمة ومقعرة أو شاشات حاسوب قديمة بمنزلة نوافذ، وأبواب عريضة من زجاج

غير قابل للكسر، تستخدم سقوفاً لصالات المنازل الكبيرة. أما الأبواب الخارجية فكانت جميعها من الألمنيوم: أجنحة طائرات، وهياكل سيارات وحتى الأغطية الثقيلة لحجرات الغواصات.

– هذه هي أنوار لاس لوثيس – ابتسم موريس.

– استخدام تلك المواد بدلاً من الخشب، غاية في المنطق –قالت ميليساندرا– من المهم جداً أن تظل الأشجار تنتج الأوكسجين.

– ما الذي يجعل المنازل بهذا اللون الترابي؟ – سأل رافائيل.

– إنها من الطوب. مزيج مضاد للزلازل.

قال رافائيل مع نفسه، إنها مدينة الوحل والألمنيوم، هجين بين الموطن البشري وموطئ الخردة. بعد أن صعدوا الشارع من المرفأ، وصلوا إلى فندق «رائد الفضاء» وهو مبنى صغير ومثير للفضول، يتكون سقفه من ثلاثة أطباق قديمة ضخمة من هوائيات متكافئة الأطراف أشبه بالقباب. تقدم المالك، سيد بلات، لاستقبالهم، وسأل عن دون خوسيه. قدِمَ السيد بلات إلى فاغواس منذ سنوات خلت حين كان شاباً طموحاً يبحث عن الفراشات، وهو من بقايا الأزمان التي كان فيها الأجانب يجرؤون على الاستقرار كمستوطنين في المدن النهرية.

– يا لفرحتي برؤياكم! – ظل يردد هذه العبارة وهو يقودهم إلى الداخل، ويخوض في الأشياء المتراكمة الآخذة بالازدياد، التي تحيط به.

انهمكت المرأتان الهولنديتان، وموريس، وهيرمان في محادثة حية معه بينما سار رافائيل إلى الداخل مع ميليساندرا، التي رغم اعتيادها على زيارة هذا الفندق منذ صغرها، لم تتوقف قط عن الانبهار بالأدوات الغريبة التي بدأ السيد بلات بجمعها منذ سنين من خلال شرائها من جامعي القمامة، أو من الصيادين الذين غرقوا منذ قديم الزمان في المحيط الأطلسي من أجل الحصول على سرطان البحر. أعجب رافائيل بمجموعة المناظير المصقولة، بما تحتويه من ملصقات خاصة لكل واحد منها تشير إلى تاريخ ومكان اكتشافه. نادته ميليساندرا لتعرض عليه قطعتها المفضلة: كرسي هزاز تم وضع أذرعه المتحركة بطريقة تجعله يتأرجح من جانب إلى آخر ويقلد حركة السفينة بدلاً من أن يهتز من الأمام إلى الخلف.

أطلّ رافائيل من النافذة ورأى الشوارع المتربة، والأطفال يلعبون، واثنتين من النساء تنزلان نحو القرية. كان كل شيء يبدو باللون نفسه: الملابس، الوجوه... وكذلك الغبار الذي يطفو داخل الفندق، ويغطي الأجواء بضوء بني داكن كأنه قادم من زمن آخر.

– الجو حار – قال وهو يجفف العرق عن جبهته بساعده.

قادهم السيد بلات إلى الطابق الأول، حيث كانت أعمال البناء الإضافي والترميم أكثر وضوحاً.

اقاموا في ثلاث غرف: ميليساندرا مع كريستا وفيرا، رافائيل مع هيرمان. أما موريس فكان نصيبه الزنزانة، وهي الاسم الذي أطلقوه على غرفته الصغيرة التي بالكاد تتسع لسرير واحد.

بعد حوالي أربعة أيام من البقاء في الفضاء الضيق للقارب، أصبحت لاس لوثيس بالنسبة لهيرمان المدينة التي أدنى منزلة من باريس بقليل. كان يدندن أثناء إعادة شحن بطاريات جهاز الاتصال. قال لرافائيل، لدينا الآن فرصة للذهاب إلى حانة «البهلوان» والاستماع مباشرة من سكان لاس لوثيس عن آخر أخبار فاغواس.

مرر هيرمان يده عبر شعره الأشقر الأشهب لرفع خصلة سقطت على جبهته. كان متحمساً ومن الممكن القول إنه مولع بذلك المكان، لا بسبب مزاياه فحسب، ولكن بسبب عيوبه أيضاً.

– هل أنت مستعد؟ –سأل ملتفتاً إلى رافائيل– سيروق لك ذهابنا إلى الحانة.

أطلقت تسمية «البهلوان» تيمناً بالببغاء لولو التي كانت تسكر بعد أن تشرب من أكواب رواد الحانة، ثم تبدأ بالتأرجح بشكل خطير على سلك تم ربطه بين طرفي عوارض السقف. كانت لولو تغني أثناء النهار مقاطع مكسيكية قديمة بصوت حلقي لطائر ساحر، فيما تلتزم الصمت في الليل بمجرد دخول الكحول في دمها، وتكرس نفسها ساعتئذٍ للسير على سلك الألمنيوم المصقول أو القيام بحركات بهلوانية أو التحليق فوق رؤوس الزبائن في بعض الأحيان مثل خفاش برتقالي ضخم.

عندما دخل رافائيل وهيرمان، تسمرت أنظار الزبائن على الوافدين الجديدين. كان سكان لاس لوثيس مثل دون خوسيه، ينتظرون وصول المهربين بفارغ الصبر.

- عندما أجيء إلى هنا -قال هيرمان محدثاً رافائيل- يراودني نفس الشعور الذي يراود مسافر عبر الكواكب حين يصل إلى مستعمرة على القمر. الناس حريصون على معرفة ما حدث هناك في الخارج رغم عدم امتلاكهم الكلمات لفهمه حتى.

ولأنها ليلة الجمعه، كانت الحانة مزدحمة للغاية. اقترب هيرمان من البار يصافح هذا ويرد التحية على ذاك.

- تعالا إلى هنا، تعالا إلى هنا - نادتهما امرأة ضخمة من مؤخرة البار.

- فلورثيتا - حياها هيرمان بحرارة.

- تعال هنا يا هيرمان وعرفني على ذلك الشاب. لم تر عيناي، منذ زمن، أي شيء ذي قيمة.

اقترب رافائيل، مفتوناً بالود الذي كان ينبعث من كل الوزن الزائد العلوي لفلورثيتا، وصافح يدها الممتلئة والناعمة على نحو غريب.

- أنت لست تاجراً - قالت دون تردد.

ابتسم متفاجئاً بعض الشيء، وشرع يقول إن ذلك كله يتوقف على شكل الأشياء.

- رافائيل كاتب -تدخل هيرمان- صحفي. يريد أن يكتب عن واسلالا... إن وجدها.

شعر رافائيل بدفء النظرات المحيطة به رغم الأجواء الزنخة للبار الذي تفوح منه رائحة الدخان والعرق والزمن الراكد. تسببت كلمة «واسلالا» في حدوث تنهيدة جماعية.

- يسوع -أمرت فلورثيتا النادل- آتِ بكرسي لهذا الشاب.

وعلى الفور قدّم أولئك الذين كانوا يجلسون إلى البار، كراسيهم.

- كيف كانت الأمور هنا؟ - سأل هيرمان.

- لا شيء جديداً، حبيبي، لا جديد -أجابت الفيلسوفة فلورثيتا- في هذا البلد توقع حدوث كل شيء. عائلة إسبادا ما تزال تحكم ونحن الآخرون ندافع عن أنفسنا بالوسائل التي نمتلكها. إذا وجدتَ واسلالا أرجو أن تعود لإعلامنا - قالت ملتفتة إلى رافائيل.

- لا أعرف لماذا تعتقدين أن الحل يكمن في العثور على واسلالا -قال هيرمان.

- لأنهم يعيشون سعداء - أكد أحد الرجال بنظرة فارغة.

- لا توجد حرب في واسلالا - قال النادل يسوع.

- الأطفال هناك لا يعرفون شيئاً اسمه عنف، حتى -أضافت امرأة أخرى ذات يد خشنة وهي تضع شعرها في وشاح حول رأسها- لا يتقاتلون أبداً.

- لقد نجحوا في ترويض الغرائز البشرية السيئة -أشارت فلورثيتا- واسلالا مكان الناس الوادعين.

- هذا هو السبب في أنهم يعمرون مائتي عام -قال رجل آخر- لا يخافون من الموت.

- ولا يمرضون - أكد يسوع.

- ولكن كيف تعرفون كل هذه الأشياء إذا لم يكن قد وصلها أحد؟ -سأل رافائيل.

- كلامك أن أحداً لم يصلها غير دقيق -أجابت فلورثيتا- لقد كانوا هناك في واسلالا لكنهم لم يتمكنوا من البقاء فيها، بينما أُبعد آخرون عنها. يموتون من الحزن في وقت قصير، ويذبلون مثل النباتات بدون ماء، لكنهم لا يغادرون الحياة دون أن يتحدثوا عن هذه الأشياء المدهشة.

- لكن هل عرفتِ هؤلاء الناس معرفة شخصية؟ - أصر رافائيل.

هزَ الحاضرون رؤوسهم بالنفي، لكن إيماءاتهم دلت على أنهم لا يعتبرون هذا الأمر انتقاصاً من قناعاتهم.

- لم نكن عنيدين جداً مثل القديس توماس -قالت فلورثيتا- هل تريد أن تقول لي إن الإنسان عليه أن يرى حتى يؤمن؟ أنا لا أحتاج إلى وضع

يدي على جروح المسيح لأعرف أنها صحيحة. هناك أناس ثقاة للغاية شاهدوا وأخبرونا. كان دون خوسيه هناك.

– لكن دون خوسيه شاعر –قال رافائيل مبتسماً بخبث– غالباً ما يكون الشعراء مُدّعين.

– نحن هنا نؤمن بالشعراء – قال الرجل ذو النظرة الفارغة الخالية من الروح، محدقاً في رافائيل.

– في المناطق التي جئتُ منها، لا أحد يؤمن بما يقوله الشعراء – أضاف رافائيل.

– مَن يعرف! –هتفت فلورثيتا بصعلكة– ربما لا يؤمنون لكن يرغبون بالإيمان. ثم إنه ليس خيال الشعراء فحسب. بالإضافة إلى دون خوسيه، هناك أشخاص آخرون قدّموا أدلة، ولكن إذا كنت لا تصدقنا –قامت بحركة كبيرة بيديها مشيرة إلى الباب– عد إلى بلدك غداً. لماذا تخاطر بالتوغل إلى الأعماق؟ تلك المنطقة خطيرة.

– أنا أصدقهم. أنا أؤمن بهم –قال رافائيل– لكنهم لم يمنحوني أجراً لأجل أن أصدق، بل يدفعون لي لكي أشك، لكي أُثير الشك في نفوس الناس.

– نحن نشك في أشياء كثيرة نراها –قالت فلورثيتا– لكننا لا نشك بواسلالا، حتى لو لم نرها. بعض الناس آمنوا بأشياء أكثر سخفاً واستحالة –أضافت، وهي تعب جرعة من العرق– نحن نؤمن بواسلالا. في نهاية المطاف، علينا أن نؤمن بشيء ما في بلد المصائب هذا.

كانت الببغاء تتأرجح بشكل خطير فوق سلك الألمنيوم مرة ثانية، محاولةً اجتيازه.

– وما هي برأيكِ الطريقة المثلى للوصول إلى هناك؟ – سأل رافائيل.

أطلقت المرأة قهقهة مدوية، مما جعل جسدها الضخم يرتجف مثل بحيرة سقط عليها حجر.

– هذا هو سؤال المليون دولار، يا بني! –تمكنت من أن تقول وسط الضحك الذي كان يتعالى كأنه ماء يتدفق. بيد أن الضحك، مع ذلك، توقف فجأة مثلما بدأ. نظرت إليه باستفزاز، وقالت– لابد أن تتمسك بالإيمان.

- هيا يا فلورثيتا -قال هيرمان- دعك من هذه الوصفات، وتذكري أننا أتينا من أماكن حيث الإيمان ليس سوى كلمة عفا عليها الزمن. تحدثي إلى الشاب بشيء من المنطق.

- المنطق فيما أقول -أجابت المرأة وهي تمد كأسها إلى النادل- الأشياء لا تُكتشف جميعها بالخرائط. لا توجد خرائط ترسم الطريق نحو واسلالا. ماذا تريدني أن أقول له؟ أكاذيب؟

- تحدثتِ عن امرأة في «ثينيريا».

- إنغراثيا. كل ما يجب معرفته عن طريق «ثينيريا»، يمكن معرفته من إنغراثيا.

- موريس زار إنغراثيا -أشار هيرمان لرافائيل- إنغراثيا تسيطر على توزيع ما يأتي إليها، في حاويات القمامة.

- أخبرنا دون خوسيه بالفعل عن إنغراثيا - علق رافائيل.

- «إنغراثيا هي قائدنا» -قالت فلورثيتا التي سرعان ما انزلقت إلى حالة سعادة منتشية- من الجميل مقابلة أجنبي يبحث عن واسلالا. نعم يا سيدي، من الجميل جداً.

- من الجميل معرفة ميليساندرا أيضاً - قال هيرمان.

- ميليساندرا؟ بنت النهر؟ -رفعت فلورثيتا رأسها- لا تقل لي إن تلك الفتاة تجرأت أخيراً على ترك جدها؟

- بالضبط -قال هيرمان- هي ورافائيل يسيران في الاتجاه ذاته.

- هل قدمت ميليساندرا للبحث عن واسلالا؟ - تدخل الرجل الكئيب وهو ينظر ساهماً إلى آخر حركات الببغاء التي كانت قد تمكنت من الوصول إلى نهاية البار.

- إنها في فندق «رائد الفضاء» -أكد هيرمان- غداً تخرج معنا في «الملكة».

- لأشرب نخب نجاحكم - رفعت فلورثيتا كأسها، بينما تقدم يسوع لملئه.

- أنا أيضاً - قال الرجل.

- وأنا - قال يسوع.

- والآن يا هيرمان، أخبرنا عن آخر الأفلام -قالت فلورثيتا- اشرب كأسك وأخبرنا بما حدث في العالم.

الفصل الثالث عشر

- وهل تعتقدين أن هذا المكان موجود فعلاً؟ - سألت كريستا، ميليساندرا.

كانت الأنوار مطفأة في الغرفة الصغيرة، ولا ضوء فيها ينير طيف المرأتين المتحاضنتين، كريستا وفيرا، سوى الضوء الأبيض الصافي للقمر الذي يدخل من النافذة. على السرير المجاور، كانت ميليساندرا مستلقية وذراعاها تحت رأسها وساقاها مطويتان بعضهما على بعض.

- جدي كان هناك -ردت ميليساندرا- أشخاص كثيرون يروون قصصاً عن واسلالا. الجميع في فاغواس يقرون بوجود هذا المكان.

- ولكن لماذا لا أحد يعرف كيفية الوصول إلى هناك؟ لماذا العثور عليه صعب جداً؟ - سألت فيرا التي كانت عالية الصوت خفيفته كأنه صوت طفل.

- يعتقد جدي أنهم أسسوا، دون وعي منهم، مجتمعاً في مكان تخرقه فجوة زمنية، شيء من هذا القبيل، يشبه إلى حد ما تداخل في انحناء الفضاء. ظلت واسلالا تحت فترة انتقالية، خلف نوع من الأبواب غير المرئية... لا أعرف. إنها مجرد تخمينات، وهذا هو تخميني الأرجح.

- وما هي برأيك القوة اللازمة لتجاوز ذلك الباب غير المرئي المفترض؟ - تدخلت كريستا من جديد.

- ربما تكون أمنيتي قد نمت مع هذه الفكرة -قالت ميليساندرا وهي تبتسم بتحد- أخبرتني جدتي عن امرأة حامل، كانت تقضي مساءاتها متطلعة، من خلال الواجهات الزجاجية لأحد المتاجر أمام منزلها، إلى دب

يحرك رأسه إلى الأعلى والأسفل وبالعكس. حين ولدت طفلاً، كان يحرك رأسه مثل الدب. أعتقدُ أن والديّ كانا يحلمان بواسلالا قبل ولادتي. إنه شيء أحمله في جيناتي. لا أعرف لمَ أنا واثقة من هذا الأمر. الشيء الوحيد الذي ليس لديّ شك فيه هو أنني سوف أجدها.

– خريطة الكنز تتوارثها الأجيال –قالت كريستا– لكن جدك لم يستطع العثور عليها مرة أخرى.

– ولا والداي ربما... لكن، لماذا لم يعودا، إذا لم يجداها؟ ألا يبدو لك الأمر غير منطقي؟ حدسي يقول لي إن واسلالا في مكان ما.

– وهل بالحدس الشخصي، سوف تعثرين عليها؟

– لمَ لا؟ – ردت ميليساندرا، مستديرة على جانبها الأيسر.

– اشش... اشش –فحّت فيرا وهي تتحرك نائمة بين ذراعي كريستا– أكملا الموضوع غداً، لا أستطيع أن أنام قالت بصوت عالٍ، وهي تغرق في النوم. داعبت كريستا رأسها بحنان وجذبتها إليها بقوة.

– لننم –قالت ميليساندرا– علينا أن نخرج غداً في ساعة مبكرة جداً.

ما إن أطلّ ضوء الشمس من النافذة بلونه المتحول بين الرمادي والوردي، حتى استيقظت ميليساندرا فجأة. فتحت عينيها دون أن يغادرها النعاس، بسبب شيء ما بدا كأنه تنهيدة عميقة. كانت ما تزال مضطجعة عندما اعتادت عيناها الظلام الخفيف ورأت شبح المرأتين العاريتين، كريستا وفيرا، وهما تمارسان الحب. أغمضت عينيها مرة أخرى وشعرت أنهما دخيلتان عليها، إذ لا يبدو أن لهاثهما وأنينهما المخادع جاءا عبر الأثير، بل شعرت بهما في داخلها مثيرين حرارة عميقة بين ساقيها. فتحت رمشيها فتحة خفيفة جداً متظاهرة بالنوم، إذ لم تعد قادرة على احتواء فضولها. كانت فيرا مستلقية على السرير بذراع مرفوعة فوق فمها والأخرى متشابكة بين الوسائد. كان جسدها جميلاً: نحيفاً وطويلاً، ثدياها صغيران وحلمتانهما بارزتان تذوبان في بطن مستوية وناعمة. أما كريستا الأضخم، فبدت كأنها تولد من بين ساقيها، بوجهها المفقود في وسط الأخرى التي كانت متوترة كأنها تشتهي أن تُفتح أكثر وأكثر بين الأنين والرعشات التي كانت كريستا تكررها مثل صدى

بعيد وشغوف. أغمضت ميليساندرا عينيها، وبدأت تتخيل كيف يمتص فم كريستا الرطوبة. وعلى الرغم من شعورها ببعض النفور في البداية، فإنه سرعان ما استبدل بمتعة غريبة وممنوعة أشعلت النيران في أحشائها، مما جعل شهوتها تتأجج. شعور بالانهيار وبامتلاك عالم خاص بها.

كان أنين فيرا يتجاوز حدوده المعقولة، فيما كانت كريستا تواصل انغماسها في شق ساقيها، وهي ترفع بيديها فخذي الفتاة كما لو كان جسدها قد تحول إلى إبريق من الماء العذب في وسط الصحراء. كانت ميليساندرا تفتح عينيها وتغلقهما. شعرت برغبة لا تُقاوم في تحريك جسدها أيضاً، في التموج والتلوي كي يلتهمها هذا الشعور بالشحنات المنبعثة مثل موجات الحرارة من السرير المجاور. وتوقفت خشية إزعاجهما، لكنها كانت تتمنى أن ينتهي هذا كله بسرعة قبل أن تسمعا تنفسها المتسارع.

إذا وصلت فيرا إلى رعشة الجماع تحريراً لذراعيها الممدودتين وشعرها المسعور على الوسادة، فإن ميليساندرا ستصل إلى رعشتها وسط مفاجأة غير متوقعة. لم تكن قد لمست نفسها، لكن شهوتها مع ذلك، كانت هناك، بين ساقيها، إحساس لا يُخطِئ، مع إفرازات تصيبها بالدوار تدوخها. أنزلت يدها إلى ما بين ساقيها، كما لو كانت تتأكد من أن الأمر ليس ضرباً من الخيال، وشعرت بخفقان شديد ورطوبة في سروالها الداخلي. تقلصت بطنها في رعشة متعة طويلة.

حين امتلأت الغرفة بالصمت مرة ثانية، وغفت كريستا وفيرا بعضهما بين ذراعي بعض، بقيت ميليساندرا في حالة من النعاس المخدر. تذكرت آخر ليلة لها مع خواكين: الهجمات والمجون. وسألت نفسها كيف سيكون شكل رافائيل، وهو يتقلب فوقها بحنان على السرير عارياً.

***

ظهر ماكلوفيو ثانية في وقت الإفطار. كان المسافرون في غرفة طعام الفندق الضيقة، يتناولون البيض والتورتيلا مع القهوة، بينما كان بيدرو منشغلاً بتوجيه الحمالين البسطاء من الحي المجاور، الذين سينقلون المؤن والأمتعة إلى الرصيف.

- صباح الخير، صباح الخير -حياهم الأرجنتيني بسخريته المعتادة- أرى أن الوجوه قد شبعت من النوم ومن الأكل. هل أنتم مستعدون مرة أخرى للاهتزاز في «الملكة»؟ لم أتوقف لحظة عن الشعور كأنني ما زلتُ أبحر.

- كيف حال العمدة، ماكلوفيو؟ - سأل هيرمان.

- قلق. هناك اندلاع جديد للإرهاب البيئي. أضرم الإرهابيون النار في عدة هكتارات من الغابات، لكن شرطة البيئة، بطائراتها العمودية، تمكنت من إخمادها بسرعة. مع ذلك، سيؤثر هذا الأمر على الاتفاقات المقبلة. عندما يأتي المديرون التنفيذيون لمؤسسة البيئة سيطالبون بدوريات مسلحة من حرس الغابات... وهذا مناسب لي بالطبع - ابتسم.

علق موريس على شائعات مفادها أن الفرق التابعة لعائلة إسبادا هم الذين رعوا الإرهابيين البيئيين تحت شعار «نحن نفعل ما نريد. هذه الأرض لنا»، وقاموا بحرق الغابات التي كان الحفاظ عليها شرطاً لا غنى عنه مقابل استمرار إيصال الكهرباء إلى البلد، من دول العالم الأول.

- أيها السادة، اعتقد أن خدماتي مطلوبة في ثينيريا -قال ماكلوفيو- لهذا قررت أن أخرج معكم اليوم وأهمل دعوة العمدة للبقاء في ضيافته لعدة أيام أخرى... بعد كل شيء، إنه يهتم كثيراً بتقديم ما أستحقه - أضاف بخبث بينما كان يقوم بتحضير فنجان قهوة لنفسه.

اعتقد رافائيل الذي ألقى نظرة جانبية على ميليساندرا التي كانت تأكل دون أن تهتم بسماع الأخبار من ماكلوفيو، أن تسليم الأسلحة لابد أن يكون قد حدث في الليلة السابقة. ربما اعتاد الجميع هناك على هذه الصفقات، على الطريقة التي كانت تحدث بها الأشياء في فاغواس، على التفاهم والتعايش مع الأشخاص الذين كانوا يتعاطون تجارة غير مشروعة.

ظهر السيد بلات لكي يودعهم، وهو يحث خطاه مرتدياً ثياب الميكانيكي. لم يخف الرجل العجوز استياءه من حضور ماكلوفيو. كما لو كان يُبعد ذبابة وقحة، رفض تحياته ووصفه بالعلق. وضع يده على كتف ميليساندرا، التي كانت تنظف فتات الخبز من بنطالها.

- احذري هذا المتملق -قال لها- وأتمنى أن تكوني بخير. هنا سنظل ننتظر أخبارك. سوف أقوم بإخبار جدك أنكم غادرتم اليوم إلى ثينيريا بأمان.

غادرت المجموعة الفندق وعادت إلى الرصيف، حيث كان بانتظارها القارب النظيف الذي أعيد تموينه، والمجذفون في أماكنهم عراة الصدور.

الفصل الرابع عشر

أدارت ميليساندرا رأسها لكي ترى مجرى النهر وهو يتلوى خلفها، للمرة الأخيرة. انفتحت البحيرة أمامهم أشبه بالمحيط. كان الإسبان قد أطلقوا عليها اسم «البحر العذب»، مندهشين من منظر ذلك الجسم المائي الذي لم يسبر أغوار ضفته المقابلة، سوى العديد من الرحلات الاستكشافية في وقت لاحق. في منتصف المصب، رأت بقايا السفن القديمة تتمايل فوق الصخور الكبيرة التي شكلت في قديم الزمان منحدرات خطيرة كان لابد من عبورها للخروج من البحيرة. ساهمت الهزات الأرضية التي لا تعد ولا تحصى، في عمل فتحات أرضية حتى يستمر تدفق النهر دون عوائق، بيد أن هياكل السفن التي لم يحالفها الحظ في العبور، بقيت هناك كدليل على مشروع مليء بالمخاطر.

أبحر القارب باتجاه البحيرة المتاخمة لشبه الجزيرة الصغيرة حيث كان ميناء لاس لوثيس، التي برقت أبوابها وبقاياها المصنوعة من الألمنيوم باللون الفضي تحت ضوء شمس الظهيرة. وتحول النسيم إلى هبات ريح حين ابتعدوا عن المصب. دخل القارب البحيرة مبحراً مع الشاطئ. رفع المجذفون صاري أحد الأشرعة اللاتينية الذي هيأوه مذ كانوا في الميناء، لأجل عبور البحيرة. ولمحوا من البعيد القمم الرصاصية المبتورة لصف من البراكين. من هنا بدأت «الأرض المجهولة» بالنسبة لميليساندرا. كانت مياه البحيرة تتكسر إلى أمواج متواصلة، جعلت القارب يتمايل صعوداً ونزولاً بصمت. كانت كريستا وفيرا تلتزمان الصمت قريبتين جداً بعضهما من بعض. كان صدى صورتيهما في الليلة السابقة ما يزال يتردد في ذاكرة ميليساندرا. من الصعب عليها أن تربط بين امرأتي ليلة البارحة وبين تلكما اللتين تقفان

أمامها الآن بهدوء ووداعة. أما هي فما تزال مستعرة على النقيض منهما. نظرت إلى رافائيل، الجاهل تماماً بما يراودها من تخيلات. كان يتأمل ساهماً مجموعة من السحالي تتشمس على الساحل.

أثناء الرحلة نحو ثينيريا، كان ركاب القارب من الرجال والنساء قد سلموا أنفسهم إلى النسيم والأمواج المتلاحقة للبحيرة، في حالة من النعاس لا يقطعها سوى ظهور الجزر الصغيرة المتناثرة هنا وهناك والمغطاة بنباتات كثيفة، حيث قرروا أن يرسوا لتناول الطعام.

في الليل، رسا القارب في خليج صغير مهجور محمي من الأمواج التي جعلت رتابته، الهولنديتين وهيرمان يخرجون عن طورهم، إذ أصابهم الغثيان ودوار البحر على الرغم من مرهم السكابولامينا الذي وزعه موريس عليهم.

قضى بيدرو والمجذفون، فترة ما بعد العشاء، بتبادل النكات فيما بينهم والضحك بصوتٍ عالٍ. وبدلاً من أن يزعج صدى ضحكاتهم المسافرين، أراحهم وخفف عنهم الإحساس بالطوفان فوق قشرة هذه المساحة الهائلة من المياه التي لم يروا أثناء الإبحار فيها أية علامة للحياة البشرية لعدة ساعات.

ما إن ارتسم ضوء الفجر على صفحات الماء الممتدة إلى ما لا نهاية، حتى أيقظ بيدرو محارته التي لا تكل، وصحاها من النوم. رفع المجذفون الشراع مرة ثانية واستأنف القارب رحلته. عند الظهيرة توغلوا في البحيرة من أجل عبورها بشكل مائل. لم يستطع الساحل حمايتهم من الأمواج التي ازدادت عنفاً وحدّة. كان القارب يتسلق قمم الأمواج ويسقط بقوة، بينما كان الماء يتطاير على الركّاب الذين اكتظت بهم السقيفة.

شعرت ميليساندرا لأول مرة أن القارب أصبح هشاً وضيقاً. فكرت في كولومبوس الذي عبر المحيط الأطلسي بسفينته الشراعية الضئيلة، والملاحين القدامى الذين كانوا يغامرون بسبر أغوار بحار مجهولة.

عند الغسق، شاهدوا قمتي بركانين توأمين ظهرتا في الأفق.

- يُقال إن سكان فاغواس الأوائل تلقوا تعليمات من كهنتهم بعدم التوقف حتى يعثروا على مرتفعين توأمين فوق إحدى الجزر -قال بيدرو- لا يسعني إلاّ أن أتخيل ما سوف تشعرون به حال رؤيتكم لهذا الجمال.

كانت مخاريط نموذجية ذات منحدرات ناعمة حمراء اللون داكنة. بدت الصور الجانبية واضحة عند الشفق المائل إلى الاصفرار. كانت تداعب الأفق غيوم صغيرة. وسرعان ما طفت أمامهم الجزيرة مغطاة بنباتات برية كأنها رغوة خضراء، ولد منها هذان الثديان العملاقان.

تركوا الجزيرة وراءهم واقتحموا مرة أخرى الخط الغامض للساحل. اليابسة.

الفصل الخامس عشر

سقط عليهم الليل فجأة من دون نجوم، ومعه تلاشت الملامح والوجوه وتحولت الأجساد إلى حشود كثيفة من الظلال.

هبطوا إلى جوار منصة صدئة تتأرجح في الأمواج من جهة إلى أخرى. كانت هناك إطارات مطاطية قديمة تخفف من رسو القوارب. كانت المنصة مربوطة بحبال متهرئة تتمايل باصطدامها مع أي معدن وتصدر أصواتاً شبيهة بصوت قطار غارق يحلم بالسير على طريق مغمور منذ فترة طويلة.

أمسك بيدرو بالحلزونة وأطلق صوتاً قصيراً كالجئير. كانت تلك هي الإشارة. من الجانب الآخر من المنصة، ظهر زورق صغير يعمل بالهواء المضغوط، واقترب من أحد أطراف القارب.

وعلى ضوء الفوانيس، تعرف موريس على خوسيه، مساعد إنغراثيا المراهق، الذي يبدو أنضج وأكبر بكثير من عمره الحقيقي. لاحظ أنه كبر بسرعة ونبتت في وجهه الطويل والشفاف لحية داكنة. كان وجه بيدرو يسبح في هالة صفراء، بحيث بدا كأنه رأس بلا جسد يتمظهر في الظلام على نحو رائع.

- هل البروفيسور موريس جاهز؟ - سأل الصبي بعد أن تبادل التحايا وتفاصيل الرحلة مع بيدرو.

- نعم -قال قبطان «الملكة»- لديّ راكبان آخران لك: حفيدة دون خوسيه وأحد رفاقها.

- أعلم ذلك -قال رأس خوسيه الذي كان يطفو فوق الأمواج.

- مرحباً خوسيه - قال موريس من القارب.

- مرحباً بروفيسور - أجاب خوسيه. ارتسمت على محياه ابتسامة فرح حين سمع صوت العالِم.

- هيا -قال بيدرو- لتنتقل ميليساندرا أولاً.

بحركات واثقة، وصلت إلى المراهق الذي ساعدها على تثبيت نفسها في الزورق الصغير والجلوس على اللوح الذي كان يستخدم كمقعد. تبعها رافائيل، ثم لحقه أخيراً موريس الذي تمايل الزورق الهش تحت وزنه الزائد، مما دعا الصبي إلى التحرك بسرعة لموازنته.

للحظة طفت القوارب بعضها إلى جانب بعض حين كان الركاب يودعون بعضهم بعضاً. لم يُظهر أحد، ولا حتى ماكلوفيو، أية إشارة أو حركة. كانوا مُتعبين ولا هَمّ لهم سوى الوصول إلى الميناء.

- سنلتقي ثانية -قال هيرمان- كل الطرق تتقاطع في فاغواس.

- شكراً بيدرو -هتفت ميليساندرا ثم أضافت- لا تنسوا توصياتي.

- حظاً سعيداً - أجاب بيدرو.

مد رافائيل يده في إشارة منه لتوديعهم. انطفأت الفوانيس، وانزلق الزورق الصغير في الماء مُبتعداً عن القارب تحت جنح الظلام.

حدقت ميليساندرا في الكتلة المظلمة «للملكة» وشعرت بحنين مبكر. كان القارب، بطريقة ما امتداداً للنهر. من الآن فصاعداً لن تكون الأمور كما كانت عليه. لقد أصبحت الآن في أرضٍ غريبة، محاطة بالغرباء. فتشت عن نظرة رافائيل. برقت عيناه في الظلام مثل عيني قطة، مقترباً لتهدئتها. ابتسم لها دون أن يعرف ما إذا كانت ترى إيماءته أم لا. كانا قريبين بعضهما من بعض جداً. مد رافائيل يده. داعب ساقها كأنه يداعب حيواناً عصبياً أليفاً. وضعت ميليساندرا يدها على يده ولامست أصابعه واحدة تلو الأخرى. كانت يدا رافائيل تروقان لها. ذكوريتان جداً، مربعتا الأصابع، معبرتان. ضغط رافائيل على يدها. ولاحظ أن العمل الميداني قد ترك آثاره على أطراف أصابعها والمفاصل.

كان موريس يتحدث بصوت منخفض مع خوسيه حول آخر مستجدات الوضع في مبنى المدرسة المتهدم الذي استقرت فيه إنغراثيا منذ سنوات

حال وصولها إلى ثينيريا. أصبح امتياز تعهد تفريغ ودفن القمامة عملاً مُربحاً لها بعد أن تم التفاوض على البنود التي اتفقت فيها الشركات على إرسال القمامة غير المضغوطة. وأجمع سكان ثينيريا منذ البداية، على أن إنغراثيا بدأت تتمتع بالاحترام والتقدير. كانت المواد التي تصل في حاويات تكتسب قالباً آخر جديداً بعد أن يتم إصلاحها ودهنها لتصبح سلعة مرغوبة.

تأثر موريس، منذ وصوله للمرة الأولى مع البعثة الرسمية لتفقد إحراق القمامة، بهذه المرأة الضخمة التي كانت تحظى بمكانة غير عادية تماماً في هذه الأصقاع. لقد أطلقوا عليها في قريتها منذ طفولتها، لقب «الغجرية». كان طول إنغراثيا يبلغ متراً وخمسة وتسعين سنتيمتراً وتمتلك بنية قوية بلون الطين. كانت يداها ورجلاها طويلة أيضاً على نحو غير عادي. قالت إن والدتها منعتها، منذ أن كانت مراهقة، من دخول المطبخ لأنها كسرت الأواني يميناً ويساراً. هالة الوحدة التي أحاطت بها، أثارت اهتمام موريس منذ البداية. لم تستطع هي نفسها، بشخصيتها المرحة وروح الدعابة المؤثرة، ولا حتى البعوض من تجاوز هذه الهالة. حين انتشرت الحشرات الصغيرة جداً بكثرة في البحيرة شتاءً، واضطروا إلى لف أنفسهم بخرق لمنعها من الوصول إلى افواههم وفتحات أنوفهم وآذانهم، لم يتعب الأولاد قط من مشاهدة كيف كانت تتحطم على بعد قدم من إنغراثيا مصطدمةً بجدار غير مرئي، وبفقاعة لا يمكن تجاوزها، كانت تحيط بها من رأسها إلى القدمين.

كان لموريس الفضل في تجاوز تلك الأزمة، وإلى جانبه، إنغراثيا التي كانت سعيدة على نحو مؤقت.

عبّر الاولاد عن إعجابهم وحبهم له لأنه هو الذي علمهم بصبر، آليات الميكانيك وأقام لهم ورشة لإصلاح وإعادة تأهيل الأجهزة الغريبة والعتيقة التي جاءت في أكوام الحاويات مختلطة بالنفايات اليومية للمجتمعات الكثيرة.

- هل قمتم باتخاذ الاحتياطات التي شرحتها لكم في المرة الأخيرة؟
- وجه سؤاله إلى خوسيه.

- ماتت القطط جميعها في العام الماضي بعد أن قضت الليل بطوله

تعبث في حاوية وصلت حديثاً -قال خوسيه- وتنبهنا ساعتئذٍ إلى أن شيئاً خطيراً كان قادماً من هناك. لبسنا البدلات الصفراء والأقنعة وكل ما قدمتَه لنا ودفنّا الحاوية والقطط. وأصبحنا حذرين أكثر منذ ذلك الحين.

اقتربوا من الشاطئ. وتمكن موريس وهو في الماء، من رؤية الجرف المرتفع وأضواء المدرسة القديمة المهجورة التي كانت تنتظره إنغراثيا فيها.

الفصل السادس عشر

من موضعه غير المستقر في مقدم القارب، لمح رافائيل الصورة البيضاء للرصيف. وعلى النقيض من كل المراسي التي شهدها في الرحلة، كانت هذه الخرسانة تبدو أكثر حداثة، تحوي على بكرات طويلة متصلة بأطرافه. اقتربوا من سلم ينزل بهم إلى الماء. قفز خوسيه من القارب الصغير واختفى في الظلام.

- سأعود بعد قليل - قال.

نظرت ميليساندرا إلى الأعلى حيث أضواء المبنى. وساعد الصمت والظلام على انبثاق شعورها بالوحدة. لم يكن يُسمع سوى هدير الأمواج التي تضرب الشاطئ دون توقف. مضت عدة دقائق قبل أن يُنار المكان فجأة بضوء ساطع. صرخ رافائيل بالإنكليزية، بكلمة نابية، فيما افلتت من موريس همهمة. ومع استمرار اتساع حدقات أعينهم، أحسوا بخوسيه يظهر على الرصيف من جديد.

- ما رأيك يا بروفيسور؟ -سأل بشقاء- بإمكاننا الآن تفريغ الحمولة ليلاً. عثرنا على هذه المصابيح في إحدى الحاويات. تقول إنغراثيا إنها مصابيح ملعب. لم نضطر ولا حتى إلى إصلاحها. إنها تعمل على أفضل حال. يعلم الله لماذا رموها.

- رائع -قال موريس وهو ينعّم شعره بيده المعدنية التي كانت تبرق في الضوء الاصطناعي- في المرة القادمة عليك أن تقوم بإخبارنا حتى نتمكن من أغلاق أعيننا، التي أعشت للحظة.

- نستخدم الإنارة كأسلحة أيضاً -قال خوسيه دون أن يتوقف عن

الحركة- نقوم بتشغيلها حين نشعر بحضور غريب. المتسللون ليس لديهم الوقت لردة فعل آنية، وعندما يتوفر لديهم، يكونون قد حوصرا تماماً. نجبرهم على المغادرة دون إطلاق أية ذخيرة. أحببت أن أوضح لكم - أضاف.

ساعدهم خوسيه على دفع أنفسهم للوصول إلى درجات السلم وحمل أمتعتهم.

كانوا على وشك الانتهاء من حمل آخر حقيبة، عندما ظهر SAM أحمر اللون، يقوده مراهق آخر ألقى التحية على البروفيسور موريس بمودة كبيرة.

سمحت لهم الإنارة أن يلاحظوا أنهم كانوا قد هبطوا في شق في الجرف الذي تعلو على قمته بناية إنغراثيا. كانت رمال الشاطئ العريض بنية اللون، مغطاة بنباتات زاحفة كثيفة خضراء غريبة توغلت في البحيرة حتى وصلت إلى قمم الأمواج الأولى. كان الرصيف مزوداً بقضبان لكي تنزلق عليه الحاويات بعد أن يتم رفعها من المراكب بواسطة البكرات.

نزلوا عبر أحد المنحدرات، إلى المركبة التي كانت تنتظرهم، في نصف دائرة أسفلتية واسعة يبدأ منها الطريق الصاعد.

- لم أر رصيفاً مثل هذا مطلقاً -علقت ميليساندرا- مَن قام بإنشائه؟

- شركة رفع القمامة قامت ببنائه -قال خوسيه- يسّر أعمالنا كثيراً.

بعد قليل، اجتازوا البوابة الحديدية المؤدية إلى مدخل المدرسة القديمة المحاطة بجدار عالٍ مغطى بالكتابات التي كانت تُرى حتى في الظلام. دارت المركبة في أحد المنعطفات وتوقفت أمام المدخل الرئيسي لبناء مدور، انتصب في وسطه تمثال كاهن أصلع طويل ونحيف، ترتسم على محياه تعابير جميلة يُمسك كتاب تعليم أصول الدين للزوار اللامبالين. كان من الصعب تكوين فكرة دقيقة عن المبنى في الظلام. خمّن رافائيل أن أسلوب البناء كان استعمارياً، مع تفاصيل معبد يوناني، يتكون من طابقين وممرات طويلة تطل على البحيرة. يبرز فوق المدخل الرئيسي إفريز مثلث بصور منقوشة، هي مشاهد لرسالة الكاهن الإنجيلية. توقع موريس أن يجد إنغراثيا واقفة بانتظارهم إلى جانب الباب الأمامي لكنها لم تكن كذلك.

دخلوا. ولما كانت ميليساندرا معتادة على الرائحة العذراء للنهر، أدركت على الفور الروائح الغريبة التي كانت تطفو في الهواء. اجتازوا ممراً سميكاً مختوماً بأقواس أدى بهم إلى ممر آخر انفتح على فناء كبير. كانت تتناثر هنا وهناك عدد من الشموع معلقة بالسقف، مع أشياء مكدسة في جميع الأركان، يصعب تحديد ماهيتها في الظلام. لم تكن هناك علامات رئيسية تدل على الحياة. الغرف التي كانت ذات يوم فصولاً دراسية، ما تزال ترث إحداها الأخرى في سلسلة لا نهائية من الأبواب المغلقة.

– أين إنغراثيا؟ – سألت ميليساندرا.

– ستلتقون بها غداً –أجابها خوسيه– اعتقدت أنك وهذا السيد تفضلان أخذ قسط من الراحة من عناء الرحلة.

تنحى خوسيه مع موريس جانباً، فيما أشار الرفيق الآخر إلى ميليساندرا ورافائيل أن يتبعاه إلى الطابق الأول. ويمكنهما الصعود إلى الشرفة أيضاً، إذا رغبا في استنشاق بعض الهواء النقي قبل أن ينسحبا ليلاً.

قادهما إلى غرفة فارغة بفراشين ضيقين على الأرض، وإبريق ماء، وكأسين وسلة خبز وفاكهة. تمنى لهما ليلة سعيدة، وتركهما وحدهما.

– استقبال غريب –قال رافائيل ملتفتاً نحوها بعد أن تفقد ما حوله– كيف علموا بموعد وصولنا؟

رفعت ميليساندرا كتفيها دلالة على عدم معرفتها.

– أخبرهم السيد بلات – قالها غارقاً في التفكير ثم اتجه إلى النافذة لفتح المصاريع.

باغتهما هدير أمواج البحيرة ينفذ إلى الغرفة مع دفقة من الهواء المنعش.

– يا لها من رائحة غريبة هنا! – علقت.

– إنها رائحة القمامة –قال رافائيل وهو يتطلع إلى الفراشين المتلاصقين.

لم ترفع نظرها.

– لنذهب إلى الشرفة حيث يمكننا رؤية أنوار لاس لوثيس من هناك – قالت ميليساندرا.

أخرج رافائيل المصباح الذي كان يحمله في حقيبته، وسارا نحو الممر. عند أسفل السلم وجدا قطة لم تبد حراكاً حين رأتهما. في نهاية الدرجات، عثرا على باب حديدي بمزلاج دون قفل قاد خطاهما إلى السطح الواسع للسقف الخرساني المستوي للمبنى، وقد تحول إلى شرفة بواسطة درابزين من أعمدة صغيرة بيضاء مخروطية. كانت تنتشر في الشرفة، مقاعد خرسانية اسودّ لونها بسبب رداءة الطقس. باغتهما نسيم بارد وناعم ولطيف جاء من البحيرة، أزاح الرائحة التي كانت تشعر ميليساندرا بأنها مصدر إزعاج تلتصق بخياشيمها. تنشقت الكثير من الهواء ومشت بذراعين مفتوحتين، تعلوها سماء صافية جزئياً، تتناثر فيها القليل من النجوم. تبعها رافائيل حتى نهاية الشرفة. اتكآ على الدرابزين، وأطلا لرؤية الأضواء من بعيد.

– ثينيريا! –تنهدت ميليساندرا– المدينة الفخمة العظيمة، الأقدم من مدينة فاغواس، أُحرقت وأُعيد بناؤها عدة مرات، بعد أن كان القراصنة يقومون بنهبها باستمرار. ولد جدي هناك. سمعتُ الكثير من القصص عن ثينيريا حتى بدت لي رؤيتها، كذبة.

– ما يبدو كذبة بالنسبة لي، هو أنكِ هنا للمرة الأولى.

– حين أصبحت الحروب مزمنة، قررت جدتي أنه من الأولى لهما، الانسحاب إلى النهر وعدم التواجد هنا مرة ثانية. أعتقد أنها الطريقة المثلى أيضاً لإجبار جدي على التخلي عن بحثه عن واسلالا. آخر مرة جاءا فيها إلى هنا، كانت بعد اختفاء والديّ. أنا جئتُ معهما لكنني كنت صغيرة جداً. لم أعد أتذكر شيئاً.

بدا أن ميليساندرا فقدت الاهتمام فجأة بالأنوار البعيدة وابتعدت عن الشرفة حتى أصبحت في مواجهة البحيرة.

– ما زلت أشعر بشغف في الذهاب على متن قارب –علّقت– أتساءل ما الشعور الذي كان يراود الناس الذين يبحرون بالمراكب الشراعية عبر المحيطات.

– على الأقل كان يغبطهم في تلك الأيام احتمالية العثور على أراض جديدة. لكن لم يتبق شيء الآن للاستكشاف... – قال رافائيل.

– لم نلمس ذلك بعد –ابتسمت وهي تنظر إليه– آمل أن أكتشف واسلالا.

– واحدة من قصائدي المفضلة تقول «كافح، اسعَ، ابحث ولا تستسلم أبداً». الشاعر يتخيل أوليسيس، مصاباً بالملل بعد وصوله إلى إيثاكا، وهو يبحر من جديد تاركاً بينيلوب مرة ثانية.

– هل تحفظ القصيدة عن ظهر قلب؟ – سألت ميليساندرا.

– كنت أحفظها، لكني لا أعرف إن كانت ما تزال عالقة جميعها في ذاكرتي الآن. لم أرددها منذ وقت طويل... «من المكاسب القليلة أن الملك العاطل ...» – بدأ غير واثق من نفسه، وهو يجس نبضه أمام كل بيت شعر.

لم يتذكر المقاطع الأولى بالضبط، لكن ما إن اقترب من النهاية، حتى أصبح أكثر ثقة بإلقائه، وصار أسلوبه أكثر سلاسة، والفرح بالكلمات أكبر. كانت ميليساندرا تصغي إليه. أغلقت عينيها لتسمع وتستوعب على نحو أفضل. أكمل رافائيل. لمس أنف ميليساندرا برفق. فتحت عينيها.

– لا أحد يريد الخروج من إيثاكا الآن – قال رافائيل.

– ربما لهذا السبب فتنتك فكرة واسلالا.

– محتمل. أجد صعوبة في التعاطف مع هموم جيلي.

– هذه القصيدة جميلة جداً –قالت ميليساندرا– لم تبد لي من النوع الذي يحفظ القصائد عن ظهر قلب. جعلتني أفكر في جدي. يقتبس باستمرار من الشعراء. لقد نشأتُ وأنا أصغي إلى الشعر.

التزما الصمت. احتكا بعضهما ببعض. التفتت ميليساندرا ورمقته بنظرتها الهادئة.

– أشعر بالبرد –قالت– لقد تأخر الوقت. لنخلد إلى النوم.

أحاط كتفيها بذراعه. ضغطت ميليساندرا بنفسها عليه أثناء توجههما نحو السلم. أمالها رافائيل على صدره وفرك ظهرها لأجل تدفئتها. كانت حركاته حنونة وأخوية تقريباً. اعتقدت ميليساندرا أن أنهار رافائيل الداخلية مليئة بالسدود، لكنها كانت تفتن بحنان نظرته في كل مرة أكثر. حين عادا إلى الغرفة، أغلق المزاليج، ثم تمدد على أحد الفراشين. وضع ذراعيه تحت رأسه، وبدأ يتحدث عن هذا وذاك. كانت واقفة ترنو إليه.

- بعد إذنك، سأقوم بخلع ملابسي -قال فجأة، وشرع في فك سحاب سرواله الجينز- يزعجني أن أنام بملابسي.

جلست على الفراش الآخر، فكت رباط حذائها ثم عادت للوقوف ثانية. انزلق البنطال على الأرض، خلعته بحركة من قدميها، وطوته بعناية. أطفأت الضوء وتمددت مرتديةً قميصها القصير. تأملت أن يبحث عنها في الظلام لكنه ظل بلا حراك، يتنفس إلى جانبها بمشقة.

- تنفسك غير طبيعي أبداً - مازحت رافائيل وهي تتطلع في عينيه المفتوحتين البارقتين في الظلام.

- أجهل عاداتك. لا أعرف إن كان من الضروري التفاوض والنقاش أولاً، هنا أيضاً. سامحيني. مؤكد أنني سأبدو لك غريب الأطوار - تمتم محرجاً، بعد أن لاحظ أن حالة من عدم الفهم المطلق ترتسم على ملامحها.

فجأة شرع الاثنان بالضحك بصوت عالٍ. كانا يخلعان ما تبقى من ملابسهما أثناء الضحك، ويتدحرجان على الأرض غارقين في قبلات حنينة وشقية بينما يتفحصان بأيديهما المواضع المهمة، ويرسمان الأشكال التي تخيلها أحدهما في الآخر، ثم يتوقفان، ينزلان ويصعدان ليشاهدا، يلمسا، يشما ويطوفا بلسانيهما قوس الكتف، منخفض الرقبة، محجر العين، فتحة الأنف، شحمة الأذن، المعصم، الذراع، الساق، انحناء الخصر، العمود الفقري، عظم الصدر، الجبهة، السرّة، البطن، العانة، الصدر. لقد مارسا الحب مندهشين من جسديهما اللذين امتثل بعضها لبعض بضراوة وحنان. كانا يتمتمان، بكلمات تخرج من فميهما عامرة بالحب، هما أنفسهما تعجبا لسماعها.

بعد آخر هزة جماع، جلست ميليساندرا فجأة على الأرض. طوت ساقيها، ورفعت ذراعيها ثم رأسها بينما كانت تقوس ظهرها مثل القطط، وأطلقت الهواء من رئتيها في صرخة بدائية طويلة.

الفصل السابع عشر

– غداً سيقول الأولاد إنها كانت «ثيغوا»، المرأة الشبح التي تصرخ بحثاً عن أطفالها، لكنها بالنسبة لي صرخة حب –قالت إنغراثيا– اهدأ ولا تقلق، لم يعانقني أحد منذ فترة طويلة.

عاد موريس للاستلقاء على الوسائد فيما استقرت إنغراثيا على ذراعه الوحيدة ثانية. لم تسمح له مطلقاً في أن يندس في فراشها بذراعه المعدنية، رغم عدم موافقته على التخلي عنها، مؤكداً لها براعته الفائقة في استخدامها لدرجة أنها لن تميز ذلك حتى، لكنه رضخ ووضع الطرف الاصطناعي على المنضدة.

– ألا تعتقدين أن هذا الأمر سيثير مشكلة؟ – سأل.

– اخبرتكَ تواً ما حصل، حبيبي –قالت وهي غافية– الوحيدة التي لديها مشاكل في هذه الليلة هي أنا. لا أريد أن أنام.

جلست على السرير وحرّكت بقوة شعرها الأشيب الطويل الممتد إلى ظهرها، وكانت تربطه أثناء النهار في جديلة سميكة.

– هل تريد قهوة؟ – سألته ونهضت نحو الطاولة التي تستقر فوقها دلّة القهوة.

– حسنٌ. استفيدي مني، ولا تعيري اهتماماً لكوني لم أنم ليلة واحدة متواصلة في الأسبوع ...

– النوم مضيعة للوقت –أجابت بينما كانت تملأ كوبين من القهوة وتعود إلى الفراش– الشيء الوحيد الذي أحسد عائلة إسبادا عليه هو الأسطورة التي تقول إنهم لا ينامون أبداً، على الرغم من أنني أخشى أن يكون الأمر مجرد أسطورة. كم ساعة نمتُ أنا في آخر لقاء لنا؟

– أربع.

– جيد. لقد قمت الآن بتخفيضها إلى ثلاث. لا يعد تقدماً كبيراً، ولكنه أفضل.

– حسنٌ، عليك أن تتجملي بالصبر معي. أنا أنام خمس ساعات.

كانت إنغراثيا عارية تماماً. لم يعد جسدها شاباً، ولكنه ما يزال قوياً ومهيباً. كانت لديها ساقان طويلتان نحيفتان تدعمان الوركين الضيقين، وثديان كبيران بالوراثة، بحيث تتحرك بهما من جانب إلى آخر بنفس الإهمال الذي كانت تهز به شعرها الطويل. كانت تبدو دائماً لموريس، وكأنها امرأة محاربة تائهة، فيتخيلها سمراء عارية مبتورة الصدر لكي تتمكن من حمل قوسها وسهامها بشكل أفضل.

– هل أنتِ واثقة من أنك لن تكبري بعد الآن، إنغراثيا؟ أراكِ أطول.

– لا أعرف. ربما ما تقوله صحيح. كبرت قدمي، ويجب أن أنتعل منذ الآن أحذية رجال – أجابت، وهي ترفع إحدى ساقيها وتنظر إلى قدمها التي كانت تحركها من جانب إلى آخر، محدقة في القوس كأنها تخشى أن تنمو أثناء حديثهما.

– ماذا فعلتِ مع رفاق رحلتي؟

– أرسلتهمليناموا جيداً ويرتاحوا في غرفة خاصة بهم. لم أكن في مزاج جيد لاستقبالك بالرسميات أمامهم، لأني لا أحب أن أُظهر حناني في الأماكن العامة. إنه يقلل من هيبتي.

ابتسم موريس. لم يستغرب معرفتها بأمر رفاقه. يبدو أن إنغراثيا تعرف كل شيء. فكر مع نفسه أن الوقت سيسنح له في الغد ليتحدث معهم. أما في هذه الأثناء، فمن الأفضل أن يكونا وحدهما، للحديث عن الأشهر التي لم يريا فيها بعضهما بعضاً. لقد اعتادا أن يلتهما الأيام الأولى معاً. تركته إنغراثيا مُنهكاً. لقد شبعت ثم عادت مرة ثانية إلى حالتها كامرأة محاربة، غير مبالية بملذات الجسد. في غضون أسابيع قليلة، سيختصران كل سبل الحب، من شهر العسل إلى تهدئة زواج قديم.

كانت إنغراثيا مستلقية إلى جانبه تدخن سيجارة، تخرج من فمها الكبير دوائر واسعة تتصاعد باتجاه السقف.

– أحضر ماكلوفيوس شحنة ضخمة من الأسلحة –قالت إنغراثيا– وصلتني الأخبار حين كنتم في لاس لوثيس. كانت عائلة إسبادا تنتظره بفارغ الصبر، لكن ماكلوفيو أرسل لي أيضاً يعرض جزءاً من الشحنة. من المحتمل أنهم في النهر لا يعرفون، أنه يستخدم المزرعة لتجارته.

– اعتقد أن ميليساندرا تشك في الأمر –قال موريس– لكنني لست مقتنعاً بأنه من المناسب تنبيهها الآن. بقي دون خوسيه في المزرعة مع كادرها. لا أخال أن هناك خطراً ما دام ماكلوفيو لم يُكتشف. يبدو لي أنه من المهم أن تواصل رحلتها إلى واسلالا. إذا جاز لأحد العثور على هذا المكان، فستكون هي.

– لن يكون الأمر بهذه السهولة – قالت إنغراثيا ستحاول عائلة إسبادا وضع العواقب أمامها. أنا واثقة بأنهم سوف يسعون إلى إضاعتها، وعدم عودتها ثانية، تماماً مثل والديها. إنهم يخشون هيبة دون خوسيه، والآمال التي يعلقها السكان على رحلة الحفيدة.

– حسنٌ، علينا أن نجد طريقة لإجهاض خططهم. مؤكد أن بإمكانكِ مساعدتها.

– آه يا بروفيسور، يا بروفيسور –صاحت إنغراثيا، ونهضت مرة أخرى لتسكب المزيد من القهوة– لا أعرف أن كانت ستُتاح لي الفرصة للاهتمام بهذا الموضوع أيضاً. كلما تعبرني السنين، يزداد إيماني بأن واسلالا لا تتوافق مع الطبيعة البشرية. نحن لسنا صالحين. لو كنا كذلك، لشعرنا بالملل على نحو لا يطاق. فقط في حالة الموت، ننقطع عن إيذاء بعضنا بعضاً. لذلك، الجنة للموتى.

– لكن واسلالا هي الجنة على الأرض. لا يوجد شك في ذلك –قال موريس مبتسماً بسخرية– على الأقل هذا ما وصفتِه بنفسك.

– بين ليلة وضحاها أصبحتُ رومانسية، في محاولة جادة مني لأكون مثالية... ولحسن الحظ أراني في الطريق الصحيح. العيش وسط القمامة، يمنحك الكثير من الوضوح... –قالت إنغراثيا وهي ترفع أحد حاجبيها، مُحدقة في الفراغ– سيكون من الرائع بالطبع أن يعثروا على واسلالا، وأنا

كمواطنة في فاغواس، سأكون فخورة جداً بذلك. كلما أرى المزيد من القمامة، أدرك مدى سوء حظ أولئك الذين يمتلكون كل شيء، مثلهم مثل أولئك الذين لا يمتلكون سوى نفاياتهم. لكن، حتى لو افترضنا أنهم وجدوا واسلالا، فإن ذلك لن يحل المشاكل ...

- بالنسبة لي، يكفي أن أعرف أن واسلالا موجودة. مجرد أن أعرف. لا يهمني إن كنتُ لا أستطيع الوصول إلى هناك أبداً. - قال موريس وهو ينظر إلى وجهه المنعكس بصورة مشوهة على ألمنيوم الطرف الاصطناعي.

- لهذا السبب أحبك، يا بروفيسور - ابتسمت إنغرائيا وهي تنحني لتقبّل جذع ذراعه. بدا له وجهها، الذي تحرر من القسوة فجأة، شاباً وحلواً على نحو رائع.

الفصل الثامن عشر

في صباح اليوم التالي، أيقظتهم الأصوات العالية للمدرب الصيني. ارتدت ميليساندرا ورافائيل ملابسهما على عجل وخرجا إلى الممر. كانا ما يزالان يشعران بالفتور والنعاس الناتج عن حميمية جسديهما المرصعين وظل الغرفة، بحيث إن ضوء الصباح المتسرب أيقظهما فجأة.

تحت شرفة الطابق الأول اصطف عشرون صبياً يرتدون ملابس خارقة للعادة، ويرددون صرخات مقلدين ركلات معلم الفنون الحربية. كانت دراجة الرجل الصيني، المربوطة بعربة خضروات مغطاة، متكئة على أحد الأعمدة، مما يضفي على المشهد لمسة كوميدية أليفة. بيد أن الأولاد والصيني كانوا التفاصيل الأقل غرابة في تلك اللوحة. كانوا في فناء ضخم يشبه الشاطئ حيث أودعت الحضارة الحديثة بقايا حطام سفينتها، بقايا أشياء يمكن أن تصلح للخيال، مطروحة على شكل أكداس عالية، تتألف من منحوتات غريبة الأطوار، موجودات من عالم آخر لا تكشف عن نفسها إلاّ بعد مراقبة طويلة: أكوام إطارات آلاف الأبواب والنوافذ، هياكل أسرّة حديدية لا حصر لها، أكداس من الأفرشة، جبال من الأجهزة الصحية، دواليب مختلفة وإطاراتها، أجهزة كمبيوتر، غسالات قديمة جداً، مجففات، ثلاجات، تلفزيونات، شاشات أجهزة كمبيوتر ضخمة، لوحات بلازما نموذجية غير مستخدمة، كراس متحركة، أطنان من القناني الزجاجية المسربة من إعادة التدوير، أثاث مكتبي، هياكل سيارات، معارض بضائع، آلات صناعية، غلايات، أجهزة تنقية الهواء، ثريات ومصابيح. من جملة الأشياء المتناثرة أيضاً، إطارات صور، مكان للكراسي والمناضد والأرائك المنزوعة، التي تكدست فوقها أشياء أقل ضخامة أو أكثر صعوبة في إدراجها. نمت في كل مكان شجيرات

طويلة غير مرتبة، وفي الجزء الأبعد من الفناء كان يتصاعد دخان لاذع من الهيكل المعدني الذي كان على هيئة مدخنة ومحرقة بدائية. على الجدار المتاخم للمدرسة، كان يُرى عدد لا يحصى من بالات القمامة. وبدلاً من أن يعرض الماس على شبكة سلكية، كانت تعلق أعداد لا تُحصى من الملابس ذات الزغب النسيجي الأبيض، لكي تجف تحت الشمس. كان كل شيء داخل المبنى مليئاً، والجدران نجت بالكاد من وابل الأشياء المتراكمة في كل مكان. تولدت لدى رافائيل صورة سخيفة لمجرفة ميكانيكية عملاقة تُمطِر من السماء على تلك المساحة كل قمامة العالم.

نزلا السلالم. تقدمت ميليساندرا نحو أقرب كتلة، حيث كانت تتجمع هياكل الأسرّة والأفرشة. كان صبيان الفناء يواصلون التدريب، لكنهم تبعوها بنظرات جانبية وسط صراخ المدرب الصيني الذي يدعوهم إلى التركيز وإلا سيفقدون قوتهم.

سار رافائيل إلى جانب كومة هياكل الأسرّة والأفرشة، دون أن يرفع عينيه عن ميليساندرا، التي كانت تقلّب، حائرة، برميلاً مليئاً بإكسسوارات الحمام: أواني الصابون، حمالات لفائف ورق التواليت، ورفوف مناشف. كان درس الصيني على وشك الانتهاء. بأيدٍ أمام الصدور، انحنى الأولاد أمام المعلم، الذي استعاد حالة تاجر الخضروات بعد فترة وجيزة وغادرهم على دراجته.

انفصل خوسيه عن المجموعة وعرض عليهما جولة في المنشآت المجاورة. بعد التخلي عن تحريها الانفرادي، اقتربت ميليساندرا.

– ماذا يفعلون بهذا كله؟ –سألت– ثمة الكثير من الأشياء المفيدة... حتى إن هناك بعض الأشياء التي لم أرها من قبل.

ابتسم رافائيل. كان يفكر أنه إذا كان لدى ميليساندرا عربة سوبر ماركت، فمن الممكن أن تملأ اثنتين أو ثلاثاً أثناء مرورها بين الأكوام.

– هذا منجم ذهب. الاستخراج عسير، لكن ما يتم جمعه ذو قيمة كبيرة. معظم هذه الأجهزة، على سبيل المثال –قال خوسيه مشيراً إلى ركام الغسالات والأجهزة الأخرى– لا تزال تعمل بشكل مثالي.

– لكن الناس في ثينيريا لا يستخدمون هذه الماكينات لغسل الملابس... – قالت ميليساندرا.

– مؤكد أنهم يستخدمونها –قال خوسيه بشيء من الاستياء– تصلنا طلبات كثيرة، وخاصة على تلك التي تعمل بالطاقة الشمسية. العائلات تفضلها. يجب أن تجربي واحـدة. بيدرو يمكنه أن يحملها لك إلى المزرعة – أضاف.

كان رافائيل مستمتعاً بمراقبة ميليساندرا. فتحت الغسالة التي كانت تتكئ عليها وتفحصت دواخلها. بدا أن خوسيه قام ببيع مادة اليوم، دون أن يبذل الكثير من الجهد.

– اشرح لي يا رافائيل، لماذا يضعون هذه الآلات في القمامة إذا كانت ما تزال تعمل؟ – سألت ميليساندرا.

– لأن الشركات المصنعة تقدم في كل عام آلات أكثر تطوراً، مع إضافات جديدة، والناس مغرمون بالجديد، وبالأحدث ...

– يا له من إهدار لا يصدق! يا لها من خطيئة! – قالت ميليساندرا.

حرّك رافائيل كتفيه دلالة على الخضوع.

– لو لم يكن الناس على استعداد لاستبدال القديم بالجديد، ما كان لدى الشركات المصنعة أي حافز لإنتاج آلات أفضل. كل شيء له إيجابيات وسلبيات – أوضح.

– أفضل بالنسبة لنا –تدخل خوسيه– لولا هذه السلع من الدرجة الثانية، مثلما تقول إنغراثيا، لكنا قد عدنا إلى عصر الكهوف...

أشار إليهما أن يتبعاه. لم يكن الحديث ليحتل مرتبة مهمة ضمن قائمة أولوياته. كانت مناطق الفرز تتوزع في جميع أنحاء المبنى وفي الأماكن التي كانت سابقاً صفوف دراسة. أما الأشياء الضخمة، فكانت تبقى في الفناء. كانت بالات القمامة المضغوطة تُنقل إلى هذه الحجرات للمعالجة. ما إن اقتربوا من صف الحجرات، حتى اشتدت الرائحة الكريهة. بدا أن خوسيه لم يشعر بها، لكن ميليساندرا ورافائيل تمكنا بالكاد من إخفاء نفورهما. في الحجرة الأولى، الأكثر رائحة، كانت تُفتح البالات لإزالة القمامة

القابلة للتحلل. ثم يتم نقلها إلى الحجرة التالية حيث تبدأ مجموعة أخرى من الأولاد الجالسين على مقاعد صغيرة بسيقان منفرجة، بفحصها ببطء شديد واستخراج الأشياء منها. ما يتم استعادته، يُلقى في سلال كبيرة من القش تُمرر بعد ذلك إلى الحجرة الثالثة لتصنيفها من جديد. تقوم إنغراثيا في نهاية اليوم، بمراجعة العمل وتوجيههم بما يجب الاحتفاظ به أو إلقاؤه في المحرقة.

كان المراهقون، الذين من الصعب حساب أعدادهم، يتنقلون بحيوية كبيرة بين حجرة وأخرى، في أجواء من الأوراق المكبوسة، والعلب المسحوقة والوبر النتن. كان البعض يضعون أقنعة على أنوفهم وأفواههم، فيما كان البعض الآخر يربطون ببساطة منديلًا على طراز قطاع الطرق القدامى في الغرب.

إنه عمل قذر، قال خوسيه، لكن ما إن تتم إزالة القمامة، حتى تبدأ المفاجآت والكنوز بالظهور. قد لا تتخيلون الأشياء التي يُعثر عليها.

قادهما إلى نهاية الممر، إلى غرفتين مغلقتين بأقفال سميكة. كان يعلق المفاتيح في حزمة يربطها عند خصره.

حين دخلوا، شاهدوا رفوفاً من جميع الأحجام مليئة بالكتب المرتبة إلى العمق في صفين وحتى ثلاثة. كانت النوافذ مغلقة والضوء الوحيد الموجود يأتي من الباب الموارب. دخلوا بصمت، على رؤوس أصابعهم تقريباً. أغلق خوسيه الباب وأشعل مصباح نيون معلقاً بالحائط.

– هذه مكتبتنا – أعلن. كانت بشرته تميل إلى الاخضرار بسبب الضوء الشاحب. لدينا إصدارات تعود إلى عام 1980. إنها من أفكار البروفيسور موريس.

مشت ميليساندرا بين الرفوف. استلت عدة نماذج وفتحتها بعناية، وكذلك فعل رافائيل. لم يكن قد اقتنى كتباً ورقية من قبل قط، لأنه دأب على زيارة المكتبات الإلكترونية، ولم يعد ير من الضروري أن يقوم بالبحث عن طريقة أخرى. كانوا يصلون إلى الكتب عن طريق العناوين الرئيسية التي تحمل رقماً تسلسلياً إلكترونياً، وهي مصفوفة بطريقة تجعل عرض نصوصها

على الحائط ممكنة -من أجل قراءتها أثناء الاستحمام، على سبيل المثال- أو تحويلها إلى صوت، إذا كان القارئ مشغولاً بنشاط آخر كالقيادة أو الطبخ. لم يفكروا من قبل قط بالمساحة المطلوبة لتخزين الكتب والتركيز الحصري الذي تتطلبه قراءتها، ولا بإهدار الورق. بدأ يتخيل عدد النسخ التي تمت طباعتها، والأشجار المقطوعة. العناوين الرئيسية لا تتطلب ورقة ولا مساحة. حين أخذ رافائيل النسخ القليلة الأولى، وجد نفسه يبحث عن زر التحكم لتكبير الصفحة من أجل رؤيتها بشكل أفضل. سخر بصمت من انعكاسه التلقائي. كان يتنقل بين الرفوف ملامساً كعب الكتب، عاملاً على فتح الصفحات التي صدرت من مطابع مختلفة. من المؤكد أن تمرير يده عبر الصفحات كان أكثر إثارة. واعتقد أن أي حافظ للكتب سيُصاب بالجنون هنا. تذكر الرجل العجوز الذي كان يظهر يوماً بعد آخر فجأة على «محطة العالم» مطالباً بإعادة الكتاب وحمايته كنوع من الأنواع المهددة بالانقراض. تخيل عينيه الحمراوين المتعبتين تلتمعان في تلك الغرفة.

فكرت ميليساندرا في جدها. ربما ستتمكن هنا من العثور على كتب له باللغات التي كان يجيدها: الإسبانية، أو حتى الفرنسية أو الإيطالية. لاحظت أن معظم هذه النسخ مؤرخة قبل اعتماد اللغة الإنكليزية كلغة رسمية عالمية.

– ألا تعرف، يا خوسيه، إن كانت المكتبة تحتوي على كتب باللغة الإسبانية؟ – سألت ميليساندرا.

– أخذناها جميعاً إلى إنغراثيا. إنها تحتفظ بها في شقتها.

– ومن يقرأ هذه الكتب؟ – سأل رافائيل.

– يروق لي أن آتي إلى هنا لأشم رائحة الكتب -قال خوسيه وهو يقترب من أحد الرفوف، يأخذ واحداً، ويدس أنفه في المجلد المفتوح- أحب رائحته بالفعل. إنها تهدئني. أحياناً أتمنى أن أتصفحه، ولكن في الحقيقة، أن الوقت المخصص للقراءة شحيح.

أخذت ميليساندرا كتاباً. أسدلت جفنيها حين قربت وجهها كثيراً من صفحاته. كانت تحب أن تشم رائحة الكتب أيضاً. أما الآن فقد نقلتها الرائحة إلى النهر، إلى طفولتها، إلى مكتب جدها حين كانت تقاطعه كثيراً

أثناء الكتابة لتتحدث إليه، وتحاوره مثل فتاة بالغة وليس كطفلة لا تفقه كثيراً، وتظل مبهورة حين تستمع إلى كلماته.

– نحتفظ هنا بالصور العائلية أيضاً – تابع خوسيه، مشيراً إلى خزانة عريضة بأدراج مليئة بالصور.

– صور أي عائلة؟ – سأل رافائيل.

– لا نعرف. الصور التي نحبها. تأتي في القمامة. هناك مَن يقضون ساعات وساعات في تصفحها، أما أنا فأحب أن أرى الملابس التي يرتديها الناس، وأتخيل حياتهم. إنها مسلية للغاية. هناك مناظر طبيعية جميلة جداً ومدن رائعة.

اقتربت ميليساندرا من خوسيه لإلقاء نظرة على الصور. انحنى رافائيل على زاوية الخزانة. كان يراقبهما متظاهراً بأنه مشغول ببعض الكتب. مررت ميليساندرا الصور بين يديها ببطء، كأنها تطل على كوكب مجهول. ما الذي تفكر به، تساءل رافائيل، وهو يلمح صوراً سريعة التحميض لعوائل مجتمعة، كلاب، أطفال بدينين يزحفون، آزواج أمام مناظر طبيعية شاسعة من غابة الصنوبر، وامرأة تعبر الشارع في نيويورك. انحنى ومرر أصابعه على الصور المجعدة الباهتة بزواياها المكسورة، الباهتة، القديمة والمتهالكة منها، والحديثة. لم يشك أي من الأشخاص الموجودين في الصور، أنهم سيشاركون حميمية حفلات زفافهم، وأعياد ميلادهم وعطلاتهم مع هؤلاء الشباب من سكان القمامة. شعَر أن صدره يضيق. كانت مجرد مكتبة تحتوي على كتب لا يقرأها أحد، وفكرة الاحتفاظ بهذه الصور القديمة سخيفة. نعم سخيفة، ولكنها جميلة وحزينة بلطف. خيم عليهم الصمت لفترة طويلة حتى كسره خوسيه بقوله إن الوقت قد حان لمقابلة إنغراثيا. عند الساعة الحادية عشرة، بدأ السوق يفتح، ثم ما عاد لأحد ما، الوقت الكافي للاهتمام بهم.

الفصل التاسع عشر

كان خوسيه يسير بخطى سريعة. وصلوا إلى الجناح المقابل للمبنى، حيث تقطن إنغراثيا. بدأ الازدحام يخف شيئاً فشيئاً. كانت المواد قد خضعت إلى تصنيف غاية في الصرامة. ثمة صف من الثريات مختلفة الأنواع يتدلى من السقف، والأثاث المتضرر بالكاد يصطف بين الحائط والأعمدة. كان على أحد الرفوف الطويلة ساعات، زينة، زجاجات، مزهريات، صور بإطارات مذهبة، وسائد، تماثيل بوذا، راقصات، أسود، نسخ من لوحات غير أصلية، صور لأمواج ومناظر طبيعية للخريف. كانت عينا ميليساندرا تقفزان من كومة أشياء إلى أخرى. فكرت أثناء توقفها المؤقت أنه من المستحيل بالنسبة لها أن تصف ذلك كله في الرسالة الذهنية التي نوت كتابتها لجدها.

لمح رافائيل الذي توقف عند المدخل، بريق ذراع موريس. بعد فترة وجيزة، عبروا عتبة الصف الدراسي الذي تحول إلى مكتب.

- ها هم! - هتفت إنغراثيا بصوت عالٍ، وهي تلتفت بنظرة فضولية.

نهضت المرأة مستمتعة بالتأثير الذي مارسته عليهم.

«أخت غوليفر في بلاد الأقزام»، فكر رافائيل، ورفع رأسه مبتسماً للمرأة الضخمة التي مدت يدها الطويلة من خلف المكتب.

- أنا أعرفك -قالت إنغراثيا وهي تتجه إلى ميليساندرا- رغم أننا لم نلتق قط.

دعتهم للذهاب إلى الغرفة. كانت أشبه بخيمة بدوية في الصحراء أو كأنها مجلس الخليفة في «ألف ليلة وليلة». كانت هناك كراس بذراعين مغطاة بنسيج حريري مُوشّى باهت، أرائك، مقاعد مريحة، طاولات برونزية بأرجل

فيل، مصابيح بقبعات تيفاني وآرته ديكو، لوحات، ثريات مذهبة وأخرى من الكريستال معلقة في السقف. انتصب في وسط الغرفة سرير بأعمدة برونزية ومظلة تتدلى منها أقمشة ذات نقوش عربية، أما أصص النباتات فكانت منتشرة في كل مكان، وثمة ببغاء يتجول بين الأثاث.

اتكأت إنغراثيا على إحدى الأرائك.

– هذه الغرفة رائعة – هتفت ميليساندرا.

– حسنٌ، العيش في مكان مثل هذا، يمكن أن يؤدي إلى مزالق سلبية –قالت إنغراثيا بمرح– على المرء أن يعرف كيف يعزل نفسه عن الكل، ويخلق الأجواء المناسبة ليظل على مسافة بعيدة.

كانت إنغراثيا تمتلك عطايا الأرض. إنسانة عملية، لم تُول الوقار كبير اهتمام. فكرت ميليساندرا أن أكثر من هالة من الشعور بالوحدة كانت تحيط بها وشعور قديم بالوجع ترفض مشاركته لأن إنغراثيا لم تكن كئيبة أو انطوائية. كانت تضحك من القلب، لطيفة وسخية بهداياها. في وقت قصير، شعرتْ كأنها ورافائيل يعرفان بعضهما بعضاً من قبل، أو أنها والدة أو أخت لشخص قريب عليها. قدمت لهم عصائر فاكهة، خبزاً، بسكويت، تيناً كبير الحجم وحلويات.

– إذا أردتم أن تحيطوا علماً بما يجري في ثينيريا وما وراءها، عليكم البقاء معي لأيام عديدة –قالت– وإلاّ فلن تستطيعوا المضي أكثر. الوصول إلى واسلالا، مسألة تتطلب قدرة على تفسير الألغاز. هذه هي نظريتي، لكن ليس لدي ما يدعمها بالطبع. لم أصل إلى واسلالا قط، ولم أحاول حتى. لكني مثل أي شخص في فاغواس، نعم كنتُ دائبة التفكير في كيفية القيام بذلك.

قالت إن الناس أمضوا سنوات في التخطيط لهذه الرحلات الاستكشافية الخيالية. كانت تسلية متوارثة إلى الأبناء عن الآباء، ولعبة بدأها الأطفال منذ الصغر. كان العثور على الجنة المفقودة، والزمن الضائع، وكل ما فقدته البشرية حتى قبل أن تتعلم تسميتها، لعبة تخمين قديمة.

– البحث عن المدينة الفاضلة، تسلية قديمة –قالت– لكن اللعب شيء والجد شيء آخر.

– إذن أنتِ لا تؤمنين بواسلالا – تدخل رافائيل.

– بالطبع أؤمن –أجابت وهي تُشعل سيجارتها وتنفث الدخان في حلقات– لكني لست بحاجة إلى أن أرى حتى أؤمن. لا يهمني وجودها من عدمه. أنا متوافقة مع اللعبة.

– لكن لماذا؟ –سألت ميليساندرا– لمَ هذا كله إن كان هناك دليل على وجودها؟

– ها نحن ندخل في التفلسف –ابتسمت إنغراثيا– لو كنت حفيدة جدك، لكنتُ قد فعلت بما تقومين بفعله الآن ربما. لكن في حالتي، أفتقرُ إلى الوقت.أنا أفضّل أن أساعدكما.

لمس رافائيل شيئاً صلباً تحت الأريكة حيث كان جالساً، شيئًا انزلق مدفوعاً من حذائه. انحنى ليرى ما يدور حوله. تنبهت إنغراثيا لحركته.

– إنها كتب –قالت– تحت كل الأثاث. لا أعرف أين سأضعها بعد الآن. تلك التي أقرأها، تقيم تحت سريري. يمكنك إخراجها من هناك، إن كان أحدها يروق لك.

الفصل العشرون

عند الظهيرة، تحولت أراضي المبنى إلى سوق عملاق تؤمه مجاميع من المتسوقين من جميع الأوصاف والأعمار يتجولون بين أكوام الأشياء، وهم يدفعون عربات السوبر ماركت القديمة التي نقلوا فيها أطفالهم أو ما يريدون استبداله. كانت أصوات المساومين العالية وصراخ الأطفال أو بكاؤهم، تمتزج مع نقنقة الدجاج، وقباع الخنازير، وخوار العجول. كانت الرائحة الكريهة للقمامة الجافة تختلط مع رائحة الأعشاب والخضروات والزهور التي جلبها العملاء من هنا وهناك في انتظار اللحظة المناسبة لإكمال المقايضة. جلست إنغراثيا خلف طاولة خشبية عريضة مع خوسيه والعديد من المساعدين الآخرين، توازن في ذهنها بين ما تم عرضه من جهة وما تم الحصول عليه من الجهة الأخرى. لم تكن الطاولة مركزاً للصفقات التي تعقد بسرعة كبيرة من خلال طلبات التخفيض والجدال فحسب، بل كانت محطة تصل من خلالها إلى إنغراثيا أخبار معارفها، أو أفعال عائلة إسبادا الشنيعة أو قصص الموتى.

لم يمض وقت طويل حتى رأى رافائيل في الممر كميات مكدسة من الخضروات، البيض، القماش، الحيوانات، جرار الحليب، الجبن، أواني الزبدة، التورتيلا، الخبز، أصنافاً من الحلويات، سلال البرتقال والمانجو والأفوكادو، كتلاً من الثلج وقناني من المشروبات الغازية.

كان سيبقى هناك طوال اليوم مفتوناً يراقب ويصور هذا السوق الفريد من نوعه، لولا ميليساندرا التي فقدت صبرها لكونهما مقدمين على زيارة ثينيريا على دراجة خوسيه النارية.

كان الصبي يتفاخر بدراجته النارية المزخرفة بإتقان، ويحافظ على بريقها وتزييتها بخلايا كهربائية مشحونة بالكامل.

– نظامها التوجيهي يعمل على أفضل ما يكون – تبجح.

حدق رافائيل في الدراجة النارية مندهشاً ومرر يده عليها بوقار. كانت قطعة أثرية حقيقية تتجلى في جمال طلاء الكروم اللامع. سألت ميليساندرا عن إمكانية قيادتها.

– الطريق عكر – حذر خوسيه وهو ينظر إلى رافائيل.

– أثق بميليساندرا ثقة كاملة – ابتسم، بعد أن استقر في المقعد الخلفي. رفعت ساقها بخفة وجلست خلف عجلة القيادة.

دارا حول الدوار عدة مرات أمام خوسيه الذي كان يراقبهما، ثم اجتازا البوابة الحديدية باتجاه الطريق الترابي المؤدي إلى ثينيريا.

أبدى رافائيل استعداده للاستمتاع بهذه التجربة، منذ أول لحظة طوّق فيها خصر ميليساندرا النحيف والمشدود، بكلتا يديه. لم يكن في حركاتها ما يثير الشك بقيادتها، بل على العكس، كانت تتكئ عليه من حين إلى آخر حين تشتد الريح في وجهها، مرتاحة للغاية.

تخيل رافائيل أنهما في عالم مقلوب رأساً على عقب، حين رفع كاميرته لتصوير البحيرة والأكواخ على جانبي الطريق باتجاه ثينيريا. لم تعد هذه الشوارع البائسة مزروعة، حتى في ذاكرة العالم المتقدم. كانت وسائل الإعلام تركز اهتمامها فقط على الأوبئة والكوارث في هذه المناطق المتضررة، هذه «الدول المنتجة للأوكسجين»، كما يسمونها الآن. وصار الشعار السائد في العالم «كل أمة لنفسها». لم يعد السفر ضرورياً حتى بالنسبة للباحثين عن التجارب المثيرة. مع الواقعية الافتراضية، كانوا يقومون برحلات خيالية معقّمة ومثالية دون أخطار. لكن تسربت بالطبع من خلال بعض الثغرات، حقيقة هذه التجارة غير المشروعة: المخدرات، زراعة الأعضاء والتجارب الجينية. كانت الشائعات عن استخدام المختبرات لنماذج بشرية، وهم أشخاص لن يسأل عن مصيرهم أحد، قد جددت اهتمام وسائل الإعلام، إذ قامت بإرسال المراسلين إلى هنا للتحري عن هذا الموضوع. بدأ عمله

بهدوء، مركّزاً على أولئك الناس. توقف عن التصوير. التصق بميليساندرا وطبع قبلة على مؤخرة رقبتها. شمت رائحة الكولونيا الرجالية. ابتسمت. كانت قد تفقدت أغراضه في الحمام بفضول شديد. أزالت الشعر عن ساقيها بالموسى واستخدمت الشامبو الخاص به. بدت رائحته طيبة بالنسبة لميليساندرا، وكذلك رائحة جلده الممزوجة بتلك الموجودة في البحيرة وطحالبها، مما ساعد على تبديد رائحة القمامة النتنة من أنفها.

انطلقت دافعات الدراجة النارية مثيرة الغبار أثناء مرورها، ولكن ما يزال بالإمكان رؤية نهاية الطريق الترابي وبداية الرصيف. كانت الثانية بعد الظهر حين دخلا ثينيريا. توقفت الدراجة النارية على الأسفلت. نفضا الغبار عن نفسيهما، واستعدا للتسلل إلى المدينة بعد أن ارتاحا من إرهاق الأرض الوعرة.

كان النمط الاستعماري الإسباني واضحاً على المباني الأنيقة التي يمران بجانبها، بيد أن واجهات المنازل هنا تختلف عما هي عليه في لاس لونيس حيث الرقع المصنوعة من بقايا آلات معدنية غريبة الأشكال. جدران واجهات المنازل هنا والشوارع، ملطخة بالكتابات، والإعلانات تغطي الأرصفة والمزاريب وحتى التبليط لدرجة أن تلك الملامح المعمارية كانت تظهر وتختفي تاركة في العين إحساساً مبهماً بأنها ترى خيالات لحظية وسراب مدينة داخل أخرى. كانت هناك شعارات وطنية، وإعلان عن منتوجات، وأسماء علم، ورسائل حب، واقتباسات تجارية ودينية، وإعلانات جماعية عن الموتى، وشخص باع كل أثاثه مقابل جرعة من البنسلين، وتمجيد وإدانات لعائلة إسبادا، ورسائل بيئية مكتوبة بعضها فوق بعض على الجدران كأنها قصة، ومجموعة من الصور التي لا علاقة لبعضها ببعض، تروي تاريخها التلقائي عبر إطاراتها وزواياها. واصلا تقدمهما في الشارع المستقيم ذاته بحثاً عن مركز المدينة الذي شعرا به عندما بدأت ملامح المنازل تأخذ شكلاً مستديراً، والبقع أصبحت أكثر غرابة، والأبواب أوسع، والأرصفة أضيق ومتآكلة أكثر، والنباتات على الشرفات أقل نضارة. وأخذت تفوح في الجو رائحة الازدحام والخبز في الفرن أو المُباع في مكان ما. بعد أن أمضيا أكثر من ساعة تقريباً، لم يصادفا فيها سوى امرأتين عجوزين

تتمايلان في ظل المدخل، وبائع أربطة أحذية، وكاهن يسير بخطى سريعة، ورجل يحمل طفلاً، ظهرت أمامهم فجأة مجموعة من النساء، وبعض الباعة المتجولين، ورجال يحملون حقائب ظهر صغيرة ومحفظات أوراق.

فقدت المدينة رونقها الغافي في الشوارع المظللة والأشجار على الأرصفة. كانت الكتابة على الجدران وفيرة وملونة بألوان غير متناسقة لدرجة أصبحت معها غير مقروءة تماماً وأضفت على الواجهات سيماء عصرية، وكان أحد سكان «بولوك» الأصليين قد نكل بها.

كانت آثار الحرب واضحة في كل مكان. يبدو أن ثينيريا كانت قد بُنيت، مثل معابد المايا، على بقايا متراكمة تنبجس من ضواحيها على حين غرة: هناك شخص ما ابتدع نافذة على هيئة قنبلة وغطاها بستائر، وهنا جدار نصف متهدم كان بمنزلة خط فاصل بين منزلين. في نهاية الفناء، كان الأطفال يلعبون في موضع، لابد أنه كان مُصلى، وعلى العديد من الجدران والأرصفة، تتناثر صلبان تحمل نفس الأسماء المكتوبة على نحو بدائي تقريباً مثبتة فوق عارضة أفقية وأكاليل زهور ذابلة أو ورقية. كانت قد أُصلحت العديد من المنازل بألواح من الزنك أو قطع من أبدان السيارات تُسد بها الثقوب، بينما أظهرت منازل أخرى فتحاتها دون خجل، بحيث كان بمقدور المارة أن يشاهدوا العوائل وهم يمارسون حياتهم داخل المنزل، غير مبالين إطلاقاً بفضول المبحلقين.

جميع الشوارع، وحيثما تدور نحو اليسار، كانت تقود دائماً إلى المتنزه العام. تقدما في ذلك الاتجاه وعثرا أخيراً في الزقاق الضيق على مركبة أخرى. حدق رافائيل بذهول في العربة، التي لم تكن سوى سيارة قديمة جداً مبتورة لغاية المحرك يجرها حصان. كانت لافتة تنتصب فوق باب هيكل السيارة المطلية باللون الأصفر، مكتوب عليها: سيارة للأجرة.

وانتهى بهما المطاف في نهاية الأمر في الساحة المركزية والمتنزه الذي يتجمع فيه الناس. كانت المنطقة تمتلئ بأشجار الغار الهندية الضخمة، والغواناكاستا، والتشيمالات الأمريكية، والمالينشا الطويلة وبالشرفات البارزة للمباني التي كانت تزدحم بأغصان العديد من الأشجار الصلبة

حتى ليخيل إلى المرء أنها تطفو وسط مساحات خضراء مثل بيوت الطيور العملاقة أو أكشاك لا وزن لها. من مكان ما، كانت تتردد من آلة موسيقية حقيقية وأخرى إلكترونية، أصداء لحن حديث للغاية، يقاطعه النسيم وحفيف الشجر. اصطفت عدد من سيارات الأجرة الغريبة بالقرب من كشك أصفر. كان الناس يتجولون متنقلين في زمن لا يتوفر إلاّ هنا. كانت المساحات الخضراء وفيرة لدرجة من المستحيل تحديد النقطة الدقيقة التي ينتهي فيها المتنزه وتبدأ المباني المحيطة به، التي لم يكن بعضها أكثر من أنقاض نمت بداخلها نباتات الجهنمية المتسلقة.

أوقفت ميليساندرا ورافائيل الدراجة النارية وسارا ببطء بين المقاعد الخرسانية المطلية باللون الأزرق المتقشر، حيث كان كبار السن يجلسون عليها مقتربين بعضهم من بعض، يتحدثون أو يقرؤون أو يحيكون أو ببساطة يراقبون الآخرين، فيما تلعب مجموعات من الشباب والشابات الورق والنرد وحتى الشطرنج على منصات مرتفعة منتشرة في جميع أنحاء المتنزه. أما المنطقة الأكثر ازدحاماً، فكانت مخصصة لألعاب الحظ: الروليت، وماكينات القمار، وطاولات الزهر، والنرد، واللودو، والاحتكار، والرخام، والألعاب الإلكترونية. كانت النساء العاهرات من مختلف الأعمار، يسرن بين اللاعبين، الذين يراهنون بدورهم عليهن بوضع ملابس نسائية على رقعة الشطرنج. أما الأطفال والمراهقون فكانوا يطاردون بعضهم بعضاً أو يلعبون بالأغصان المنخفضة للأشجار. وفي أرجاء المتنزه ينتشر باعة الماء البارد، ومشروب عسل التمر الهندي. بالقرب من وسط المتنزه، في الميدان الذي يشهد أياماً أفضل، ثمة رجل يُعلن عن ببغاوات تقرأ الحظ وإلى جانبه قفص بدائي تزدحم بداخله البيغاوات تغني وتقفز من طرف لآخر دون توقف.

كان مشهد المتنزه بهذا الخليط من الترفيه والرذيلة أكثر خدشاً للمشاعر بسبب وجود عدد غير متناسب من المعوقين الذين يتشمسون أو يتنقلون من هنا إلى هناك على كراس متحركة بدائية.

كان رافائيل أول من رأى ماكلوفيو، جالساً تحت ظل شجرة، مثل معلم محاط بتلاميذ. حين لمحهما، نهض، مُبعداً عنه الأولاد بإشارة شخص يزيل الحشرات المزعجة من طية صدر السترة.

– وأخيراً خرجا من بطن الحوت! –صرخ واقترب مبتسماً– لقد قلت مع نفسي إنهما سوف يخرجان إن آجلاً أم عاجلاً ليتنشقا هواءً نقياً. ما رأيكما بثينيريا؟ مدينة كبيرة، أليس كذلك؟ مليئة بالتاريخ. لسوء الحظ، تزداد الرطوبة والحرارة في كل عام... اسمحا لي أن أدعوكما لتناول مشروب في فندق أوروبا... إنه هنا، قريب جداً.

بعد وقت قصير، كان الثلاثة في شرفة الفندق يتأملون عبر أغصان ورؤوس الأشجار، الزحام في المتنزه والرجل مع الببغاوات التي تقرأ الطالع للزبائن.

– صاحب الأنف الكبير والشعر الطويل هو رسام –قال ماكلوفيو مشيراً إلى الأسفل، إلى العميل الدائم لطيور قراءة الطالع– يستيقظ من سكره الليلي ظهراً، وأول شيء يفعله قبل الاستحمام هو القدوم لقراءة طالعه من الببغاوات.

– لم اسمع قط عن طيور تقرأ الطالع – علّق رافائيل مستمتعاً.

– هنا يكثر السحرة والعرافون يا رفيقي –قال ماكلوفيو– هنا، بالسحر فقط يمكن أن يُتكهن بالمستقبل.

– هل المتنزه مزدحم جداً دائماً؟ – سأل رافائيل.

– المتنزه هو مركز الرهانات والمقامرة. اعتبر سكان ثينيريا، الرهانات أحد فروع الفن. بالإضافة إلى مصارعة الديوك الكلاسيكية، يُراهَن على تخمين جنس الأطفال قبل الولادة، مدة المرض، عدد جراء الكلاب أو صغار القط، أخطاء المرأة العمياء التي ستفوز أو تخسر في لعبة الروليت، عدد قطرات الماء التي يمتلئ بها كوب، ومَن سيعرف الأشخاص الذين يحضرون لقاءات العصابات. رهانات لا تنتهي أبداً. يراهنون على المحاصيل، وعلى الدجاج والبيض والكلاب والقطط والأثاث والزوجات والأزواج وحتى الأبناء، يا رفيقي.

– وماذا تحصل الدولة مقابل الأوكسجين؟ سأل رافائيل.

– ماكلوفيو يعرف أفضل منا جميعاً أن عائلة إسبادا تطرحه في السوق السوداء. الناس يتقاتلون، من ضمن الأمور الأخرى، لأجل إرضائهم،

ويتنافسون على المتاجرة بالأشياء التي يجب أن تكون ملكاً لنا جميعاً – قالت ميليساندرا.

– عائلة إسبادا تفعل بهذه البضائع ما تفعله صديقتك إنغراثيا بالقمامة، يا رفيقي. لكل شخص احتكاره. لا تتهم أحدهم وتستثني الآخر.

– يا لمقارناتك! –قالت ميليساندرا– عائلة إسبادا رجال عصابات. لا أحد يقتل نفسه من أجل قمامة إنغراثيا. عائلة إسبادا لا تتاجر بالقمامة، بل تتاجر بأشياء جديدة، بالأدوية، بقطع الغيار، باللقاحات، بالأسمدة، بالبذور... تجبر الناس على أن يكونوا رجال شرطتها حلفاءها غير المشروطين، تدفع لهم الجزية، وترميهم في القتال ...

– توقفي، توقفي يا امرأة –قال ماكلوفيو وهو يشير بيديه– في مزرعتك يكتشفون فقط ما يريدون اكتشافه. من دون عائلة إسبادا، ستعم الفوضى في هذا البلد. أقول هذا ليس لكوني شريكاً لها وأدافع عن كل ما تفعله، لكن أولئك الذين معها، على قلتهم، لم يشتكوا يوماً. ويقبضون على الأقل عن ولائهم جيداً. أخبريني مَن هو القوي الذي لا يعامل حلفاءه معاملة حسنة وأعداءه معاملة سيئة؟

– تستخدم عائلة إسبادا لغة قومية لدعم مصالحها وجعل مؤامراتها تبدو كأنها حملة شرف صليبية – قالت ميليساندرا بعصبية.

– وهل هي المسؤولة أيضاً عن تهريب المخدرات؟ – سأل رافائيل.

– بالطبع – صرحت ميليساندرا بشكل قاطع.

– لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر. أنا أبيعهم الأسلحة فقط، ولست محاميهم، لكن مثلما عرضتُ على رافائيل، أستطيع أن أجعلكم تقابلونهم –قال ماكلوفيو– وساعتها سيكون بإمكانكم تكوين رأي شخصي عنهم. علاوة على ذلك، فهم قادرون على مساعدتكم في الوصول إلى واسلالا – أضاف، وهو ينظر إلى رافائيل دون أن يرمش له جفن.

– تبدو لي فكرة رائعة عظيمة، ماكلوفيو –قال رافائيل– لن يكتمل تقريري من دون عائلة إسبادا.

– لا أعتقد أنهم قادرون على مساعدتنا في الوصول إلى واسلالا –قالت ميليساندرا مستبعدة الاقتراح– يُعد أنطونيو إسبادا واحداً من أكبر منتقديها.

- هيا يا امرأة -أصر ماكلوفيو- إنها فرصة جيدة أقدمها لك. ألا يقولون إنك يجب أن تعرف عدوك جيداً في كل حرب؟

نظرت ميليساندرا إلى المتنزه. الفكرة جذبتها ونفرتها في الوقت ذاته.

- هيا يا ميليساندرا -أصر رافائيل- لن نخسر شيئاً.

- لا تقم بالتصوير أو إخراج أي جهاز - حذر ماكلوفيو، رافائيل.

الفصل الحادي والعشرون

كانت ملامح داميان إسبادا بشوشة، ينظر إلى ما حوله مثل أي شخص يرى من علٍ، لدرجة من الصعب أن تقرر في حضرته ما إذا كان قديساً أم مدمناً اختلط عليه كبرياؤه المتطرف جداً بالتواضع. كان داميان إسبادا نحيفاً وقصير القامة بملامح حادة وشارب أشعث وصوت خشن. لكي تلتقط ما يقوله، عليك أن تكون معه بكامل أحاسيسك. شفتاه الناعمتان بالكاد تتحركان حين يتكلم. كان حراسه الشخصيون يستمعون إليه بلهفة ويؤمنون بكلامه إيماناً كلياً بتعصب. لاحظ رافائيل بفضول التفاعل الصامت بين الرئيس والمرؤوسين. كان إسبادا يتحدث كأنه في ساحة، دون أن يوجه نظره إلى محاوريه، لأنه يعي تماماً إعجاب أتباعه به. بدا أن هؤلاء الذين يمتلكون روحاً عدائية، هم الوقود الذي يمنح كلماته قوة. لابد أنها كانت عادة وتشوهاً مهنياً، فكر رافائيل. حتى في وحدته، سيُخيل إليه أن الجمهور يهتف بحياته.

للوصول إلى هناك، كان عليهم المرور عبر نقاط التفتيش والالتزام بأنظمة الأمن المُرهِقة والمعقدة. كانت أراضي عائلة إسبادا عبارة عن قاعدة عسكرية قديمة تضم زنزانات وثكنات فوضوية، يتم الوصول إليها عبر طريق فرعي. من هناك تبدأ الأراضي المحدولة التي حين تنحرف عنها، لا تصعد بك نحو قمة التل فحسب، ولكن نحو عالم القرون الوسطى حيث الجنود في حركة دائبة كأنهم في انتظار حرب. فقط في المنطقة الأقرب إلى سكن ومكاتب الأخوين، تصبح الأجواء يقظة وحذرة: يستعيد الجنود هيئاتهم القتالية ويسود الانضباط والاحترام، كما لو كان عالماً داخل آخر.

– الطريقة الوحيدة التي يمكن أن نتصور بها تجارة القمامة، هي التي

تصب في خدمة الجميع، إذا لم يتم الاتجار بها. لا يكفي أن يقوموا بإرسالها إلينا فحسب... بل أتساءل، هل يجعلون منها تجارة؟ هل هي طريقة للثراء على حساب بؤس الآخرين؟ لا يمكن أن نوافق على هذا الأمر. لقد كرسنا حياتنا للنضال من أجل كرامة الشعب -كان داميان إسبادا يردد كلماته دون أن ينظر إليهم- كيف يمكن تحقيق ذلك بوجود شخص يتقبل أن يتدخلوا في قرار كيفية استثمارنا لمواردنا الطبيعية بينما يستخدموننا، من ناحية أخرى، كعمال نفايات ويحرموننا من الحق في الوجود؟

- لكنكم لا تفعلون ذلك من أجل الوجود فحسب، بل من أجل مصالح شخصية أيضاً - قال رافائيل.

- نحن خبراء في الفتات -ابتسم إسبادا- الفقر يغذي الإبداع.

- وكذلك انتفاء الشكوك. أنا لا أقصدكم بكلامي -ابتسم رافائيل بأدب- ولكن هناك حديث عن دول مثل فاغواس متخصصة في الاتجار غير المشروع... الأعضاء البشرية، والمخدرات المتحولة.

- مجرد كلام ودعاية ومبررات لمواصلة التدخل ...

أشعل داميان إسبادا سيجارة ورفع ساقيه فوق المكتب المشيد بعبقرية على هيئة جناح طائرة مثبت على أرجل أنبوبة صلبة مطلية بالنيكل. كان وجهه ذو الزوايا ينعكس على السطح المصقول بشكل ناصع. بدت عيناه الثابتة المتسائلة مُتعبة، والعبوس الدائم يضفي على وجهه ملامح قلق مزمن يخلو من أي أثر للدعابة. مرر يده على شعره المجعد الخفيف ثم سحبها على بدلته ذات اللون الأخضر الزيتوني.

كان يتخيل نفسه ثورياً عنيفاً ومثالياً، فكر رافائيل، لكن هيئته المهجورة والمشدودة بالحنين كانت تعاني من مواقف ألهمته الشفقة والكآبة. اعتقد أن من غير المحبذ الإسهاب في الحديث عن المخدرات، على الأقل في هذا اللقاء الأول.

كانت ميليساندرا قد قررت التزام الصمت منذ أن رأت نظرة داميان إسبادا، واقتنعت بأنه لا يسمع سوى صوته. لكنها مع ذلك، لم تستطع كبح جماح نفسها.

- لا أحد يتذكرنا، وأنت ما زلت مصراً على أن الآخرين مسؤولون عن مصائبنا. ليس هناك جندي أجنبي في حروبنا -قالت ميليساندرا وهي تحدق فيه- تلك الأزمنة أصبحت من الماضي.

- يمكننا التعاون بعضنا مع بعض على أقل تقدير، المشاركة، الابتعاد عن الأجانب، وعدم الدفاع عن مصالحهم، كما تفعل صديقتك إنغراثيا. لقد أبقت تجارة القمامة على قيد الحياة.

فكر رافائيل أن داميان يجب أن يعرف أنه يكذب. لا يمكن أن تكون إنغراثيا مقطوعة الصلة مع المؤسسات البيئية. أن يقول إنها مسؤولة عن استمرار هذه التجارة، مغالطة هائلة. «نجاح عائلة إسبادا يكمن في تبسيطها للأمور»، قال موريس ذات يوم. «إنهم بارعون في العثور على الجناة وكبش الفداء وتوجيه مفاسد أتباعهم نحو أهداف محددة جيداً. إنغراثيا واحدة منها». المضحك في الأمر أن هذه الثكنات كانت تؤكد أن الضرورات العملية أكثر أهمية من الأفكار. والأثاث المكتبي الذي تم اختياره بعناية لخلق تأثير عالي، جاء بلا شك من الحاويات. كانت إنغراثيا قد أخبرتهم عن عدد المرات التي نصبت فيها عائلة إسبادا كميناً للحمولات التي كانت تأتي إلى البحيرة عبر المحيط الهادي. وأضافت أنهم كانوا يقيمون الولائم حين يتم تفريغ حاوية مسروقة. اشتهرت بنات داميان إسبادا بأزيائهن الغريبة، المأخوذة من غنائم القمامة التي تمكن الأخوان من الحصول عليها.

- لم نأت إلى هنا للاستماع إلى أحكام عن إنغراثيا - أشارت ميليساندرا.

- أعرف ذلك -اعترف داميان- يؤسفني جداً أن أتطرق إلى صديقتك بعبارات غير لائقة، لكنك ستدركين أن ذلك وثيق الصلة برحلتك إلى واسلالا. طرق تفكيرنا مختلفة وكذلك الحال بالنسبة إلى أسالينا وشبكاتنا. نحن قادرون على تحشيد البلاد جميعها بطريقة فعّالة جداً. ربما يكون السفر عبر فاغواس بدون حماية أمراً محفوفاً بالمخاطر، وأنا واثق بأنك على دراية به. إن شبكات إنغراثيا زهيدة، إذا ما قورنت بشبكاتنا.

– وما هو الثمن؟ –سألت ميليساندرا– أخال أنك لا تجعل شبكاتك متاحة لنا لمجرد أن قلبك طيب.

– أريد دليلاً على أن واسلالا موجودة –قال داميان وهو ينهض متجولاً في أنحاء المكتب– وهذا كل شيء. أدلة دامغة. لا أستخدمها لمصالح معينة، أرجو أن تفهمي ذلك، ولكن لإقناع نفسي. وحتى أكون صادقاً، لقد تخليت حتى عن التفكير في واسلالا منذ أمد طويل. في زمن ما، كنت أؤمن بوجودها بشدة، ولكني أقنعت نفسي بأن شقيقي على حق وأن واسلالا سراب. مع ذلك، هناك شيء ما في أعماقي يصر على التفكير في أن وهماً كهذا، إنما انبجس عن الخيال الجماعي... أحتاج إلى دليل لا يقبل الشك – قال داميان إسبادا مرة ثانية.

– ماذا تقصد؟ –ابتسمت ميليساندرا بسخرية– لا أعرف لماذا يجعلنا ذلك الرجل نفكر به، وفق طقوس خاصة، على أنه طفل عاق وعاجز – هل تريد أن أحضر لك هواء واسلالا في زجاجة؟ أم صوراً؟

– يقال إن لديهم مكتبة –قال داميان– أحضري لي أحد كتبهم.

مسد داميان إسبادا شاربه، ويبدو أنه اعتاد على أن يحك أنفه بين الفينة والأخرى. كانت كلما تقاطع محاورها، أو تمازحه أو تتحدث معه بسخرية، يحيطها الحراس والمستشارون بنظراتهم كأنهم يريدون، في أفضل الأحوال، إسكاتها. نهضت واقفة. قامت بمط بلوزتها ونظرت إلى رافائيل، مشيرة إليه بعينيها بضرورة المغادرة.

– أعتقد أننا لسنا بحاجة إلى مساعدتك –قالت ميليساندرا– لكنني سأحضر لك هذا الكتاب – ابتسمت بملء شفتيها.

– يهمني كثيراً معرفة المزيد عنك –قال رافائيل– وعن تاريخك. هل لي بمقابلة، ربما؟

– ربما –قال داميان إسبادا، وهو ينهض– مؤكد أننا سنلتقي مرة أخرى.

الفصل الثاني والعشرون

كانت غرفة إنغراثيا مليئة بالدخان. وقف موريس أمام النافذة ونظر إلى الفناء. كان الهواء ملوثاً داخل الغرفة وخارجها، لكن رئتيه كانتا آخر اهتماماته. كانت إنغراثيا تدخن مستلقية على الأريكة. من مكانه قرب النافذة، كان يرى شرارة السيجارة في الظلام. المساء في الخارج ما يزال على أوجه، لكن الليل في الداخل خيّم منذ وقت. الأثاث ينضح بالحرارة التي خزنها أثناء النهار. كان يروق لإنغراثيا أن تسترخي في هذا الوقت، ولا فرق لديها إن استلقت على أريكة الداخل أم الخارج، خاصة في الليلتين الماضيتين. كانت تراجع بهدوء، ذكريات اليوم لكي تختار الفضلى التي تستحق الاحتفاظ بها. كان هوس الاختيار إحدى عاداتها المكتسبة في عملها. تناولت هي وموريس طعام الغداء على ضفاف البحيرة، جالسين بين الخس البري المتجمع هناك. كان موريس يحب أن يخترع لحظات، مثل الذهاب في نزهة، حيث يتظاهر بأنهم كائنات طبيعية. كان يتحدث عن ذكرياته، كأنها تعود إلى شخص ثالث ولا تنتمي إليه. قال لها إن القيام بذلك يجنبه البكاء. حين ظنت أنه بطل ذكرياته بكت. بكت رغم أن الذكرى لم تكن ذات طابع حزين، بل بدا لها أن حياته كلها عبارة عن حنين متواصل.

أثناء تناولهما الطعام على ضفة البحيرة، أخبرها أنه كان سينجب طفلاً. كان فكره يزيغ نحو ابنه، حين يرى الأولاد يملؤون القمامة بأذرعهم ووجوههم وأرجلهم وصدورهم الصغيرة. قال إنه يراه في كل شاب يبلغ من العمر أكثر أو أقل من خمسة وعشرين عاماً. كان قد تناقش مع المرأة التي كان من المفترض أن تصبح أماً، لمدة أسبوعين، ليل نهار. كان اسمها راشيل وهي فتاة قوية الوركين عريضتهما. تباحثا في هذا الشأن في مقاهي

برونيكس أثناء ارتشافهما لفناجين القهوة واحداً بعد آخر. كان الشتاء قارص البرد. اعتقدا مراراً وتكراراً أنهما توصلا إلى القرار بشأن مستقبل الثلاثة. خرجا إلى الشارع مرتاحين، وسارا على الرصيف الإسمنتي الذي كان يتدفق منه بخار أبيض، حتى صادفا زوجين يدفعان عربة أطفال. استطاعت راشيل أن تميز الوجه الممتلئ يطل من فتحة القماش الشتوي. قالت: «لا أستطيع». تناولا فنجان قهوة آخر، وعاودا النقاش مرة ثانية في مقهى آخر ورجعا إلى الغرفة المؤقتة. شرعت في البكاء حين رأت نفسها في المرآة ولامست ثدييها الكبيرين، لكنه أقنعها في النهاية. لم يكن يعرف كيف، لكنه رافقها إلى المستشفى في آخر المطاف. تراجعت عند الفجر. كان نائماً في غرفة الانتظار عندما خرجت، شاحبة وصامتة. لمست ذراعه، وقالت إن بإمكانهما الذهاب.

كانت أوراق الخس تتأرجح مع أمواج الضفة وتتقشر على الرمال. كانت إنغراثيا تقضم موزة وتمضغها بمهل، محدقة في البحيرة. وصف موريس الأشياء بدقة. العيادة. الطبيب. مقاهي نيويورك. المنطقة. فناجين القهوة المتتالية. كان يفكر في تكاثر الخلايا، والأشكال التي تأخذ قالبها يوماً إثر يوم، لتهدده بحضور مفاجئ من شأنه أن يغير مجرى حياته. قال إن الإنسان ليس مُهيأً للعبث مع الرب. قد يتمكن المرء من إقناع نفسه بأنه قادر على اتخاذ هذه الأنواع من القرارات، ولكنه يشعر بعد ذلك بالذنب، بالأحلام الوسواسية، بالحنين وبصور الأولاد.

لم يخبرها موريس بهذه القصة قط قبل الآن. عانقته. لم تقل له شيئاً.

– في أية ساعة تتوقعين وصول الحاوية غداً؟ – سأل موريس، في الوقت الذي أشعل فيه الضوء.

– بعد الظهر –أجابت وهي تنهض من الأريكة– أشعر بالجوع –أضافت– أعتقد أنني سأصنع الحساء من السمك الذي أحضره خوسيه. شيء ساخن نتلذذ به.

***

اعتاد رافائيل أن ينام بفم مفتوح. ما إن نام، حتى حررها من عناقه وانسحب

ليحلم وحده. لم تكن تشعر بالنعاس. أرخت يديها تحت رأسها وظلت تتطلع إلى الظلال على السقف. فكرت في خواكين. حين قارنته برافائيل، تساءلت كيف أمكنها أن تتقبل هذه العلاقة الأخرى المليئة بالصمت والعداء المتوتر في حياتها. مؤكد أن الشعور بالوحدة ورومانسيتها، دفعاها إلى الاعتقاد بأنه الملاك المُرتجى لحورية تمرح على ضفة النهر، الجميلة التي تحرر الوحوش من مخاوفها، وتتواضع أمامه لإجباره على الإيمان بالولاء، الكرم، إمكانية العشق دون استبداد، دون هيمنة. كانت تتظاهر دائماً بأنها لا تعير اهتماماً لنزقه الذي لم تلمسه، وأنها قادرة على رؤية الوجه اللطيف للتكشيرة. في النهاية، جاء دورها لتكون قاسية. أن تتركه بين عشية وضحاها. كانت تمتلك هذا الجانب الذي يتصرف بقوة غريزة البقاء والذي أنقذها من فخاخ وطوفان خيالها. لابد أنها ورثت عن جدتها هذا الإحساس العام، العزم والبرودة. ما يزال من الصعب عليها تصديق أنها تجرأت على المغادرة والانفصال عنه.

كان رافائيل مختلفاً تماماً: يعرف ما يريد، وغالباً ما يقوم بتحليل بواطن عواطفه. كان قادراً على أن يسخر من نفسه، ويعترف بأنه غير معصوم من الخطأ، ولا يحمّل نفسه الكثير من الجدية. كان يخشى على حساسيتها، أو أن يجرحها، وهذا ما اعترف به على الأقل. لا يغير مزاجه على حين غرة، ولا يحكم على الأمور في غير موضعها. كانت تشعر بالأمان معه، لفرط اهتمامه بها. أما خواكين فكان يسبب لروحها الأذية: لم تعرف قط ما هي حقيقة دواخلها معه، إن كان عداءً أو عاطفة، إن كان يحبها أو يكرهها. ربما كان هذا بالضبط سبب عودتها إليه في كل مرة، وربما كان هذا هو الفخ: إجبارها على حل اللغز، وكسر التعويذة، وإغراؤها باحتمال أن يتحول الوحش بفضلها إلى الأمير الساحر الجمال.

كان لا مفر من المقارنة بينهما، رغم عدم وجود وجه للمقارنة. تجد مع رافائيل السعادة وإن حدث ألم ما، فلا يدوم طويلاً، إذ سرعان ما يعود إلى عالمه. كانت صورتها في ذهنه تائهة بين الأشجار، تتلاشى بهطول المطر، شأنها شأن أميرة أسطورة قبيلة غواتوثو الهندية. لقد كان حباً محكوماً عليه بعدم الاستمرار، بالانعدام حين يعود إلى صداقاته عبر الإنترنت، إلى منزله

الذي لا ينقصه شيء»، حيث يقوم البشر الآليون بالأعمال المنزلية بضمنها وضع الزهور في أصصها.

استدارت جانباً ونظرت إليه. انساب الحنان إلى مساماتها مع فوران دبت دغدغته في جسدها. كان لدى رافائيل بعض البراءة. يمتلك القدرة على الاندهاش والفضول الذي لا يشبع أمام السلوك البشري، سواء كان نبيلاً أم بائساً. حتى بمحاولته في الحفاظ على موضوعيته، لم يكن يخدع نفسه بأنه قادر دائماً على أن يتحمل عدم الانحياز.

اقتربت منه. انزلقت بخفة بين ذراعيه. عانقته أثناء نومه دون أن توقظه.

الفصل الثالث والعشرون

كان الوقت كسولاً في ثينبريا. مضى أسبوع منذ أن تركهما القارب على الرصيف. كانت ميليساندرا تقضي جزءاً كبيراً من يومها إما مع إنغراثيا، أو في المكتبة، تتصفح الكتب والصور، بينما لم يستطع رافائيل الحصول على أجوبة شافية على ما يتقصى عنه. كل الطرق تؤدي إلى عائلة إسبادا، ولهذا السبب بالتحديد، قوبلت استفساراتهما المُقنّعة حول تهريب المخدرات والفيلينا بصمت شديد. كان عليه أن يسلك سبيلاً ربما أكثر خطورة، وأن يلعب على المكشوف بطرح المزيد من الأسئلة المفتوحة والتقاط أي رد فعل قد ينتج عنها.

توجه رافائيل نحو غرفة الكتب للبحث عن ميليساندرا. كان ماكلوفيو ينتظرهما في ثينبريا ليقودهما مرة ثانية إلى مقر الأخوين.

حين وصلا إلى متنزه المدينة، رأت ميليساندرا ورافائيل، الناس يتجولون كعادتهم في كل مرة، وسط الترفيه الرواقي الذي استسلموا له: الصغار يلعبون بكراتهم الزجاجية على الرصيف، والرجال الأكبر سناً يجلسون ببساطة تحت الأشجار، دون حراك، يتأملون المشهد. أما المقامرون والعاهرات المنكبون على رقع الشطرنج والروليت، فكانوا يصرخون مع وكلاء المراهنات عند كل زاوية.

عثرا على ماكلوفيو إلى جوار قفص الببغاوات التي تقرأ الطالع. دعاهما لقراءة حظهما. قدم السجائر لصاحب الببغاوات، الذي كان يمتلك ملامح مراقب جيد وروح دعابة لا تنضب. بين زبون وآخر، كان المالك يشجع طيوره من خلال تكرار هذه الجملة بإيقاع طفولي: «ببغاء حقيقي، من البرتغال، يرتدي اللون الأخضر، ولا يجامل» ويقدم لها كرات من عجينة الذرة.

- اختر طائراً - قال الرجل وهو يسحب من جانب القفص، إحدى الحقائب الصغيرة التي تختلط بداخلها أوراق الحظ.

اعتقد رافائيل «أنها جميعاً متشابهة»، لكنه سرعان ما ناقض نفسه حين اضطر إلى التمعن فيها بعناية. دارت ميليساندرا حول القفص عدة دورات وأشارت بإصبعها إلى ببغاء وحيد كان يسند جناحيه باسترخاء تام على قضبان قفص الطيور الريفي، معلقاً من إحدى ساقيه بشريط إلى الأعلى.

- الآنسة لديها عين خبيرة. الغافي نادراً ما يُخطئ.

أخرج الطائر برفق، أوقفه على إحدى أصابعه وقدم له حقيبة أوراق الحظ. لم يبادر الغافي. نظرت ميليساندرا إلى رافائيل مبتسمة. خُيل إليها أن هذا المشهد ربما سيكون مضحكاً في تقريره. كان مشهداً ملائماً لذلك المتنزه المليء بالأشجار الوقحة المسترخية تحت الشمس.

أخيراً غمس الطائر منقاره ورفع إحدى الأوراق.

- لنر - قال الرجل مؤجلًا القراءة حتى عاد الطائر برصانة إلى مشجبه. بتشويق محسوب، فتح الورقة وبدأ يقرأ على نحو احتفالي:

- «لن تتوقفوا عن الاستكشاف. وستكون نهاية كل استكشافاتنا، الوصول إلى المكان الذي انطلقنا منه وكأننا نراه للمرة الأولى».

- ت. س. إليوت - قال رافائيل. الرباعيات الأربع. إنها أفضل من البسكويت الصيني.

كان الببغاء الذي اختاره رافائيل يلقب بـ «النحيف». كرر المالك العملية. لم يتردد النحيف. قرأ الورقة: «ليس هناك أسوأ من أعمى لا يريد أن يرى».

- مثل شعبي -قالت ميليساندرا- عادة ما يشير إلى الصُم. هذا النظام يشبه نظام I Ching يتقبل الكثير من التفسيرات المحتملة.

- التنبؤ بالمستقبل، أمر معقد -قال رجل الببغاوات متفلسفاً- لهذا السبب أختار زبائني بدقة. ثمة مَن يفضل قراءة الرسائل ويكذبها. ستجدون أن المعنى أعمق مما سمعتموه تواً.

- رأيت بعينك، أيها الرفيق، لقد أخبرتك. أرددها كلما أتيت -صرّح ماكلوفيو، مُلتفتاً إليهم- هذه الببغاوات ذكية للغاية. لن تزدهر تجارتكم أبداً.

– لا تُخطئ أبداً – قال الرجل، وهو يرسم على وجهه الأسمر الطويل ابتسامة غامضة، تقاطعها تغضنات لا حصر لها.

غادروا المتنزه برفقة ماكلوفيو. أنطونيو إسبادا سوف يستقبلهم هذه المرة. قال ماكلوفيو إنه جدير بالحوار لأن المسكين داميان شخصية صالحة لكنه رجل حالم وقدرته الفكرية محدودة. كان قد تعلم خطاباً وظل يردده دون أن يستوعب الفروق الدقيقة التي جعلت من غير الممكن تطبيق علاجات حالة ما على حالة أخرى. مؤكد أنه أكثر شعبية من أنطونيو، إذ يتمتع بكاريزما تكاد تكون دينية. كان مؤمناً، والناس تندفع وراء مَن يؤمن ويمهد لهم الوهم بأن الأسباب النبيلة ما تزال موجودة في فاغواس.

– التواصل مع أنطونيو أسهل بكثير. إنه شريكي، أيها الرفيق. داميان لا يتوقف عن مضايقتي. في زاوية صغيرة من قلبي كنت أشك دائماً بوجود شخص في هذا القرن لا يزال لديه هذا النوع من البراءة الجاهلة – أضاف ماكلوفيو.

كان المسير طويلاً من المتنزه إلى القلعة. قلّ الناس في الشوارع بعد منتصف النهار. فقط عند الدوريات التي تفصل حياً عن الآخر بحواجز مُثبتة بالحجارة، بطاولات، بكراس وبأكياس متروكة، كانت هناك مجموعات مسلحة من الشبان الذين تزين أجسادهم ندوب جراح عملوها بأنفسهم، وخطوط شاحبة عبارة عن صلبان غير منتظمة، متوازية على نحو غريب.

– نفس فكرة الوشم – قال ماكلوفيو.

الأمر هنا لا يتعلق بالذهاب إلى الفنان والسماح للمسامات بالتشرب بالألوان بدقة. الندوب تتطلب مزيداً من الاندفاع والدم البارد: الإمساك بالشفرة، فتح الجلد، وترك الدم ينزف. دعكت ميليساندرا ذراعيها على نحو غريزي. كان ماكلوفيو يهتف عند كل نقطة تفتيش، بكلمة وإشارة المرور، فيسمحون له بالعبور، لمعرفتهم به.

كانت غرفة إدارة أنطونيو إسبادا صغيرة ومنظمة بدقة عالية. أما مكتبه فلابد أنه كان في يوم ما صفحة باب رائعة، وما يزال بالإمكان رؤية آثار الجراح على المفاصل والمزاليج. إن حقيقة صنعها من الخشب، دليل

على أن الرجل لم يتبع القواعد المعمول بها. أدخلهم المساعد إلى الغرفة ودعاهم للجلوس على كراس مصنوعة من الخشب أيضاً.

على حافة النافذة العريضة، كانت ورود البغونيا تُزهر داخل أحد أحواض الزينة. وعلى طاولة جانبية، يقبع الحاسوب القديم مغطى بقطعة قماش لدنة شفافة. تركهما ماكلوفيو والمساعد وحدهما.

– ما زلت أجهل سبب وجودنا هنا –قالت ميليساندرا– لا أعرف ما الذي ينفعنا الحديث مع أنطونيو إسبادا. كنت أفضل العودة لرؤية تفريغ الحاوية. هذا المكتب يُشعرني بالبرد.

– سيكون لدينا متسع من الوقت لفعل ذلك كله –قال رافائيل– لكن الأشياء لن تكون أكثر إثارة من الناس أبداً.

– عشتَ حياتك مُحاطاً بالأشياء –قالت ميليساندرا– بينما عشتُ حياتي محاطة بالناس.

تسلل أنطونيو إسبادا إلى الداخل خلسة وأغلق الباب دون أن يصدر أي صوت. كان من الواضح أنه اعتاد على العيش بين الأعداء والتهديدات. كان طويلاً، ضخماً وشاحباً، يوحي للآخر بأن القوة والصحة تنقصانه. مع ذلك، كان يمكن للمرء أن يلمس في نظراته وحركاته، الإرادة للتغلب على مدى سوء شعور هذا الجسد بروحه، وعلى الغضب من التكوين الناري الذي لا يعرف الكلل والذي أُجبر على العيش في هذا الإطار الرقيق والهش. اقترب منهما بيد ممدودة وابتسامة تتأرجح بين اللطف والسخرية.

مدت ميليساندرا يدها في الحال وهي تشعر بعدم الارتياح للطريقة التي بدأ بها اللقاء. هذه الحركة البسيطة المتمثلة في التحية أوحت بدلائل مختلفة، ليس جنسياً فقط، بل بالتواطؤ أيضاً. لاحظت أنه فعل الشيء ذاته مع رافائيل، كما لو كان يريد التعرف عليهما من خلال اللمس، أشبه برجل أعمى يمد عصاه بدلاً من يده لكي يكتشف الحجم الدقيق للعائق الذي أمامه.

جلس أخيراً خلف المكتب بعد أن ظل يحدق فيهما، معلقاً على شرف اللقاء بهما شخصياً. صمت للحظة، غارقاً في تقليب بعض الأوراق على الطاولة.

- علمتُ أن جدك ليس بصحة جيدة؟ - قال فجأة وهو يرفع رأسه ويتطلع في ميليساندرا.

- ماذا حدث؟ - سألت مرعوبة بعد أن اعتدلت في جلستها.

- داء النقرس جعله يرقد في السرير.

فكرت ميليساندرا في هذا المرض. تنهدت بعمق وعادت تتكئ على الكرسي. كانت قد تخيلت الأسوأ. لقد اعتاد على هجوم النقرس تقريباً، ومرسيدس تعرف ما تفعل في حالات كهذه. كان جدها يعاني من نوبات النقرس مرة واحدة في السنة على الأقل.

- آه! -قالت- النقرس مرة ثانية.

فكرت مع نفسها، «هل ذكر ذلك ليرعبني، أم لتليني؟».

- حسنٌ، أنتِ تعرفين أن الأمراض التي تصيب الرجال في مثل سنه، لا تُشفى بسرعة - أضاف إسبادا. أخرج سيجارة من حقيبته وأشعلها ببطء. قام بنفث نفخة كثيفة من الدخان.

- لم أقصد إخافتك -قال- تخيلت أنك لابد أن تطلعي على الأمر.

- أكيد، أكيد - أجابت ميليساندرا وهي تبتسم في محاولة لتهدّئ نفسها.

حالما ذكر جدها، انتقلت على نحو لحظي ولا إرادي إلى رائحة النهر، إلى مشهد الطاقية، العصي، وصفقة الباب في كل صباح.

اتكأ رافائيل على الكرسي لإرخاء عضلات ظهره. كان قد أصابه القلق أيضاً، وأدرك اللعبة. فاز أنطونيو إسبادا بالجولة الأولى بمجرد دخوله إلى الغرفة. ظلت هيئة دون خوسيه المهددة والمُراقَبة، طافية فوق سحابة الدخان المنبعث من سيجارته.

- وكيف عرفت؟ - سألت بتهكم.

- لا أستطيع أن أبوح بذلك. إننا نعرف كل شيء. كل شيء تقريباً وأكثر مما أشاء. وهذا هو السبب الذي من أجله أخبركما داميان بضرورة استخدام شبكاتنا في البحث عن المكان الذي تصرّان على العثور عليه.

- إنك تهددنا - قالت ميليساندرا.

نهض إسبادا واقترب من وعاء البغونيا. لمس إحدى الزهور برفق والتفت إليها.

– ليست لديّ الأسباب لتهديدكما. إنكم لا تشكلان خطراً عليّ. واسلالا غير موجودة. وحتى لو كانت موجودة، فهي ليست شيئاً من شأنه أن يقضّ مضاجعي.

– إذن لأجل ماذا تعرض علينا استثمار الوقت والجهد في بحثنا؟ -قال رافائيل- مؤكد أن لديك أولويات أكثر أهمية.

– لديّ شريك -أجاب إسبادا- وهذه المسألة تهم شريكي. علاوة على ذلك، ليس لدي ما أخسره. قدر تعلق الأمر بي، سأقوم بتخصيص دليل لكما، وتوفير مستلزمات الراحة والسكن طوال الرحلة، لحمايتكما وتجنيبكما الطرق التي تأخذكما بعيداً عن الهدف، وانتقاء أقربها إليكما. لدينا سجل دقيق إلى حد ما لروايات وقصص أولئك الذين يفترض أنهم كانوا هناك. زوجة أخي امرأة منظمة للغاية والتوثيق هوايتها. لا تعتقدا أن طابوراً من جيشي سيقوم بمرافقتكما. إنها مسألة بسيطة بالنسبة لي. ولكن إذا كنتما تفضلان عدم الوثوق بهذه الموارد... فهذا شأنكما.

– بماذا تتخصص الشبكات التي تتحدث عنها، عادة؟ – استفهم رافائيل.

ابتسم إسبادا. كان قد عاد إلى الكرسي خلف المكتب وبدأ يلعب بقلمي رصاص ويواجههما كأنهما متبارزان.

– كانت الحروب من قبل، إما انتصاراً أو هزيمة -قال إسبادا- أما الآن فهي مسألة بقاء، للحفاظ على ما تم الحصول عليه. لم يعد هناك أصدقاء أو أعداء محددون على نحو جلي. المخابرات لها أهمية قصوى، وكذلك الاستراتيجية التي تعد أكثر تعقيداً. الحروب الآن تُخاض على جبهات عديدة في الوقت ذاته ولأسباب مختلفة. قد يكون خصوم اليوم حلفاء الغد. أسميتها «الحرب المرنة». تتطلب الكثير من الذاكرة.

– ولكن ما هو الغرض الخفي؟ يبدو أنك رجل ذكي. لا تعتقد أن الاستقلال المطلق والسيادة الوطنية القديمة التي يدعي أخوك أنه يتوق إليها، مبنيان على أسس منطقية – تابع رافائيل.

– لا أفهم لـمَ لا؟ –أجاب إسبادا– أنت نفسك تعتقد أن ذلك ممكن... ماذا تعني واسلالا، سواء كانت موجودة، أو أنها مجرد مجتمع ذي سيادة، تقع في فراغ اجتماعي؟

– ولكن من الناحية الفنية، فاغواس ليست دولة حتى، وقد تم إلغاء الحدود بأكملها رسمياً في هذه المنطقة.

– ما تقوله يُثبت تأكيداتي بالضبط –قال إسبادا– من الناحية الفنية، ربما قاموا بإلغاء الحدود، لكنها ليست كذلك من الناحية المبدئية.

– ما تقصده هو أنك تناضل من أجل مبدأ ما، حتى لو لم يكن ملموساً؟ – سأل رافائيل.

– مَن الذي قال: أعطني فكرة وسوف أحرّك العالم...؟ – استفهم إسبادا.

– ولكن ماذا عن القتلى في هذه الحرب المرنة؟ أنت نفسك تقر أن أطرافها لا تنتصر ولا تُمنى بالهزيمة. إنها الحرب التي قد تكون صالحة في وقت ما، لكنها الآن تدور حول نفسها فقط: تنشب وتُشعل نفسها بنفسها. في نهاية المطاف، لا هدف لها سوى العمل على تحقيق التدمير الذاتي... – تدخلت ميليساندرا.

– إنها مسألة قوة –قال إسبادا وهو ينهض من جديد فاركاً يديه– تراكم قوى. أنتِ محقة في أن المبادئ وحدها لا تكفي. القوة مطلوبة. هذا ما يجعلني مختلفاً عن الآخرين، الأكثر مثالية. أنا لا أدمر نفسي بنفسي.

– تقصد أخاك؟ – سألت ميليساندرا.

– إن أخي يشبه دون كيشوت. لقد قرأ الكثير من كتب الفروسية. كثيراً ما يخدع نفسه بالاعتقاد أن الواقع مرن وأنه يمكن أن يشبه أحلامه. إنه البلاء الوطني. الكثير من الشعراء في هذا البلد. من أين واسلالا، إن لم تكن من الشعراء؟ وانتشرت الفكرة. كيف لا يحب الناس أن يؤمنوا بمكان ساحر، خالٍ من الصراعات والتناقضات؟ إنها فكرة لا تُقاوَم في بلد ملعون مثل هذا، رغم أنها كذبة. الحقيقة الوحيدة الممكنة واليقين الوحيد، هما أن تمتلك القوة، وأن تكون قوياً لفرض قواعد اللعبة، لكي تكون اللاعب الرئيسي. «لا وجود للصيادين في النهر الهائج». لا أعتقد أنني مضطرٌ للتصنع معكما.

– لديّ اهتمامات خاصة –قال رافائيل– يُقال إن هناك بعض الموارد التي تدار في بلدان مثل فاغواس، على وجه التحديد بسبب هذه المرونة في الأطر الهيكلية. أنا أقصد بعض التجارب: في السنوات الأخيرة، غمر بلادنا نوع من المخدرات المتحولة، اسمها الفيلينا، يؤكد الجميع أنه يُنتج هنا، ولكن هناك أيضاً حديثاً عن الاتجار بالأعضاء البشرية، واختبارات لفايروسات مُميتة. ماذا لديك ما تقوله لي عن هذا الأمر؟

ابتسم أنطونيو إسبادا. ماكلوفيو لم يكن مخطئاً.

– يبدو لي أنهم لم يرسلوك إلى هنا بسبب واسلالا فحسب. مَن تهمه قضية المدينة الفاضلة؟ الرعب يجمّل الأخبار.

– الناشر الذي أعمل معه رجل راقٍ. يرسم في أوقات فراغه –قال رافائيل– الاهتمام بهذا الشأن الذي أطلبه منك، هو اهتمام شخصي. مُغرم أنا بالتقارير عن طقوس وطوائف وأعمال العصابات المتحضرة. تنتشر حولها شائعات كثيرة.

– لن أخبرك، مثلما قد يقولها أخي، أن هذا كله تلفيق مُعاد. نحن نعرف أن الفيلينا تُزرع هنا، لكننا لا نعرف مكانها بالضبط، رغم محاولاتنا إحكام السيطرة على حركة تجارتها في بعض الأحيان. أما عن الفيروسات والأعضاء البشرية فليس لديّ ما أخبرك به. فاغواس ليست الأرض المناسبة لهذا النوع من الصناعات، لكنها تمتلك الموارد، نعم. قد يكون هناك من لديه الاستعداد للمتاجرة بكل شيء حتى الأعضاء البشرية لكن الإجراءات اللوجستية أكثر تعقيداً مما يُتصور. لم نر طائرة منذ وقت طويل. المطار مليء بالنباتات البرية، والبحر صعب التحكم به مثل المجال الجوي، لذا فإن قضية الفيلينا سهلة التحقيق، لكن عليك أن تتحقق من ذلك في رحلتك إلى واسلالا. اسأل. بالسؤال، تصل إلى روما –ابتسم إسبادا– ثمة أشياء أخرى تحت طائل مسؤوليتي.

استمرت ميليساندرا تراقب الموقف بفضول. لم تعد تعتقد أن إصرار رافائيل على المخدرات كان عرضياً. ربما كان هذا هو الهدف الحقيقي لرحلته؟ كان يتحدث إلى المقامرين في المتنزه وإلى صبيان إنغراثيا، ويدقق

النظر في الشجيرات. كان عليها أن تتأكد من أن اهتمامه بهذه الأمور ثانوي. لم تكن تريد أن تصرفها هذه التداخلات عن واسلالا أو تعرضها للخطر. بدأ الحديث ينحرف عن مساره الآن. من الخطر أن تشعر عائلة إسبادا بالتهديد. من المحتمل أن لا يكون لدى رافائيل فكرة واضحة عمن يتعامل معهم. سلوك عائلة إسبادا لم يدل على القصص المظلمة التي نُسجت عنها. من الأفضل أن يغادرا، علاوة على أن الوقت كان متأخراً، وموريس ينتظرهما.

- سامحني إن قاطعتك -تدخلت ميليساندرا- لكن يجب أن نذهب.

نظر رافائيل إلى ساعته وما كان عليه سوى أن يهز رأسه.

- لم نتفق على شيء حول الرحلة حتى الآن - قال إسبادا وهو يشعل سيجارة أخرى كأنه يمتلك وقت العالم بأجمعه.

- شكراً جزيلاً، لكننا نفضل القيام بذلك بمفردنا -قالت- قَدِمنا لنتحادث معك من باب الفضول.

ابتسم رافائيل متظاهراً بمسح بعض الوبر من بنطاله حتى لا يرى أنطونيو إسبادا مدى سعادته بجرأة ميليساندرا.

كان ماكلوفيو قد اختفى حين همّا بمغادرة مكتب إسبادا. قال لهما الحارس إن بإمكانهما أن يسلكا نفس الطريق الذي أتيا منه. لن يتعرضا لأية مضايقات. قادهما عبر ممرات رطبة، نحو القوس الذي يبدأ منه الطريق. كان المنظر الطبيعي من أعلى التل في هذه الساعة، مخضباً بالضوء المصفر للشفق المبكر. بدت لهما ثينيريا من هناك، مثل أية مدينة لطيفة غارقة في نفسها. ومن البعيد كان ينتصب برج الكاتدرائية بقبتها البيضاء المشذبة فوق سلسلة الجبال التي ارتفعت من البحيرة. كانت فاغواس دولة براكين، شائكة مثل حيوان بحري عابس، مليء بالأشواك. كان على الناس الاستقرار في السهول، على منحدرات التلال، والعيش على الرواسب المشتعلة في باطن الأرض. بعض هذه الحرارة وهذا الاحتراق الذي يختبئ في سكانها، ذكّر ميليساندرا، بعيني أنطونيو إسبادا الثابتتين والنافذتين. مؤكد أنه كان مخيفاً أكثر من داميان، لكنها مع ذلك كانت تفضله. ربما لكونه ضعيفاً جداً، سمح للمرء أن يستلطفه.

– ميليساندرا، يجب أن نتكلم – قال رافائيل، كاسراً حاجز الصمت الذي خيّم عليهما أثناء النزول.

– قرأتَ أفكاري. أنا أيضاً أردتُ أن أتحدث إليك.

– حول ماذا؟ لنر إن كنا على اتفاق.

– لنر... إنه دورك.

– أن نقبل بعرض إسبادا لا يغير من الأمر شيئاً. هنا لا توجد قضايا أخلاقية أو أسباب للنزاع. إنها طريقة الحياة – قال رافائيل.

– لا أتفق معك. هذا ما يريدونك أن تعتقده. إنهم سيئو النية.

– لنر إن كان بإمكاننا أن نفهم بعضنا بعضاً –قال رافائيل وهو يقفز فوق حجر في منتصف الطريق– كانت الحروب قائمة قبل ولادتك وولادتهم. الجميع يعلم أن التبريرات غامضة، فيما يخص تجميع القوى من أجل السلطة ذاتها. القانون للأقوى.

– إنها حروب دون هدف – قالت ميليساندرا.

– ليست بالضرورة. ما يحدث هو أن الهدف يتنصل عن كونه صادراً من أمة أو من مجموعة. إنها حروب فردية على السلطة: أفراد أقوياء ضد أفراد أقوياء آخرين. حروب إقطاع، عشائر، عوائل، قبائل، لا تحمل أي مفهوم للأمة.

– عدم وجود سبب أو مفهوم للأمة، يعني عدم وجود للقواعد. هذا ما تريد الوصول إليه، أليس كذلك؟ حسنٌ، أنت مخطئ. حتى في حالة الفوضى، هناك نظام معين، على الأقل حدود، احترام لمبادئ معينة. لا يمكننا بأي حال من الأحوال التحالف معهم.

– لن أصر. أعرف أن إنغراثيا تلهمك المزيد من الثقة. أنا مثلك أيضاً، بلا شك، لكن الصورة واضحة: لا يوجد فديسون أو أوغاد. إنها مسألة تحليل ما هو الأفضل بالنسبة لنا.

– ربما يناسبك أن تتقرب إلى إسبادا من أجل تقريرك الآخر. أما أنا، فلا. إنهم قلقون. مهما كانت الأسباب ثمة توقعات حول رحلتي. بما أنني

حفيدة جدي، وبسبب والديّ، يُعتقد أن فرصتي في العثور على واسلالا أكبر. أنت وأنا لدينا التزام. لا أعرف إن كان هدفك الحقيقي من المجيء إلى هنا هو العثور على واسلالا، لكننا الآن لا يمكن أن نحيد عن هدفنا. إذا واصلت إصرارك على الفيلينا، فسوف توقعنا معاً في ورطة.

- لنفترض أن كلا التقريرين متوافقان.

- ربما نعم، وربما لا. لنقل إن الأولوية بالنسبة لي هي واسلالا. يمكننا أن نفترق الآن إذا لزم الأمر.

- مستحيل -قال رافائيل- أنا رجل صاحب عهد.

- أنت صحفي - قالت ميليساندرا.

- يجب أن تفهمي أن مجيئي إلى هنا لم يكن سهلاً بالنسبة لي -قال رافائيل متوقفاً- ليس بالأمر المذموم إن قمت بكتابة عدة تقارير. بعد كل شيء، من غير المحتمل أن يرسلوني إلى فاغواس مرة ثانية... صدقيني، ميليساندرا، لن أعرّض رحلتك للخطر أبداً .

وصلا إلى الرصيف ودخلا شوارع ثينيريا. حين مرّا عبر الحواجز هذه المرة، شعرا بأنهما معروفان. الكثير من الناس، كما أوضحت هي، كانوا قد عرفوا برحلتهما إلى واسلالا. تم إيقافهما لفترة وجيزة في أماكن مختلفة لطرح الأسئلة وتقديم المشورة. نصحهما أحد الأشخاص أن لا يحملا الكثير من الأمتعة، إذ لم يُسمع قط بوصول شخص إلى واسلالا وهو يحمل الكثير منها، أما أولئك الذين وصلوا، فقد قاموا بذلك عن طريق الخطأ غير متعمدين، لأنهم لم يكونوا مستعدين. ونصحهما آخر أن ينتبها للريح. قيل إن الريح في واسلالا تغير شكلها. عند أحد الحواجز، وجدا امرأة عجوزاً تنتظرهما مع صورة قديمة لزوجها، كان قد شاهده أحدهم في واسلالا، وأرادت منهما أن يخبراه أنها على قيد الحياة، وأنها تنتظره حتى الموت. لم يضيع رافائيل أية فرصة لطرح أسئلة حول عائلة إسبادا، والموالين لها، وأطراف النزاع. لم يحصل إلاّ على عبارات محترمة عن أحد الأخوين أو عن الآخر، دون انتماء صريح أو ولاء خاص لأي منهما. واختلطت المقتطفات العشوائية لأفكار داميان إسبادا مع أفكار إنغراثيا في خيوط متشابكة ومعقدة

من التبريرات الحربية. نُعتت عائلة إسبادا بالقومية فيما أُلصقت بإنغراثيا فكرة تشكيل مجتمع منفتح على العالم.

– هل انتبهتِ؟ سأل رافائيل، ميليساندرا – لا أحد مع أحد والجميع مع الجميع. تعتمد العداوات أو الولاءات على طريقة تفكيرهم في تحقيق التوازن بين العلاقات مع هذا الطرف أو ذاك.

كانت ميليساندرا صامتة. الأهم بالنسبة إليها في هذه المرحلة، هو أن تبرهن لأسباب خارجة عن المنطق، ولكل شخص، أن اكتشاف واسلالا فقط هو الذي سيخلص فاغواس من لعنتها الحربية ويسمح لهم بتكريس بطولاتهم لقضية شريفة. اعتبرت واسلالا آخر حصن للنظام، والشيء الوحيد الذي يمكن أن يُعيد لفاغواس منظور طريقة حياة بديلة. أو ربما، كما اعتقد خواكين، أن الاستئناف الجماعي النهائي وحده قادر على إبطال جميع الأوهام الأخرى. كانت لعبة سراب لم ينج منها أحد في فاغواس. وكانت هي جزءاً من تلك اللعبة، أو كان دائماً كذلك، دون أن يكون لها ضلع فيها.

الفصل الرابع والعشرون

كانا قد اتفقا على ملاقاة موريس في الفندق. حين دخلا القاعة، كانت الثريا الكريستالية مُضاءة، لدرجة أضفت على المكان أجواءً من القرن التاسع عشر خيمت هنا ورفضت المغادرة. كانت الكراسي القديمة بأغطيتها الرثة، وأخشابها الزيتية اللامعة مركونة في الزوايا، مما يمنح القاعة أنفاس العز المفقود منذ زمن طويل، كما ازدان المكان ببريق خشب مكتب الاستقبال الذي ظهرت خلفه امرأة في أواخر شبابها تشغل العديد من الوظائف الإدارية. حاول رافائيل وميليساندرا، مضطرين إلى السير على رؤوس أصابعهما بإيقاع واحد، لكن المرأة شعرت بهما قبل أن يصدرا أية جلبة ورحبت بهما بلطف وكياسة.

ترك رافائيل لميليساندرا تولي مسؤولية التقصي عن موقع موريس، وأسلم نفسه لتأمل المكان الذي يتعايش فيه المستعمرون مع الفنانين في هذا الواقع الظريف ذاته الذي تعاشر فيه ثينيريا جميع سكانها بسعادة. مرر يده على المكتب الزاهي الكائن أسفل المصباح، مأخوذاً بنظافته العجيبة. طقطق أصابعه. كل شيء هنا يتلألأ لامعاً: المنافض الفضية القديمة، والمرايا، وزجاج النوافذ التي تطل منها الأشجار المتشابكة للمتنزه.

كانت الموظفة قد غادرت مكانها خلف مكتب الاستقبال. حين رآها رافائيل تغادر لاحظ حدة ملابسها: التنورة والسترة السوداء، الجوارب النايلون، والكعب العالي. أثناء رحلة النهر، تحدث هيرمان معه لعدة ساعات عن جيمي والفندق، كإحدى الظواهر التي أبرزت قدرة سكان ثينيريا على خلق أزمنة تتحرك في الاتجاه المعاكس لباقي مناطق العالم. كان جيمي قد

اقترح أن يجعل نزلاء الفندق يعتقدون أنهم يقيمون في ماضٍ مُتوقع. كادر الفندق يتصرف بعزة نفس ولياقة، وكذلك الحال بالنسبة للغرف، ومفارش المائدة، والأثاث التي كانت جميعها غاية في النظافة لدرجة يبدأ معها الضيف يتساءل في وقت قصير، عما إذا كانت تشوهات الواقع خارج هذا المكان هي نتاج مخيلته. مهما كان مستوى تشتته، لم يكن لديه خيار في نهاية الأمر سوى الاعتراف بأن الوقار المهني يمكن أن يوجد حتى في أسوأ الظروف. أخبره هيرمان أنه كان قد شهد نحيب أقسى المهربين، متأثرين بهذا النوع النادر من البطولة. كان يقوم شخصياً في كل رحلة من رحلاته، بتكريم جيمي من خلال تزويده بالبدلات والملابس التي يرتديها عادة في عمله، أو إهدائه كتباً نادرة لتزيين وتوسيع آفاق ذاكرته الواسعة بما تحتوي من سير ذاتية للعاملين في قديم الزمان.

ظهرت الموظفة بعد فترة وجيزة وأشارت إليهما أن يتوجها إلى غرفة خلف مكتب الاستقبال. كان موريس هناك برفقة جيمي. اندهش رافائيل حين رأى أن قسمات وجهه كانت تشبه بالفعل قسمات تلك الشخصيات الأسطورية. كان مظهره وقوراً ومحترماً، وعيناه الشفوقتان تدلان على مهارته في مراقبة وتخمين رغبات الغرباء، أما شفتاه الضيقتان فكشفتا عن غياب العواطف المناسبة لمهنة تتطلب الوقار، وأوحت يداه الناعمتان المُعتنى بهما جيداً، انطباعاً يُشعر المرء أنه ضيف حقيقي عند شخص مصمم جداً على خلق فن من الاهتمام يسعى إليه دون أي إحساس بالذل. جال رافائيل ببصره في المكان، وتساءل من أين اكتسب هذا الرجل فكرة أن الخدمة يمكن أن ترقى إلى فئة الفن. أفرد لهما جيمي مقعداً وضيّفهما وهو في مكانه، وذلك بتقديم وجبة خفيفة تتكون من القهوة والمعجنات وقطع صغيرة من الخيار.

كان المكتب بسيطاً وأنيقاً. أحد الجدران العالية كان مكسواً برفوف مليئة بالكتب التي أشار إليها هيرمان. أمّا الجدار الآخر، فقد عُلقت عليه مجموعة كبيرة من الصور التي توثق إعادة تصميم المنزل القديم، وافتتاح الفندق، وبعض ضيوفه المشاهير، ومن بينهم جيرارد شومر، أول إنسان تطأ قدماه سطح المريخ، وقد سافر لاحقاً، في مهمة تتعلق بحسن نية رئيس الولايات

المتحدة نفسه، إلى المناطق الرئيسية المنسية في العالم، متحدثاً عن عجائب الكون. أعرب جيمي عن احترامه لنسب عائلة ميليساندرا. قال إنه ما زال يتذكر دونا ماريا في قمة شبابها. كانت تشعر بالملل مع أقاربها، لذلك كانت تقضي الأعياد في التحدث مع الخدم، وتكون أول مَن يتذوق الفطائر التي تخرج من المطبخ.

قال إنها كانت سيدة عظيمة، على الرغم من أنها لم تكن تريد أن يشبهوها بأحد على الإطلاق، وكانت دائماً تبذل قصارى جهدها حتى لا تبدو شبيهة بإحداهن. وأضاف أنه في زمن جدة ميليساندرا، كان الكثيرون في ثينيريا يُظهرون عكس ما هم عليه في واقع الحال، مما اضطره إلى الامتناع عن تقديم خدمات جيدة لأولئك الذين لا يستطيعون التمييز بين شوكة السمك وشوكة السلطة. لهذا السبب عمل ما بوسعه حتى سمحت له الحياة بشراء المنزل الذي مكّنه أخيراً من إثبات براعة مهنته. لم يثنه هذا الجهل القروي ولا الحاجة إلى الراتب، عن أن يواصل تصميمه على الارتقاء بالمعايير الصارمة لمهنته.

كان جيمي رسمياً جداً. هذا المظهر الطقوسي الخاص به يمكن أن يُعزى إلى بعض التمرد العقلي، الذي يُجبر على البحث عن سبل غير عادية توقاً للكمال. ومع ذلك، كان في هوسه نبل روح لا لبس فيه، وحكمة غريزية، ووعي تام بأن بعض عناصر التضحية الكلية تكمن في أن يعثر المرء على الإدراك والمقام المناسبين نحو أداء وظيفي جيد مهما بدا تافهاً للآخرين. حدثهم صاحب الفندق عن قصص رواها النزلاء الذين أكدوا أنهم كانوا في واسلالا. لم يكونوا كثيرين، كما قال، ربما ثلاثة أو أربعة أجانب لم يرهم هنا مرة ثانية، لكنهم أجمعوا على أنهم تغيروا بسبب التجربة، كما تحدثوا عن ذلك المكان في شمال البلاد الذي وصلوا عن طريق الصدفة إليه والذي اختفى عنهم في ظروف غامضة أثناء النوم.

حين كان جيمي يتحدث، كان موريس ينظر بين الفينة والأخرى إلى الساعة المرصعة في ذراعه المعدنية، غير قادر على إخفاء نفاد صبره للعودة إلى إنغراثيا. كان قد أمضى فترة ما بعد الظهر عند صانع ساعات، يستخدم أدواته الدقيقة، لفرط ثقته بها، من أجل معايرة عدته، حتى يكون قادراً على

تقييم الحمولة التي يتم تفريغها الآن على الرصيف من قبل الأولاد، بشكل صحيح. كان وصول ميليساندرا ورافائيل غير متوقع بالنسبة إليه لاعتقاده أن زيارتهما لن تكون قصيرة. الليل يهبط بسرعة وأمامه يوم طويل. لكنه ندم على اضطراره لقطع الحوار. كان يعرف السحر الذي كان جيمي ومحيطه قادرين على خلقه. في خضم السياق الفوضوي للمدينة، لم يكن الفندق مجرد جزيرة من النظام والكفاءة فحسب، بل كان أثراً من عهود مضت ونُسيت. كان جيمي شخصية مثيرة للفضول. على الرغم من الوقت الذي عرفه فيه، لم يكن لديه اقتناع تام بأن صاحب الفندق قد وجد نوعاً من الحكمة في الجنون، أو أن التماسك المطلق لجنونه هو الذي خلق وهم سلامة العقل. لم يستطع أن يقرر ما إذا كان العالم الذي خلقه جيمي سيكون فيه خلاصه أم دماره. اختار أن يلتزم الصمت لمدة خمس عشرة دقيقة أخرى، نهض بعدها مشيراً إلى ميليساندرا ورافائيل أن وقت الرحيل قد حان.

مع حلول الليل غادروا الفندق. هبت رياح معتدلة من البحيرة مما زاد من رطوبة الجو. شدت ميليساندرا على بلوزتها، وقاطعت يديها فوق صدرها. ارتمت في هيكل المقعد الخلفي للجيب، في محاولة لحماية نفسها من النسيم في السيارة المكشوفة. جلس رافائيل مع موريس في المقعد الأمامي. ومن الخلف، بدا رأساهما مثل بصلتين غريبتين لزهرة دخيلة. كانا يتحدثان عن إسبادا، لكن الرياح أودت بكلماتهما بعيداً، وبالكاد كانت تتناهى إلى سمعها بعض المقاطع اللفظية في الأوقات التي تزيغ السيارة في زاوية الطريق مما يؤدي إلى انتقال الصوت نحو أذنيها. كان بإمكانها أن تدفع جذعها إلى الأمام لكنها لم تفعل. فضلت أن تريح مؤخرتها على المعدن الصلب الذي كان يبرز من فرش المقاعد وتحدق في السماء المظلمة آنذاك. يمتلك خواكين رؤية مختلفة تماماً عن رؤية رافائيل فيما يخص إسبادا. الناس بالنسبة له، فئتان لا غير، وإسبادا ينتمون إلى الفئة المناهضة له. نوع من المانوية البسيطة والفعالة في الوقت ذاته. أما رافائيل، فلا شيء لديه بهذه البساطة وربما كان هذا هو السبب في انجذابها إليه: رغبته في استيعاب الدوافع الخفية للناس دون الحكم عليهم من خلال المظاهر، ودون وضعهم على الفور في جانب معين أو في آخر. كان الخير والشر بالنسبة له، مكونين جوهريين لكل شيء

ولكل إنسان. هذه الرؤية للعالم، يمكن أن تحوله بالطبع إلى مراقب وتمنعه من الانغماس في أي شيء. كان هذا الموقف يحمل في طياته خطر الارتياب والتشكيك، لدرجة لم يستطع معها الاعتماد على القوة التي انبثقت لديه حين توافقت مع مبادئ معينة.

شعرت بالحزن، والتوتر، والخوف المفاجئ تشوبه رغبة في إغلاق عينيها لتستيقظ في مكان آمن. ستُدرك بعد سنوات أن تلك الحالة الذهنية كانت بمنزلة رؤيا. مرت السيارة عبر البوابة الحديدية لمدخل المدرسة. قبل وصولهم، توقف موريس لينظر إلى الأسفل، إلى الرصيف المُضاء بفوانيس. بينما كان مركب النقل يتمايل في الماء ومجموعة كبيرة من الأولاد يقومون بتفريغ الحاويات، كان المبنى يغط في الظلام بصمت عميق. تناقض غريب، فكرت ميليساندرا وهي تدخل. كانت تتوقع أن تجد في الداخل مشهداً مشابهاً لمشهد الرصيف، لكنها تفاجأت بالأضواء المُطفأة، والسكون الذي يلف الممرات التي دخلوا من خلالها، ولا شيء يُسمع سوى الصدى الأجوف لخطواتهم على الطريق نحو غرف إنغراثيا.

تقدم موريس بعجالة أولاً، وهو ينظر حوله متوقعاً أن يجد تفسيراً لما هو غريب بالنسبة له أيضاً. عندما وصلوا إلى حجرات إنغراثيا، كان الثلاثة يركضون تقريباً لا لسبب معين سوى الصمت غير المألوف.

أشعل موريس الأنوار وسار بين الأثاث. استيقظ الببغاء فجأة، وبدأ يحوم في الغرفة على نحو عشوائي، وهو يطلق أصواتاً عالية ويخفق بجناحيه اللذين قصتهما إنغراثيا لمنعه من الهروب.

اقتربت ميليساندرا غريزياً من رافائيل وعادت لتطوي ذراعيها على صدرها، بعد أن عجزت عن القيام بأي شيء آخر. انتظرا حتى ينتهي موريس من التحقق من الغرف. عاد قائلاً إنه لم يستطع العثور على إنغراثيا. مؤكد أن خطأ ما قد حدث.

– أعتقد أننا بالغنا في قلقنا –قال رافائيل– لا علامات على العنف. لو كان قد حدث خطب ما، لانتبه إليه العاملون في الرصيف. إنغراثيا والأولاد موجودون هنا بالتأكيد، ولسنا بالضرورة قادرين على سماعهم،

لأن هذا المكان كبير جداً – أضاف، كأنه يقنع نفسه. خرج إلى الممر ونظر إلى الباحات ليرى إن كان بإمكانه اكتشاف شيء في الظلام.

كانت ميليساندرا أول من رأى الأضواء من نافذة الغرفة.

– موريس، موريس –نادت– تعال وانظر إلى هذا.

كان من الصعب معرفة ما تشير إليه. في الجزء الخلفي من الفناء وبالقرب من المحرقة، كان يتوهج شيء ما: أجسام لامعة صغيرة ومستديرة تتحرك، ينبعث منها ضوء مائل إلى الزرقة لا يمكن تمييزه.

– يا إلهي! – صاح موريس. ما هذا؟ يا للشيطان!

حملت هبة ريح مفاجئة، إلى أسماعهم أصوات ضحك. نادى عليهم رافائيل في تلك اللحظة ونزل راكضاً إلى الفناء، بينما لحقا به عبر الدرج.

– أعتقد أنهم هناك –قال رافائيل– هناك إلى جانب الضوء. سمعت أصواتهم. أظن أنني أسمع صوت إنغراثيا.

قام موريس بتنشيط ضوء ذراعه المعدنية وبدأ الثلاثة في السير نحو المحرقة بين المخلفات وبقايا الحديد المُستهلك.

أبى موريس أن يفكر في الأشياء التي خطرت على باله. من المستحيل أن يفكر فيها. دار حول هيكل أحد الثلاجات الصناعية المربعة التي كانت تحيطها أكداس من هياكل المجمدات. كان حريصاً على عدم التعثر بالمحركات الصدئة. مد ذراعه لتنبيه ميليساندرا، التي كان تنفسها السريع يُسمع عن كثب. كانت الرياح تعبث بسعف النخيل وتحركه بصوت مسموع. عادت الضحكات تتعالى مرة ثانية، تحت سماء غائمة، وهلال رقيق، مثل حاجب مقوس أو خطوط حادة لحروف أبجدية غير معروفة، كان يتهادى فوق رؤوسهم في الظلام على نحو خجول مختبئاً خلف أكوام السحب التي تدحرجها الرياح. لم يكن يريد أن يفكر في الأشياء التي خطرت على باله. لابد أنه على خطأ. كانت معدته تؤلمه. إن احتمالية أن يكون ما يفكر فيه صحيحاً، وما لا يريد أن يفكر فيه، أطلقت العنان لتدفق حوامض المعدة. كان تركيزه منحصراً في تجنب العثرات. وما أصعبه! بالكاد يمكن للمرء أن يسير في الفناء في وضح النهار. أنابيب صدئة، قضبان وألواح ألمنيوم

هنا وهناك. لقد صرّح أمام إنغراثيا عن هذا الأمر عدة مرات وقال إنه سيأتي بالمزيد من الأشخاص ذات يوم لتنظيفها، لأنه في وجودها بهذا الشكل خطر كبير. تساءل إن كان الأولاد قد ارتدوا الأقنعة أو الملابس التي أعطاهم إياها. لم تنبس ميليساندرا بأية كلمة. التفت موريس إلى الوراء ورأى أنها ورافائيل كانا يتقدمان غير بعيدين عنه. حثّهما. لم تكن إضاءة الذراع كافية للثلاثة ولم يستطع أن يتوقف وينير لهما الطريق من الخلف. كانا على وشك الوصول. أصبحت الأصوات والضحكات أكثر وضوحاً الآن. وعملت هيئة المحرقة على إخفاء أشجار النخيل في الخلف. لم يكن هناك سوى صوت هبوب الرياح وهي تقذف بالسعف مثل احتكاك السيوف بعضها ببعض.

اعتقد أنه رآها. ظن أنه ميّز الوجه المعروف يبرز من بين وجوه البقية. كانوا مجتمعين، رجالاً ونساءً وصبياناً في دائرة حول بريق متوهج، تسطع وجوههم وأيديهم بلون أزرق. انحنى شخص ما وسحب الأذرع المُغبرة من وعاء معدني في المنتصف. رفض موريس أن يفكر في الأشياء التي خطرت على باله، ريثما يكون على مسافة قريبة. إنهم الآن على وشك الوصول وعقله لم يتوقف عن التفكير في هذا الأمر.

خرج من الظلال، ورآهم يتوهجون. اقترب من الوعاء، الذي كان عبارة عن أسطوانة معدنية ثقيلة. أغرق ذراعه المعدنية في الغبار المتوهج، بينما سقط الآخرون في صمت الأطفال العراة المشاكسين.

اقتربت منه إنغراثيا. كانت متوهجة أكثر من أي شخص آخر. حتى الطبقة الخارجية من شعرها لامعة، وكذلك الأسنان. بدت كأنها ميدوسا الأسطورية. طلبت منه ألاّ يفسد الحفلة بهذا الوجه الجنائزي، لأنها ليست سوى طلاء فوسفوري، على حد قولها، ثم أضافت أنهم يتسلون لبعض الوقت لا غير.

سحب موريس الذراع المعدنية وألقى نظرة على مؤشرات لوحة العدادات، ثم التفت إلى إنغراثيا وصفعها. تحول وجهها من جانب إلى آخر. مرة واحدة. مرتين. ثلاثاً. أربع مرات. ارتمى الأولاد فوقه. ضرب أحدهم. سمع صوت عظام الشاب تتساقط بشدة على الأرض. هرع إليه

رافائيل وخوسيه والآخرون للحد من غضبه. أصبحت جزيئات الضوء الآن على قميصه وعلى حذائه. لم يصدر عن إنغراثيا أي صوت. كان موريس قد خمن ذلك بالفعل. شعر بالإعياء على حين غرة وسقط على الأرض مشيراً إليهم أن لا ضرورة لكبح جماحه. وضع وجهه في راحتيه، منهاراً ووحيداً وسط مجموعة من الوجوه، والأذرع، والأيادي، وأصوات لا تزال تسميه البروفيسور، طالبت بإيضاحات حول ما يجري له ولمَ حدث هذا كله ما دامت هي حفلة تسلية فقط ومتعة بريئة. فكر موريس بأنهم ربما اعتقدوا أنه أصبح مجنوناً، ولهذا السبب لم يهجموا عليه. إنغراثيا نفسها تقترب منه الآن. استطاع أن يرى لأول مرة منذ أن قابلها، هالة العزلة التي أحاطت بها مثل جدار شفاف وصلب في الوقت ذاته.

نظر إليهم وشعر بالأسف والخجل من ردة فعله الشخصية. كان الغضب يرتفع وينخفض في موجات عبر جسده، مما جعله يشعر به مثل رقاص ساعة خارج عن السيطرة يتأرجح في صدره. اعتقد أنه سبق أن قال لها هذا كله. كان قد أخبرها به مرات عديدة.

كان الجميع ينظر إليه بترقب وفزع. انتاب موريس إعياء شديد على حين غرة. أجهش بالبكاء رغم أنه لم يشأ أن تنزل دموعه. قال لنفسه، «سيعتقدون أنني مجنون». مد يده ليلمس إنغراثيا، ميدوسا.

– آسف جداً –قال أخيراً– أسألكم السماح عن انتهاكاتي. طلبت منكم مراراً توخي الحذر. قلت ذلك بالتحديد لتجنب وقوع حادث مثل هذا. هذا المسحوق اللامع الذي استمتعتم به هو السيزيوم 137. إنه نظير مُشع. تتراوح الجرعة المميتة منه بين 500 إلى 600 ريم. أخال أن كل واحد منكم قد تلقى على الأقل هذه الكمية. سوف تمرضون بشدة. في غضون ساعات قليلة ستعانون من القيء، والحمى، والصداع، والحروق واضطرام الجلد. سوف تفقدون السوائل والمحللات الكهربائية في الفراغات ما بين الخلايا، سوف تعانون من تلف في النخاع الشوكي الذي يؤدي إلى تساقط الشعر... يا للغباء. رباه، يا له من غباء!

فقد رباطة جأشه أثناء الحديث. نهض مرة ثانية وهو يشد قبضة يديه

مأخوذاً بالغضب. ومرة أخرى أدخل ذراعه المعدنية في الأسطوانة. لم يفه أحد بكلمة. كان خوسيه، الذي لم يدهن نفسه بالمسحوق، جالساً على إحدى الغسالات يتطلع إلى أظافره باهتمام. دارت إنغراثيا حول الدائرة. كان الأولاد ما يزالون على الأرض. أخرج موريس ذراعه ونظر إلى العدادات.

- لن ينجو أحد من جرعة مثل هذه -قال- تحتاجون إلى زرقكم بالمحللات الكهربائية عن طريق الوريد.

- كم من الوقت؟ سألت إنغراثيا.

- أسبوع واحد أو أسبوعان -قال موريس- آمل أن تكون أسبوعين... من أين حصلوا على هذا المسحوق؟

- كسرنا الأسطوانة التي جئنا بها من تلك الآلة - أشار أحد الأولاد إلى زاوية في الفناء.

لم يكن موريس بحاجة إلى الاقتراب للتعرف عليها. كانت إحدى المعدات التي استُخدمت لإشعاع مرضى السرطان قبل أن يسمح العلاج الجيني المكتشف حديثاً بعزل وتحييد جين الأطفال الحديثي الولادة.

خرج رافائيل من الدائرة. سحب ميليساندرا من ذراعها وأخذها جانباً. عاد موريس للجلوس على الأرض ثانية، غطى وجهه بين ذراعيه وشرع يبكي. سمعه الآخرون ينشج بصمت. تحركت إنغراثيا لتقترب منه لكنها نظرت إلى يديها الضخمتين المتوهجتين فتوقفت. «أيتها المسكينة»، فكر موريس، وهو يرفع رأسه، بعد أن غادره الغضب. هبّ واقفاً ومد لها ذراعيه. حاولت أن لا تستجيب له. قالت إنه سيتلوث أيضاً، ومن الأفضل أن لا يلامسها. بدا أنه لم يسمعها. جذبها إليه بذراعه المعدنية وعانقها بشدة. كان يقبّل وجهها عمداً، ومع كل قبلة كانت تنتقل نقاط نور إلى شفتيه. اعتقدت ميليساندرا أن هناك ثقباً اخترق الليل، إذ استكانوا للحظة في ذلك الفضاء من الوضوح حيث لا شيء سوى اليراعات الضخمة التي تمزق نسيج الهواء الليلي. بدا منظرهما جميلاً للغاية. كانت إنغراثيا تشبه إلهة قديمة، رائعة وكريمة الأخلاق كأنها وصلت للتو من رحلة نجمية، والأولاد يتمتعون بروعة وخفة الغلمان الرائعين الخارجين من الغابة المقدسة. كانت حركات المجموعة تتدفق،

تتموج، وتتحرك بخفة فوق عجينة الليل الكثيفة، دون أن تأبه لردود فعل الظلام. من الصعب أن يُتخيل أن شيئاً جميلاً للغاية يمكن أن يكون قاتلاً، أو أن الموت يتربص على هيئة ألوان قزحية غير مُتوقعة أبداً، للوجوه الملائكية الخارقة للطبيعة، التي كان النور قد غمرها وسطع من عظامها وغضاريفها ومداراتها، مثل منارة تتوهج في الدم ذاته وفي الأجواء الداخلية لكل جسد. اعتقدت ميليساندرا أن هذا الجمال ربما أخذ بعقولهم. لم يفكروا في العواقب، وسمحوا لهذا النور أن يحملهم بعيداً عن طريق التأثير المبهر للمسحوق على جلودهم، وتحويلهم إلى مخلوقات أسطورية. مَن عساه أن يُلقي اللوم عليهم، فكر رافائيل. مَن يمكن أن يأخذ بجريرة سكان النفايات والخردة والقمامة هؤلاء، الذين وجدوا أنفسهم فجأة في خضم هذا التوهج، فأرادوا أن يمتلكوه مثلما يفعل أي كيميائي أو ساحر، تدفعهم الحاجة إلى التحول ونسيان الظروف الإنسانية القاتمة وغير المكتملة التي يعيشونها، ولو للحظة ما؟

كان موريس وإنغراثيا ما يزالان متعانقين في وسط الدائرة، يتحركان ببطء في نوع من طقوس رقصة الصمت. تحررت إنغراثيا منه على حين غرة والتفتت إلى الآخرين.

– علينا بالغناء –تحدثتهم وهي تصفق بكلتا يديها، في رغبة منها لإسقاط الغيبوبة التي وقعوا فيها– أفضل طريقة للتخلص من السموم هي الغناء. خوسيه، أحضر القيثارة.

اقترب موريس من الحاوية المعدنية. أطال النظر في الوهج، وقبل أن يتدخل أحد من الحاضرين، مال فوق الحاوية وبدأ يصبغ بالمسحوق وجهه، وذراعه السليمة، وشعره وصدره، بحركات سريعة وحاسمة، مثل عامل منجم مبتهج نجح في العثور على منجم ذهب.

كانت الأغاني تُسمع طوال الليل في الفناء. مارس رافائيل وميليساندرا الحب طوال الليل، كأنهما بهذا الفعل يحميان نفسيهما من رُقية ضارة. ثم بدآ يبكيان مثل طفلين. غاضبة كانت تلتمسه وتضرب صدره بشراسة، وانتهى بهما الأمر أن يعضا بعضهما بعضاً مثل وحوش يمزقها الوجع، في محاولة

منهما لتأكيد حيويتهما الحيوانية من خلال الألم. كانا يمتلئان عشقاً بعد كل ممارسة. تمسّك بجسدها الأنثوي، في رحلة بحث عن والدته فيه، سامحاً لنفسه أن يرضع ويستكين، سامحاً لها أن تحميه، متناسيين الجسد، متناسيين أعضاءهما التناسلية، والاحتكاك والنشوة. ببساطة سمحا لنفسيهما أن يكونا متلاصقين في جسد آخر ليشعرا بوحدة أقل. لقد انتابها إحساس مفاجئ بأنها بدائية ومقتدرة وأن الأساس الأنثوي لجسدها شرع يطفو إلى السطح بما يحمله من غذاء ومأوى، لدرجة اختفت معها لعنات الحضارة فجأة وأُغرقت في لجة الغريزة. قدمت له الطعام والشراب محدقة في عينيه. رأت فيهما والديها أيضاً وهما يحبان بعضهما بعضاً أكثر. استحضرت الحنان الذي لم يقدماه لها قط، واستمتعت بتأثير استدارة زوايا وتقاطيع جسده الذكري.

لم تشعر بهذه السهولة والانفتاح على إنسان آخر من قبل قط. أدركت حينئذٍ كيف يمكن للحب أن يكون مُخلِّصاً ولماذا كانت تخشاه.

كان موريس ما يزال في الفناء يغني. ارتفع صوته فوق الآخرين بنبرة عميقة وخاشعة لتراتيل الأجداد والذكريات الجماعية، كانت حنجرته غاصة بالأشباح. أغمضت ميليساندرا عينيها وفتحتهما مرة ثانية لتراه ملطخاً بالمسحوق المُشع. تذكرت عيني إنغراثيا المستقرتين عليه مثل ملعقتين دائريتين، تهدهدانه حين بدأ يرقص رقصة قبلية لاستدعاء المطر، على أنغام موسيقى قام بها على صفيحة من الألمنيوم. لم تهطل الأمطار قط، على الرغم من البرق المتوهج عل مسافة ما فوق البحيرة. سمعا موريس يرتل بعد ذلك، أنشودة جميلة ومُعزية بلغة إنكليزية، يطفو شدوها عبر الأوساخ، والخردة، والمسحوق المتلألئ، لدرجة ساد معها صمت سماوي ونحيب:

(ما أجمل صوت النعمة التي أنقذت إنساناً بائساً مثلي. ضالاً كنتُ حتى عثرتُ على نفسي. أعمى كنتُ لكني أصبحتُ بصيراً)

بكى رافائيل. أغلق النوافذ ليواصل إصغاءه إلى أناشيد موريس. سمعها حتى الفجر. بدا أنهم كانوا ينشدون سعياً إلى الموت. شعرت ميليساندرا بالوحدة. غطت رافائيل باللحاف وغطت نفسها أيضاً. لابد أن يلوح الفجر قريباً. طويلة هذه الليلة التي ما تزال في بدايتها.

سمعا عودة أولئك الذين كانوا عند الرصيف، بيد أن موريس لم يسمح لأي شخص آخر بلمس المسحوق المتلألئ، طلب منهم الذهاب إلى النوم دون أن يشرح لهم شيئاً.

تحدث رافائيل عن وقت العودة إلى بلاده.

- بلدك... -غمغمت ميليساندرا- ما فائدة التحضر إن كانت أشياء مثل هذه تحدث؟

الفصل الخامس والعشرون

كم من الوقت تبقى أمامهم؟ فكر موريس وهو يغطي وجهه بوسادة. شتت ضوء الفجر تجمعهم في الفناء. كان مُتعَباً. حنجرته تُؤلمه وبالكاد يستطيع الكلام. ربما يتحسن. لم يكن يعرف ما يقول. اعتقد أنّ كل ما قاله كان إنشاداً، نشيداً للحياة، للموت، للفرح وللحزن. السيئ في الأمر أن دوره الآن يتطلب أن يكون واضحاً، ولا يتحدث بالإشارات ولا بالرموز، بل تسمية الموت باسمه الحقيقي، وحساب الحدود الزمنية للحياة، ومشاركة الحكم بالموت مع إنغراثيا ومع باقي الأولاد. ما يزال غير مصدق لما حدث. لا يكفي توثيق أسوأ مخاوفك فحسب، بل خوضها والتعايش معها شخصياً. لماذا لم يصغوا إليه؟ تحرك، ناظراً إلى إنغراثيا النائمة إلى جانبه، وشعر مرة ثانية برغوة الغضب والعجز تتصاعد في أحشائه. من غير المجدي أن يغضب. قرر أن يكظم ما يعتمل في أعماقه حتى لا يزعزع إنغراثيا. قال لهم عدة مرات: متى ما أهملتم جانب الحذر، ستصادفون مادة قاتلة، وتتخبطون بها دون أن تدركوا ذلك، لهذا السبب حافظوا على ارتداء البزات والأقنعة والقفازات. خاب سعيه. يعد الجهل واحداً من الأشياء التي يصعب تجاوزها، خاصة إذا اعتبرت فضيلة وليس عيباً كما هو الحال مع إنغراثيا. ربما كان هو نفسه المسؤول عن هذا كله، من خلال تشهيره بشياطين الحضارة. إنه يعشق هذا المكان المنسي من الله، ويعشقها ويعشق طريقتها الأساسية والبدائية والحقيقية في العيش. من السخرية أن يموت بهذا الشكل، قال لنفسه. مع ذلك كانت هناك بعض العدالة الشعرية فيه. سيحرك موته مشاعر المجتمع العلمي، وربما سيصبح حدثاً إخبارياً، ويكتسب مظهراً سياسياً. إنه الموت. بدأ وهج الفجر يتسلل عبر الظلام، وثمة شخص ما في مكان ما يسكب ليترات من مزيل البقع على

الحبر الأسود. بدا الموت طويلاً للغاية. ربما سيقومون، بعد موته، باستعراض مختصر لحياته في الأخبار، وسوف تختزل حياته كلها في اسمه وفي الظروف التي توفي فيها. ستنظر العائلات إلى الشاشة وتستمع إلى الخبر أثناء تناولها الطعام، وحديثها عن المشاق اليومية. شعر بقشعريرة وغثيان. خوف. رعب. ما هو المصير القادم؟ كم تبقى من الوقت قبل أن يحل الظلام على كل شيء، قبل أن يتلاشى الإحساس الأخير. لم يكن يخشى الجسد، قدر خشيته على الوعي. غالباً ما كان يواجه صعوبة في إقناع نفسه بأن الوعي يمكن أن يتوقف في ساعة معينة، مثل ساعة دون رقاصها. وتضرع «رباه، أوقف كل هذا». مرر يده على بطنه في محاولة لتخفيف التشنج والألم. نظر إلى يده المضيئة. شعر بالغضب مرة أخرى وراودته رغبة في البكاء. الحياة لا تستحق الكثير، شأنها في ذلك شأن سياقات العالم. اعتادت الكائنات البشرية على رؤية الموت. لم يعد الموت غير الإنساني لغريب أو مئات الغرباء، يشكل رعباً مفرطاً لأحد. لم يعد الكثيرون يولون اهتماماً لموت أولئك الذين يسكنون في هذه الأنحاء. لذلك، كان من العسير للغاية جعل إلقاء المواد المميتة في القمامة، جريمة يعاقب عليها القانون، مادامت الدول الغنية غير ملوثة، وليس من شأنها أن تؤثر فقط على أولئك الذين كان الموت السابق لأوانه ضمن جدول حياتهم، في كل الأحوال. ما الفرق إن ماتوا بطريقة أو بأخرى. لا يمكن للعالم «المتحضر» أن يعترف بذلك بالطبع، لكن هذا ما يرزخ في خضم تعليلاتهم.

من السخافة أن يفكر في صدى موته. مع ذلك، فإن داء تخيل جنازة المرء أمر طبيعي للغاية، خاصة إذا شعر بأنه سيموت قريباً. ما الذي سيقوله الأصدقاء والأعداء.

سار الببغاء على الأرض ساحلاً قوائمه، بحيث أحدثت مخالبه الطويلة ضجيجاً بلاستيكياً عليها. اعتاد أن يوقظ إنغراثيا كل يوم بنقر رأسها برفق، واعتادت أن تسمح له بمداعبتها لفترة أطول. رآه موريس يقترب. رأى عيني الطائر. ما الذي يدعوه إلى منعه من تسميم نفسه أيضاً؟ قرر أن لا يقوم بشيء يحول بينه وبين النقر على رأس صاحبته اللامع. لكنه لم يكن قادراً. مد يده المعدنية في نهاية الأمر ورفع الببغاء عن الأرض. حمله إلى طرف الغرفة، بعيداً عن إنغراثيا.

ثم جلس أمام جهاز الاتصال الخاص به وبدأ يضغط على بعض الأرقام.

***

في الجناح المقابل للمبنى، استيقظ رافائيل فجأة مرعوباً. كانت ميليساندرا نائمة إلى جانبه نوماً مضطرباً. دفن رافائيل وجهه بين راحتيه. يا لها من مأساة، فكر، يا لها من مأساة مروعة! ويمارسان الحب طوال الليل؟ قرأ في مكان ما أن الغريزة الجنسية تغذيها الكوارث. غريزة البقاء على قيد الحياة عزلت الدماغ الجوفي. كان جسده يسخن وقلبه يضخ الدم بضراوة، نابضاً بشدة قائلاً: ها أنذا، ها أنذا. النهار على وشك البزوغ. في حالات مماثلة، كان يبدي كامل استعداده لتولي المسؤولية. وهكذا كان الأمر مع لوجو، إذ قام بعمل جميع إجراءات دفن الصبي، واعتنى بعائلته، مطهّراً بذلك نفسه من الذنوب، مما جعل العائلة ترتاح لوجوده بينها. كان يعتقد أنه يجب دفن الحاوية التي تحتوي على المسحوق المشع. من الممكن دفنها في أسرع وقت وتسييج المنطقة. كان موريس على علم تام بما يمكن أن تكون عليه الأعراض الجسدية وماذا يفعل لتخفيف الألم. قال له إن الحمض النووي سيتحول ذاتياً، وتُصاب الخلايا بالجنون. كل ذلك سيكون سريعاً، وعليه أن يقوم بتصويره، قال لنفسه، والاستعداد لهذه المهمة، وتغطية الأخبار. الطيران فوق المأساة مثل النسور والانقضاض على الجيفة. كان يكره مهنته.

نهض وأطلّ من النافذة. كان الفجر يشرق فوق المعادن الخردة، وكتل إطارات العجلات، وإطارات النوافذ، وجثث الثلاجات، والمطابخ، والألمنيوم، والمحرقة، وأشجار النخيل التي استعادت لونها الأخضر الذي ابتلعه الظلام. طفت نظرة رافائيل فوق الفناء المأهول بأشياء غير حية، مقبرة للحاجيات التي ابتكرتها البشرية وتخلصت منها دون تردد. وتخيل الحياة التي كانت تلك الأشياء جزءاً منها، والكلمات التي كانت تثب فوق أسطحها الباردة الصامتة. وفكر في غضب ميليساندرا، وفي أولئك الذين سيدفعون ثمن ما كان يعتبر تطوراً، وتحضراً، وتقدماً، وثروة، وقوة شرائية لاستبدال القديم بالجديد والحديث. أرواح أصبحت ضحية للنور، للطاقة التي تحرك هذا كله، والتي منحت الحياة لما بدا من النافذة، ميتاً وعديم الفائدة تماماً.

الفصل السادس والعشرون

لم تكن هناك طريقة لغسل الجسد. حاولت أن تستخدم المنظفات تحت الدوش، لكن بشرتها لم تنظف، وظلت متوهجة في عتمة الحمام. كان موريس جالساً في مقعد المرحاض، ينظر إليها بحزن. أخبرها أن لا جدوى من ذلك. ترجاها واستحلفها بالله وبجميع القديسين وجميع الشياطين، أن تصدقه.

كم أبلغ من العمر؟ سألت إنغراثيا نفسها، لقد ضيعت الحساب منذ فترة طويلة. توقف نمو جسدها ذات يوم وما عادت تشيخ، بعد أن كان يشغل حيزاً من تفكيرها. «كم تعتقد عمري؟» سألت موريس وهي تعاود سكب المنظفات على رأسها. «لم يهمني هذا الأمر قط» أجاب وهو يضع أصبعي الإبهام على عينيه، ويضغطهما في حركة ضجر. «ماذا يهم، إنغراثيا! ماذا يهم كم عمرك؟»، قال لها. لكن العمر كان يهمها بالطبع. من الأفضل أن تموت بعض الفئات العمرية المعينة دون غيرها. كان يعتقد أنه مهما كان عمرها، فقد عاشت طويلاً بما يكفي. ربما يكون كافياً. يبدو أن الحياة مكنتها من توفير منفذ مشرّف لنظام الإفراز الداخلي الذي كانت تعاني منه، والذي من المحتمل أن يكون قد حافظ على شيخوخة عملاقة وحيدة. مؤكد أن الموت لم يكن أحد أكبر مخاوفها، بل مشكلة الأولاد، الأصحاء منهم والمرضى، ومشكلة تجارتها وإدارتها. لتترك الحبل على الغارب. حان الوقت لتفكر في نفسها، أن تمنح نفسها وقتاً أكثر للتفكير في ذاتها، في اختفائها الشخصي من عالم الأحياء. الغريب في الأمر أنها شعرت بالإثارة، كما لو أن فكرة التاريخ المحدد، والوقت المعين، خففت من الضيق الذي طال أمده. لم يخطر ببالها قط أن تجد في فكرة الموت، سعادة، لذلك لم تشعر بالإحباط

ولا بالغضب. كانت هادئة. الأمر ذاته يحدث حين تتهيأ لرحلة طويلة، فتعمل على ترتيب المنزل قبل مغادرته. حاولت تمرير المشط على شعرها لكنه كان صلباً ويصعب التحكم به. أخبرت موريس أن عليها أن تقصه. افترّت شفتاه مرة ثانية، عن ابتسامة حزينة برقت على محياه الأسود المتوهج.

– لديك على الأقل ابتسامة مشرقة –قالت إنغراثيا– يا لروعة تأثيرها!

لن تُظهر فاجعتها أمام أي شخص، حتى مع موريس. يكفيهما المأساة التي هو فيها الآن. عادت إلى غسل جسدها بالصابون. في أعماق قلبها ووجدانها، لم تصدق كل ما قاله. لقد أرادت أن تمنح الماء فرصة لغسل أقل ما يمكن من المادة العالقة على جلدها التي قارنها هو قبل لحظات بالوشم. على أية حال، للماء مفعول جيد بعد ليلة من الأرق. كان الاستحمام إحدى ملذات حياتها. لم ترغب في الخروج من الحمام. كانت في الحقيقة تخشى أن تواجه الأولاد مرة ثانية. مؤكد أن الموت في فاغواس لم يكن حدثاً عظيماً، إذ لا أحد يتوقع أن يصل إلى الشيخوخة، أو أن يخطط لمستقبل بعيد المدى. هذا ما لم يستطع موريس أن يفهمه لأنه جاء من مجتمع يعتبر الموت مصدر قلق، والناس يسعون بكل جدية واهتمام من أجل البقاء على قيد الحياة أطول فترة ممكنة. لكن الأولاد ينتظرون بالطبع موتاً بطولياً، وربما تكون هذه هي مهمتهم: أن تُعدّ لهم طريقة مُشرِّفة للموت، لا أن يستهلكهم الإشعاع ويُنهي أظافرهم وشعر رؤوسهم ويُنهيهم كلياً مثل النار التي تأكل نفسها بنفسها.

– يجب أن نجد طريقة ملائمة أكثر لموت الأولاد، طريقة تناسب أعمارهم –قالت أثناء خروجها من الحمام وهي تلف منشفة حول جسدها وتعصر شعرها لتجفيفه– في هذا البلد، لا يموت الشباب في الفراش.

لم تكن تريد أن تنتبه عائلة إسبادا إلى أي شيء. لابد أن يبقى الأمر في غاية السرية. من النافع أن خوسيه لم يكن ملوثاً، وعلى اطلاع تام بالعملية كلها، مثلها بالضبط، على الرغم من أن إسبادا سيحاولون محاصرته بالطبع وسيكون من العسير عليه أن يدافع عن نفسه حالما يتوقاها الأجل.

كان موريس ساهماً، يستمع إليها جزئياً. واصلت وُضوءها، وغسل أسنانها، ثم قامت بربط شعرها بمنديل. لاحظت أنه كان واهناً يفتقر إلى

القوة، وحزيناً للغاية. تساءلت، هل يحب الحياة لهذه الدرجة؟ انزلق سروالها أسفل ساقيها. لم يكن الأمر كما يُظن. كانت واعية لما تفعله. بعد تصرفه الغبي الجنوني، بتلطيخ نفسه لمشاركتها قدرها، لم تشكره على هذا الفعل حتى، وتظاهرت أنها لم تلاحظ. ربما كان يتوقع منها أن ترتمي بين ذراعيه، لكن عمله هذا أثار حفيظتها بدلاً من ذلك. كان من الممكن أن تصفعه كما فعل بها، لكنها فضلت ببساطة أن تبقى صامتة. قررت مع نفسها أن تسامحه، وأن تقبل الانتحار كإحدى تضحيات الحب. لكن عمله كان سخيفاً. مسكين موريس، فقير، إنسان مسكين.

ندم موريس لأنه لم ينتبه لذلك. قال لنفسه إن هذه هي الحياة. لم تكن إنغراثيا قد لاحظت تكريمه لها، وقراره في أن يضحي بنفسه من أجلها. لم يكن قد قام بهذا كله من أجل أن تقر بحبها له، ولم يفكر في ذلك مطولاً حتى. بدا له أنه من الطبيعي أن يقوم بهذا الفعل. أن يموت معها، ومع الأولاد الذين كان يشاهد في وجوههم باستمرار، وجه الابن الذي لم يره قط. لكنه اشتهى الآن أن تقر بحبها له، بعد أن رآها ترتدي أجمل ملابسها: بنطال الجينز الأزرق، قميصها ذو المربعات والشال مربوطاً على رأسها. إذا لم تكن واعية لما هي عليه، فقد بدت حركتها فجأة رومانسية، وساحرة. أما بريق بشرتها، فقد صقل وشحذ وحدتهما المتبادلة، بدلاً من أن يقربهما بعضاً إلى بعض ويمنحهما مصيراً مشتركاً.

– أنت تفكر أنني يجب أن أفعل شيئاً... –سمع صوت إنغراثيا من الصالة بينما كانت القهوة تغلي على الموقد– الأحرى بك أن تخبرني به، لا أن ترنو إليّ بهذا الوجه المُطالِب.

أكد لها أن لا شيء من هذا القبيل. قال إنه في صدد تخيل الموقف فحسب. لماذا تعتقد أن ما يفكر به الآن يخصها هي بالذات، حول ما فعلته وما ستقوم به. كيف أرادت أن يكون له مظهر مختلف في خضم تسارع الأحداث التي لا يمكن الاستخفاف بها.

– وأنتَ يا موريس –قالت إنغراثيا التي عادت فجأة تحمل وعاء القهوة في يدها– لماذا نثرت على نفسك المسحوق وأنت تعلم أنه سيقتلنا؟

اقتربت منه، ووضعت وعاء القهوة على المنضدة. عانقته وغمرته برفق.

- كيف يمكن أن تفعل شيئاً كهذا، يا حبيبي الأسود الوسيم؟

أغمض موريس عينيه، متنفساً رائحة الملابس النظيفة المألوفة، وجسدها المُتحمم حديثاً، والرائحة المعدنية الخفيفة لذراعيه المتوهجتين.

***

استيقظت ميليساندرا. مررت يديها على رأسه. نهضت وجلست على الأرض مرة أخرى. أثنت رجليها ووضعتهما على صدره، بينما كان ظهرها على الحائط، ووجهها نحو النافذة حيث كان رافائيل مستلقياً. لماذا لا يمكنها أن تتراجع وتتنازل عن الحياة التي تعيشها الآن وتُنهي كل شيء؟ ليتها تستطيع أن تحذف بعض المساحات من حياتها. لكن حين يعيش المرء الأحداث أولاً بأول، يصبح جزءاً لا يتجزأ منها ولا ينفصل عنها، تماماً مثل خيط العنكبوت الذي ينبت من بطنه ليقنص به ويوقع فريسته في شباكه ويغلق نفسه عليها في أحشائه.

استدار رافائيل وبدأ يتحدث لكنها بالكاد تسمعه. مع كثير من التفاصيل، كان يتمنى بطريقة سحرية، أن يسيطر على الموقف. لكنه أدرك أخيراً أنها غارقة في التفكير بعيدة عنه.

- لم تجيبيني -قال- علينا أن نتفق على ما يجب القيام به.

- لا أعرف ما يمكننا أن نفعله لمساعدتهم -أجابت- لابد من التفكير بعمق. لا نستطيع أن نخدع أنفسنا بالاعتقاد أن هناك الكثير لنفعله.

نهضت ميليساندرا ونشرت الملاءات على الفراش.

- لنذهب إلى مكان موريس وإنغراثيا -قال- ونر ما يحتاجون إليه.

خرجا من الغرفة. كان نشاط الأولاد في الفناء حثيثاً. أولئك الذين قاموا بإفراغ الحاوية على الرصيف، في الليلة الماضية، هم أنفسهم الذين ولجوا البناية ساحبين عربات اليد وأكياس القمامة. قامت مجموعة منهم بقطع الأسلاك من أجل فتحها وتصنيفها. رائحة القمامة الجديدة نافذة جداً. لاحظ رافائيل أن الأولاد ارتدوا البدلات أخيراً مع القفازات والأقنعة. اعتبر

أن القيام بالاحتياطات اللازمة بعد فوات الأوان، وبعدما لم يعد هناك مجال لإصلاح شيء، من العادات البشرية السلبية.

هذا المشهد أجّج شعوره بالذنب. نام وهو يشعر بالذنب، وعند استيقاظه الآن، كان الشعور نفسه يلاحقه من جديد. قال لميليساندرا في الليلة السابقة: «لا يمكن أن تحكمي على مجتمع ما بناءً على هذه الواقعة». الشعور بالذنب لا يخفف من الأمر شيئاً، لكنه مع ذلك كان هو الممثل الوحيد للرفاهية والإهمال. حالة موريس مختلفة، لأنه اختار أن يضحي بنفسه أيضاً، من خلال الموت بصحبة لصوص النفايات المعوزين.

حدق في الأولاد الذين أصيبوا بالتلوث ولاحظ أن واحداً فقط من بينهم كان يقف جانباً، يفرك ذراعيه بالصابون، وبقربه دلو مليء بالماء. ظن أن الجميع سوف يتلوثون أيضاً. مَن الذي فرض الحجر الصحي؟ ولو أنه ربما، لم يكن أمراً ضرورياً. موريس يعرف كل شيء. كانت ردة فعله تحمل ذات الجبن المألوف لجيله، الذي انتهى بتجزئة العالم إلى أصحاء ومرضى، إلى الذين يمتلكون والذين لا يمتلكون. أكدت ميليساندرا أنه يفضل الهروب على مواجهة الألم. كان مخرجه الوحيد دائماً هو التملص، والانشغال، واستعادة السيطرة بطريقة ما.

وجدا موريس وإنغراثيا متعانقين أمام الطاولة وأكواب القهوة. طغى ضوء النهار على الوميض الفوسفوري لليلة السابقة. كان السيزيوم يشع من بشرتها كأنه طبقة رقيقة من الطلاء الزيتي خطتها بلا مبالاة ضربات فرشاة غير متساوية. كانا يشبهان شخوص الكرنفال: المرأة الضخمة بيديها الكبيرتين، والنظرة اللطيفة إلى حد كبير مصحوبة بتواضع مكتسب حديثاً، إلى جانب الرجل بذراعه المعدنية اللامعة والابتسامة المختنقة المحددة بلون أزرق باهت.

قال رافائيل وهو يتوجه إلى موريس إن عليهم أن يفعلوا شيئاً ما. لو شرح له الموقف بالتفصيل، لتمكن من الاتصال بناشره، وتوثيق الحدث، وإعلام المسؤولين الذين سيقومون، إضافة إلى ذلك، بالبحث عن الأدوية، أو أي شيء يمكن أن يخفف عنهم، وبذلك يواجهون المصيبة بالاشتراك مع الآخرين.

- يبدو لي أنه من الضروري دفن تلك المادة في الوقت الراهن - قال.

أبدى موريس موافقته أثناء عودته إلى مكانه. مرر يديه على بنطاله. بدأ جلده يحترق. كان يشعر بالغثيان.

- يجب الحصول على مغذيات وريدية - قال.

***

كان مساءً يعج بنشاط محموم. انتهوا من إفراغ الحاوية، ولكنهم توقفوا عن فتح الرزم. كان الأولاد الأصحاء، الذين جرى إبلاغهم بما حدث مؤخراً، في حالة من الذهول، وشرع بعضهم بالبكاء ومواساة الآخرين. اصطحب موريس خمسة أولاد مُصابين وأخذ على عاتقه حفر خندق عميق، في الجزء الخلفي من الفناء، وتغطية جدرانه وأرضيته بخردة معدنية. وضعوا الأسطوانة هناك مع المسحوق المميت ثم قاموا بتحويط مربع الأرض بعلامات الخطر. ذهب خوسيه وميليساندرا إلى المستشفى وحصلا على المصل اللازم للحفاظ على ترطيب المرضى السبعة، الذين كانوا يعانون في المساء من القيء وآلام في المعدة، إضافة إلى حروق جلدية. تكفلت ميليساندرا بتحويل إحدى الغرف إلى مستوصف. وبناءً على استشارة موريس وصديقة إنغراثيا الممرضة، أُعطيت الجرعة الأولى من المصل للمرضى.

لم يتمكن الألم ولا الدوخة من إيقاف التفكير الدائم لإنغراثيا بهم. كانت تتأمل وهي مستلقية على السرير كأنها منومة مغناطيسياً، قطرات السائل الوريدي تنزلق عبر الأنبوب البلاستيكي المربوط بذراعها.

خلف النافذة، بدأت الشمس تتلاشى بين أشجار النخيل. انتابتها رغبة في البكاء، وشعرت بحنين أثاره غروب الشمس، فيما كانت عيناها اللتان بالكاد تفتحهما، ترصدان نغمات النهار المتغيرة. اشتاقت إلى والدتها. أدركت أنها إذا مكثت هنا دون أن تفعل شيئاً سوى الانتظار، فسينتهي بها الأمر إلى البكاء، وتلين عظامها. أفضل وسيلة لتفادي الإحساس بالألم هي الموت في أسرع وقت ممكن، قبل أن تصبح شيئاً آخر، مادة رخوة، طريحة الفراش، أو نائحة. وقررت عدم الموت في السرير. لا هي ولا أولادها سيموتون هكذا. وإن كان هناك شيء إيجابي يمكن استخلاصه من هذا اليقين الكامن في معرفة

عدد الأيام المتبقية، فهو عدم الاهتمام للحياة والنظر إلى الأمور من منظار منير، دون خوف. سواء كان سهواً، أم حادثاً، أم قدراً، فإنها فضلت على حين غرة أن يموتوا موت الأبطال. لا يمكن إهمال فرصة الموت البطولي. كان من المفترض أن يتم استغلال الموت بشكل جيد، وليس الحياة. من غير الممكن إهمال الأمر. ما كان ليخطر ببالها قط ذلك، لو لم يحدث ما حدث. لم تكن لتفكر في المغامرة بحياتها ولا بحياة أولادها في مهمة يبدو جلياً أنها غير منطقية. لكن فكرة إنهاء عائلة إسبادا ظلت تطاردها منذ فترة طويلة. ما إن تحاول أن تنبذها حتى تراها تظهر وتطفو على سطح تفكيرها بثبات مستمر. كثيراً ما كانت تتخيل حين تكون وحدها ودون أن تشارك أحداً في هذا الأمر، ما سوف يحدث، وما هي السيناريوهات التي ستترتب على ذلك، في حال اختفاء عائلة إسبادا، وتخلص الدولة من شره الإخوة النهم الوبيل. اعتقدت أن موريس لن يوافقها رأيها هذا، لأنه كان يعتبر القتل والجريمة عملاً مقيتاً. إن امتداد كرهها لعائلة إسبادا لا يكمن سببه في كونهم المسؤولين الفعليين عن كارثة البلاد فحسب، ولكن لأنهم كانوا يغذونها ويتغذون منها دون أدنى شك أيضاً. كانوا يُطعمون الوحش، ويعيشون من أجل إطعامه. لولاهم، ما كان هناك مَن يضع الحطب على النار. ولكان جيشهم قد تفكك، وسقطت الحكومة التي لم تكن أكثر من دمية من تصميمهم، ولتفرقت الجيوش الصغيرة في حالة من الارتباك، ولتعززت تبعاً لذلك المنظومة المجتمعية. حينئذٍ ربما ستتمكن ميليساندرا ورافائيل من الوصول إلى واسلالا التي ستتأكد باكتشافها، صحة الفلسفة التي كانت تنعش المجتمعات. ولكنها مقتنعة بأن لا أحد سيتمكن من الوصول إلى واسلالا ما دامت عائلة إسبادا موجودة. كانوا سادة البلبلة. عملياً كان من المستحيل أن يتخلص أحد من شباكهم، وإلا سينتهي الأمر به، منهكاً، إلى الدوران في حلقة مفرغة. من المؤكد أن البلاد ما تزال حتى هذه اللحظة، تنصب الفخاخ لرافائيل وميليساندرا. فخاخ ضُبطت بدقة صانع الساعات، بحيث لن يستطيع أحد أن يكتشفها أو يتعرف عليها. كانت قد رأت في المنام أن معقل عائلة إسبادا تأكله الانفجارات والنيران وصار يتطاير أشلاءً، لكنها أدركت الآن أنها مجرد أحلام، وليست سوى نتاج لرغباتها. وفكرت في ضرورة إقصاء

موريس. لكن لا، رددت مع نفسها. لا يمكن أن تتخلى عنه. عليه أن يقرر بنفسه. انتظرت بفارغ الصبر انكماش كيس السائل البلوري على نفسه وبقاء آخر قطرة متأرجحة في الوعاء الصغير. نادت على الممرضة وطلبت منها إزالة الإبرة. قالت لها إن أمامها أشياء لتنجزها، أكثر أهمية من الاستلقاء على ذلك السرير.



الفصل السابع والعشرون

في أقل من أربع وعشرين ساعة، رد موريس أنه لا يجب أن يفكر في أمر اختفائه فحسب، بل في اختفاء الآخرين على نحو عاجل. لقد عظم الأمر عليه، ولا قدرة لديه الآن على الدخول في مناقشات مطولة.

عادت إنغرانيا للاستلقاء عل الأريكة، وحاولت جاهدة أن تتظاهر برباطة الجأش حتى لا يبدو عليها التهور والارتباك الذي اكتسحها منذ أن سيطرت عليها الفكرة. أدركت أن الوقت يتقدم في غير مصلحتها، وينهش جسدها. إذا لم تبادر بسرعة، فلن تكون لأحد القوة على تنفيذ خطتها.

كان موريس ينظر إليها بعينيه الحمراوين وشفتيه الشاحبتين الباهتتين اللتين يحيطهما لون بنفسجي خفيف، بقلق. كانا يتحادثان من مكانيهما دون حركة تقريباً، سوى الجفون التي ترمش حين تداهمها آلام المعدة أو الغثيان.

قالت إنغرانيا إن المسألة لا جدال فيها، لأن الخيار واضح. ثمة أوقات في حياة الإنسان، يضطر فيها إلى القيام بدور الإله. وهذا ما حدث معه. ربما لأنه كان قد تخلى عن قرار الليلة الماضية، بالانتحار؟ الحياة لم تكن هبة إطلاقاً. إذا كانت حياة الإنسان تعني موت الكثيرين، فإن تصرف البعض دفاعاً عن الذات، له ما يبرره. أن يقتل أحدهم شخصاً ما قبل أن يبادر الآخر إلى قتله، ظاهرة مقبولة أمام أعين العدالة. فأفراد المجتمع لديهم الحق أيضاً في حماية أنفسهم. ربما ستتغير الأمور عما هي عليه الآن، وربما ستنشأ في هذا المجتمع حالات نكران الذات والمروءة، في حالة عثور ميليساندرا ورافائيل على واسلالا فيما بعد، ولكن ما دامت عائلة إسبادا على قيد الحياة، فلن يكتشف أحد واسلالا، ولا حتى ميليساندرا نفسها. لابد أن إسبادا كانت زرعت الطريق فخاخاً.

– الأمر غير منطقي. أنتِ تحاولين تبرير ما هو غير عقلاني – قال موريس وهو يمرر يده على رأسه، بعينين مغمضتين.

بالعكس، أكدت من جهتها، الأمر أكثر من عقلاني، إذ لازمها منذ فترة طويلة. كانت تشعر بالمسؤولية تجاه أولئك الذين ظلوا معها. ستقوم عائلة إسبادا في وقت قصير بتدمير ما استغرقت في بنائه سنوات. لم تكن متعجرفة قط حين فكرت في تأسيس مجتمع، ولا يمكن أن تستغني عن هذه الفكرة. كان لعائلة إسبادا متسللون حتى في المجتمعات التي تعمل بشكل صحيح. كان عليها دائماً أن تجهض محاولات المواجهة بين قادة المجتمع، تلك المواجهة التي ابتكرتها عائلة إسبادا من أجل تأجيج الصراعات فيما بينهم. لم تكن تخدع نفسها حتى ظنت أن مكانتها –الجسدية أو المعنوية– هي التي سمحت لها بالتوسط والمحافظة على قدر ضئيل من التوافق. كانت سيطرتها على موارد القمامة، والاستقلالية التي تمكنت من إرسائها على مدى سنين، هما اللتين منحتاها السلطة. حين يتوفاها الأجل، ستنتقل القمامة إلى أيادي عائلة إسبادا دون أدنى شك، وفي ذلك إنهاء للمنظومة المجتمعية، وتلاشٍ لأمل فاغواس الوحيد في إصلاح ما تقطع من نسيجها ذات يوم إرباً إرباً. كانت فاغواس تحيا حياة القرون الوسطى، وكانت هي تخطط لمبارزة أو حملة أو عمل يشبه عمل «أشباح ويبلي».

– هذا هو! هذا هو! –صرخت فجأة وهي تنهض كأنها متلبسة بروح أرخميدس– يوركا.

سيكون عملاً سحرياً، قالت وهي تضغط على الكلمات، غير قادرة على مطابقتها مع الإيقاع المتسارع لأفكارها. لن يعرف أحد أنهم يتوهجون في الظلام، وأن من يراهم سيعتقد أنهم مجرد أشباح أو كائنات من العالم الآخر. من الممكن أن يدهنوا أنفسهم أكثر، بطلاء أجسادهم بالكامل حتى تشع في الظلام، على مرأى ومسمع الجميع، ويدخلوا إلى ثكنات عائلة إسبادا كما لو أن الأمر عبارة عن موكب جنائزي، أو مبعوثين لأشباح لا يجرؤ أحد على قطع الطريق عليهم. سيتقدمون بطلب مقابلة، وبمجرد أن يجتمعوا بهم، سيحدث ما ارتسم في مخيلتها أكثر من مرة: ستطلق العنان للمتفجرات.

- يكفي أن ينتسب شخص واحد فقط إلى «أشباح ويويلي» حتى لا يشك أحد في أنهم هم الذين قاموا بتطبيق العدالة. سيكون عقاباً ربانياً، وعلامة جلية -أضافت- على أن الطريق إلى واسلالا مفتوح. أعتقد أن الأمر مضمون -قالت وهي تجلس مستجمعة أنفاسها من جديد، بعد أن استبدلت الحماس فجأة بشيء من النشوة الصوفية- أظن أن ميساندرا ورافائيل سيتمكنان من الوصول إلى واسلالا في نهاية المطاف.

- لم ترق لي مسألة التفجيرات - قال موريس وهو يستلقي مرة ثانية إلى الخلف، ويغمض عينيه من جديد.

- ستكون سريعة - قالت إنغراثيا.

- بالضبط - أجاب موريس.

ردد كلمة المتفجرات بينه وبين نفسه. إنها الغابة. لفترة طويلة من الزمن، ظلت الحدود بين الشر والخير في فاغواس، مسألة غامضة. لكن... الموت عن طريق الانفجار، في وقت بدأت تغريه فكرة استقبال الموت، مثلما يستقبل شخصاً بعث له رسالة يخبره فيها عن زيارة حتمية، أو قدوم شخص لأجل أن يسهر على راحته ليلاً، ويهتم به وينتظره مثل حبيبة قلقة بملامح مُتعَبة. لم يكن يمتلك روحاً بطولية، ولم يكن يحترم البطولة كثيراً، إذا ما اعتبر العمل الذي كانت إنغراثيا تخطط له، بطولياً. بدا له على النقيض من ذلك، عملاً يائساً يغذيه الخوف من مواجهة الموت مثل معظم البشر: موت مُذل لا حيلة فيه، ولا مفر منه، يسحق أية فكرة مفادها أن الإنسان يمكن أن يتحكم في حياته الشخصية، أو أن يجبر ضميراً فخوراً أن يعترف في لحظاته الأخيرة بالبون الشاسع لضعف وعجز فصيلته. الموت دون مجد، سيجعل منه أكثر بطولة. ليتقبل الوحدة المطلقة التي تحيطه حالياً، ويتحلى بالشجاعة لمواجهة الموت بكرامة.

كان الضيق قد تلاشى من محيا إنغراثيا. مثل تمثال رائع وهادئ جلست أمام الضوء، كأنها تستعد للخلود.

- قد يزعجك كلامي هذا يا إنغراثيا، لكنني أعتقد أن الخوف هو الذي دعاك لوضع هذه الخطة وليس حباً بـ«المجتمعية». أنتِ تبحثين عن

السلطة وتولي زمام الأمور من أجل أهدافك الشخصية، لذلك تشعرين أنك أقل ضعفاً. إذا انتهت «الاتحادية» بموتك، فإن فناء إسبادا لن يصلح الأمر. وسيكون تصرفك شبيهاً بأفعالهم. ما الذي يمكن أن تنتظريه من هذا العمل سوى المزيد من العنف؟

– سيكون هناك فراغ، ويمكن ساعتئذٍ فتح صفحة بيضاء والبدء من جديد.

– هل تعتقدين حقاً أن هذا ممكن؟ التاريخ لا يعترف بتجاوز اللوثة والبدء من جديد. لنفكر في الموضوع ليوم أو يومين آخرين على الأقل ولنحلل النتائج المحتملة.

وضعت إنغراثيا رأسها بين يديها. لمست شعرها الخشن.

تساءلت مع نفسها، ما الذي كان يعرفه موريس. لقد جاء من مكان آخر. في فاغواس تعتبر العقلانية ترفاً. شعرت بالغثيان. تلاشت حماستها مثل فقاعة صابون فانية وشفافة.

– هل تعتقد أن بإمكاننا الانتظار ليومين؟ – سألت.

اعتقد موريس أن بإمكانهم الانتظار لفترة أطول. كان عليها أن تدرك الآن، أكثر من أي وقت مضى، أن الحدث نفسه الذي انعكست عواقبه على أجسادهم، كان نتيجة ذلك الخيلاء الذي تملكها والذي جعلها تتحدى الأخطار وتحييها، كأنها الطريقة الوحيدة لتأكيد تفوق النوع يكمن في المخاطرة باستمرار، من أجل تحويل الضعف إلى قوة، تماماً مثل ما كان يجري في تحويل القمامة إلى وسيلة للبقاء على قيد الحياة.

– حاولي أن ترتاحي –قال لها بعد أن هب واقفاً ليغمرها برفق– سأقوم بتفحص حالة الأولاد.

***

– هل جننت؟ –زعق براد في جهاز الاتصال، منزعجاً بوضوح– عليك الخروج من هناك في أسرع وقت ممكن. سوف تلوث نفسك. ألا تدرك الخطر؟ هذا المكان يجب أن يُغلق ويُختم.

– أنا أسير بخطوات محسوبة يا براد – أجاب رافائيل محافظاً بصعوبة

على رباطة جأشه. لا يمكنني أن أترك هؤلاء الناس يموتون دون أن أمد لهم يد العون. العالِم موريس الذي أخبرتك عنه، أكد لي أن الاتصال بهم يصيبنا بأقل جرعة من الريم. سنغلق الحفرة بالإسمنت.

- لكنهم ما زالوا يعيشون هناك. على الأقل، يجب أن تذهب أنتَ وتلك الفتاة إلى الفندق.

- سوف نذهب هذه الليلة إلى الفندق. هل يمكن أن نتحدث عن التقرير الآن؟ من المهم أن تعرف بعض الأشياء.

- والفيلينا؟ ما هي آخر مستجداتها؟

- لابد من الانتظار قليلاً يا براد.

- لا أعتقد أن القمامة السامة يمكن أن تخلق حالة الاضطراب الكبير هذه يا رافائيل. بالأمس قاموا بزرع عبوة في ماين. مجموعة من رجال الدين المتشددين احتجت على فيلم يتضمن مشاهد جنسية حية. أكثر من خمسين قتيلاً. ربما في غضون أيام قليلة ستتمكن من نشر التقرير الخاص بك. شاهدتُ أحد التقارير في وورلدنيت، رسالة من صديقك موريس.

- لا يكفي - قاطعه رافائيل.

- مؤكد لا. سنرى ما يمكنني القيام به.

أغلق رافائيل جهاز الاتصال. كان الضوء يجذب الحشرات. وهو في الممر رأى ميليساندرا في المستوصف، منحنيةً تسقي أحد الأولاد ماءً، بعد أن ألبسها موريس بدلةً صفراء. إن براد على حق. سيتلوث كل شيء. قال موريس إنها جرعة ضئيلة من الريم، وأصر على انتقالهم إلى الفندق في ثينيريا ليلاً والمغادرة إلى واسلالا في أقرب وقت ممكن. رفضت ميليساندرا تركهم رفضاً قاطعاً. الوضع يتأزم ساعة بعد أخرى، والمرضى يعانون بعد أن تفتحت قروح جلودهم. أصيب اثنان من الأولاد بحمى شديدة، بينما كانت إنغراثيا القوية تتقيأ دون توقف، أما موريس فقد غاب عن الوعي بعد الظهر. أخذ الأصحاء يتناوبون على رعاية المرضى. كانوا غارقين في بدلاتهم يتعرقون بغزارة.

سار رافائيل نحو الممر. طاف بينهم مرات عديدة. لم يستطع أن يتقبل

حالة العجز هذه، وأصر على استدعاء طبيب، بيد أن موريس وإنغراثيا رفضا، معتقدين أن الطبيب سيعطيهم العلاج نفسه، ولن يأتي بجديد غيره. إضافة إلى أنه إذا علمت عائلة إسبادا بالأمر، فمن الممكن أن يسعوا إلى تطويقهم، وعمل إنزال على المبنى، وساعتها لن يجدوا ما يفعلونه بسبب عجزهم. يجب الاحتفاظ بالسر، على الأقل حتى يتمكنوا من تجميع فريق مجتمعي موثوق. ذهب خوسيه للبحث عنهم.

في الساعة العاشرة ليلاً، وافقت ميليساندرا أخيراً على الذهاب إلى الفندق مع رافائيل لترتاح بعض الوقت. كان خوسيه قد ترك الدراجة النارية لهما. تولى رافائيل القيادة هذه المرة. احتضنته من ظهره مُتعَبة مُنهَكة. كان المتنزه مظلماً وهادئاً، والشوارع مهجورة. ليالي ڤينيريا متوترة، ولا صوت سوى صدى طلقات متفرقة من البعيد مع نيران مدافع رشاشة. استقبلهم جيمي في الفندق، باهتمام مشفقاً، لأن خوسيه كان قد أخبره عن الحادث.

– أود التحدث معك –قال لرافائيل وهو يتنحي به جانباً– لندعها ترتاح في غرفتها، ثم نجتمع معاً لتناول القهوة.

أخذهما جيمي إلى أفضل غرفة في الفندق، متكاملة، بسقفها العالي وسريرها البرونزي القديم. في الزاوية، كان يقبع حوضا ماء تزين جدرانهما صور زهور، أما المناشف فمطوية بعناية على ذراع الأريكة المنجدة بنسيج حريري منمق. غادر جيمي بهدوء. ارتمت ميليساندرا على السرير، بينما شرع رافائيل بخلع حذائها وملابسها وغطاها باللحاف كأنها طفلة. انتشت بهذا الدلال، وسالت الدموع من مآقيها إثر هذا الحنان. قالت لنفسها إنها إذا بكت الآن، فلن تتمكن من إيقاف دموعها. لم تتذكر أنها شعرت بالهزيمة والوجع من قبل مطلقاً. إن الألم الجسدي الذي لا تصاحبه مواساة، لا يدر الشفقة فحسب، بل الرعب أيضاً من ألغاز الجسد ذاته. أوجاعهم تؤلمها. التعاطف جعلها تشعر بالاضطرام والعطش والغثيان. أغمضت عينيها.

– أنا ذاهب لتناول القهوة مع جيمي – همس رافائيل في أذنها، بينما كان جالساً إلى جانبها على السرير.

وافقت بإشارة من رأسها. ابتسمت له وهي على الوسادة وأغمضت عينيها.

كان الفندق مظلماً، يخلو من الحركة إلاّ من امرأة شابة تقف خلف طاولة الاستقبال تراجع الحسابات تحت شمعة جدارية.

– سيد جيمي في انتظارك – قالت عندما شاهدت رافائيل وأشارت إليه أن يدخل إلى المكتب.

نهض جيمي عندما رآه يدخل. دعاه إلى الجلوس وذهب ليُغلق الباب. سكب فنجانين من القهوة ولم يعد إلى مكانه خلف المنضدة، بل جلس على أحد الكراسي بجوار رافائيل.

– عذراً إن سببتُ لك بعض الإزعاج –قال– لا بد أنك مُتعب للغاية، لكنني أعرف أن وضع أصدقائنا خطير للغاية وأحب أن أمد يد المساعدة.

– أسوأ ما في الأمر هو العجز –قال رافائيل– يصر موريس على أن لا شيء يمكن القيام به. لم يسمح لي بالبحث عن طبيب. يقول إنه وصف لهم بعض محاليل الأوردة، وهم الآن في طور تناوله.

– ثمة شيء يمكن القيام به –قال جيمي وهو ينهض– إنه محفوف بالمخاطر، لكنني أخال أنه يستحق المجازفة ما دام يساعد على تخفيف آلامهم. أنا وسواسي –ابتسم قليلاً– لدي العديد من الموسوعات الطبية. قرأت عن آثار الإشعاع. سيعانون كثيراً، لكن لديّ طريقة للتخفيف من أوجاعهم ...

– كليّ آذان صاغية – شجعه رافائيل.

– الفيلينا. يجب أن نحصل على الفيلينا. لا أعرف إن كانت لديك معلومات عن هذا العقار: إنه خليط من الماريجوانا والكوكايين. ستخفف الماريجوانا من شعورهم بالغثيان، إذ تم استخدامها لعلاج السرطان، أما الكوكايين فسوف ينوّم نهاياتهم العصبية ويخدرها إلى حد ما.

أيقظ ذكر فيلينا، رافائيل. لم يكن يتخيل قبل ثوان أن هذا سيكون مسار علاجات جيمي.

– أعرف عن الفيلينا –قال– تُنتج في فاغواس، أليس كذلك؟

– أُنشئت هنا –قال جيمي وهو يجلس من جديد– توجد مزارع كبيرة من هذا المحصول الذي يُصدر بالكامل. وقد حاول البعض أن يحصل

عليها للاستهلاك المحلي، لكن عائلة إسبادا لم تدخر وسعاً في القضاء عليهم، وحالت العقوبات النموذجية دون أية محاولة للمتاجرة بها محلياً. ماكلوفيو هو رئيس العملية، لكن حتى هو نفسه لا يفلت من السيطرة الحديدية للأخوين. يقال إن المزارع تقع بالقرب من تيمبو، بلدة الأيتام التي تقع على نفس الطريق الذي يُفترض أن يؤدي إلى واسلالا. لهذا السبب منعوا لسنوات عديدة أي شخص يقترب من هناك. كما أشك أنهم يستخدمون نفس المراكب التي تنقل القمامة، لتصدير الفيلينا. الكثير من المعلومات تصلني في هذا الفندق -ابتسم بسخرية- أحد قباطنة المراكب يشرب معي كلما يأتي إلى هنا. أنا أتناول عصير تفاح وهو يشرب الويسكي.

- وهل تعتقد أنني الشخص المناسب للحصول على الفيلينا؟ - قاطعه رافائيل.

- بالضبط. أنتَ تعرف المرأتين الهولنديتين اللتين توجهتا إلى تيمبو. يمكنك العثور عليهما لأن لديهما معلومات عن الفيلينا. شاهدتُ ذات مرة بعض الأوراق في حقائبهما، وسمعتهما تتكلمان عنها. كانتا مهتمتين بالأيتام، وتحدثتا عن تفهمهما لموقف القرية وحرق الأشجار. تناقشتا كثيراً حين كانتا في رحلة سابقة في ثينيريا. جدران هذا الفندق لا تعزل الأصوات بصورة جيدة جداً.

كان رافائيل يستمع ذاهلاً إلى جيمي بوجه النبيل الخالي من التعابير، كوجه أبو الهول، ثابتاً وهادئاً ورصيناً بصمت، يراقب كل شيء، متسلحاً بالألغاز والأحاجي، لتفكيك الرموز. لولا هذا الموقف، فكر رافائيل، ما كان جيمي ليتحدث ويشارك أفكاره مع أي شخص مطلقاً. كان التخفي مهنته، ولابد أنه يعتبره التزاماً تجاه زبائنه.

- تولد لديّ انطباع أن لديك خطة لي -ابتسم رافائيل متأثراً- أنا أصغي.

الفصل الثامن والعشرون

الرجل صاحب الببغاوات التي تقرأ الطالع، اسمه لوكاس.

كانت وظيفته الليلية تكمن في جمع المعلومات اللازمة لدفع الرهانات: نتائج ولادات النساء، والحيوانات الأليفة والماشية. كان هذا العمل يسمح له بالتحرك بحرية داخل وخارج المدينة في عربة قديمة جداً عبارة عن نموذج مصغر لعربة جولف ودراجة نارية، مع قفص طيور يتدلى من السقف النحاسي بأنبوب. حضر إلى الفندق في منتصف الليل لاصطحاب رافائيل.

قال جيمي إنهم سيصلون إلى تيمبو حوالي الساعة السادسة صباحاً ويمكن أن يعودوا بعد ظهر اليوم التالي، إذا واصلوا رحلتهم دون توقف. أكد أن لا أحد سيوقفهم، لأن لوكاس جواز مرور مُتقن. أما بالنسبة لميليساندرا، فسيأخذ على عاتقه شرح الموقف لها والتأكد من عودتها إلى مستودع إنغراثيا دون معوقات.

زوّد لوكاس رافائيل بقميص مبقع غامق وقبعة. ودّعا جيمي وانطلقا.

– تظاهر بالنوم –اقترح بائع الطيور– حتى أوقظك.

أغمض رافائيل عينيه وراح يفكر في الاتجاه الذي اتخذته الأحداث في الساعات القليلة الماضية. ما يزال مذهولاً من المأساة، ومن فكرة السفر مع رجل الببغاوات المتكهنة في عربة مُتداعية بدت له غير مألوفة وبعيدة عن التوقع لدرجة لم يستطع معها إلاّ أن يستكين لمفارقة تقلبات القدر التي قادته إلى الفيلينا.

– ما كنت تتوقع، يا صديقي، أنك ستسافر معي، أليس كذلك؟ – قال لوكاس.

– قال رافائيل: «ليس هناك أسوأ من أعمى لا يريد أن يرى». إنها نبوءة ببغائك.

– قلت لك إنهم لا يخطئون أبداً. التزم الصمت الآن. أفضل ما يمكنك فعله هو أن تنام فعلاً.

أغمض عينيه وانغمس في عالم من الأصوات الغريبة، والصرخات البعيدة الممزوجة بطلقات نارية قريبة. انكمش على نفسه قدر ما استطاع، في المقعد غير المريح. ضغط لوكاس على دواسة الوقود بيد أن العربة لم تحقق السرعة المطلوبة.

– اللعنة على الأولاد الكسالى. ليس لديهم ما يفعلونه سوى قتل أنفسهم من أجل المتعة! – قال بائع الطيور بغضب.

استيقظت الببغاوات. همهمت. شعر رافائيل بصرير الإطارات. يبدو أنهم استداروا في منحنى ضيق. بعد فترة وجيزة من توقف العيارات النارية، عاد صمت الشوارع المهجورة.

– نحن قريبون من الرصيف –أعلن لوكاس– إنه أكثر أماناً.

لم يمض وقت طويل حتى أدرك على نحو مفاجئ أن الطريق المعبدة أصبحت شيئاً من الماضي. كانوا يتقدمون على الحصى، بينما يقفز بين الفينة والأخرى، حجر صغير يرتد على نحاس هيكل العربة.

– يمكنك أن تفتح عينيك الآن. أشك في أننا سنلتقي بشخص هنا في هذا الوقت.

وجد رافائيل نفسه في نفق. على ضوء الفوانيس الشاحبة، خمن أن الطريق غارق في أرض زراعية من كل جانب، لدرجة أن الأشجار كانت تغطي رؤوسهم.

– يبدو أنه نهر جاف – قال.

– بالضبط –ابتسم لوكاس بوجهه الطويل المتجعد– إنها قناة قديمة. كانت ذات يوم نهراً تصب فيه المياه النازلة من السلسلة الجبلية. الطريق غاية في الجمال أثناء النهار. يذكرني دائماً ببداية العالم. كان لوكاس يحب الشعر والشعراء. في إحدى محادثاتهم التي بدأت بنقاش حول الجنة الأرضية

واستمرت بين فراشات الليل والطيور التي حلقت على حين غرة من جانب الطريق كأنها حمالات الجنائز، قال إنه يعتبر الشعراء أنبياء. وأضاف أثناء قيادته العربة ببطء، أنه بعيد عن السياسة والخصام، لكنه يحلم بواسلالا. يكفيه أن يعلم أن مجموعة من الشعراء هي التي ابتكرتها وأسستها. أكد له أن جد ميليساندرا كان رجلاً عظيماً. لقد كبروا جميعاً بنصوصه النثرية وقصائده التي أظهرت أحاسيسه المُبهرة وجمال فاغواس، حتى في بؤسها. لهذا السبب كان الناس يتغاضون عن أي شيء إلاّ الشعر. شخصياً، كان يؤمن أن واسلالا لابد أن تكون جمهورية الحكماء العاطفيين.

– لأنك تعرف أن الحكمة التي تخلو من العاطفة ليست بحكمة. لا شيء يتغير. يجب أن يكون لديك شغف بالحياة. الشغف الوحيد الذي ينتظرني هو واسلالا. لهذا السبب وافقت على مرافقتك. أعرف أنك وحفيدة دون خوسيه تسيران في هذا الاتجاه. لا تعتقد أن القيام برحلة كهذه أمر طبيعي بالنسبة لي. لا يا سيدي، أنا لست ماهراً في المجازفة ولا في المغامرة. لدي عاطفة نحو إنغراثيا لأنها تعيرني كتباً أو تعطيني إياها مقابل تنبؤات ببغاواتي، لكني منعزل، لا أتحيز لأحد. في النهار أقرأ الشعر، واعتني بطيوري، وفي الليل أقوم بجمع المعلومات للمراهنات. لكن إذا عثرتم على واسلالا، أتمنى أن أصغي، فقط أصغي إلى كيفية هذا المكان، وساعتها يمكن أن أموت بسلام.

كانت العربة تصعد أحد المنحدرات بصعوبة. صغيرين كان يراهما الفجر ولا قيمة لهما في سيرهما على حافة الجبل.

ومن الهضبة لمحا الوادي وسقوف القرميد في تيمبو. لم تكن المدينة الصغيرة تبدو على أنها جزء من فاغواس، بل كانت قطعة من بلد سابق، أكثر رقياً ورخاءً، إذ انبثقت أمامهما، من بين الأسطح، أشجار السرو الرشيقة الجميلة مثل الأشرعة الخضراء. كانت الساعة المثبتة فوق برج الجرس الأصفر تشير إلى الوقت، وشوارع المركز معبدة، فيما تدور رؤوس العديد من طواحين الهواء في أطراف المدينة دون انقطاع.

– سنمر على نقطة تفتيش. تظاهر بالنوم. سأتركك أمام الفندق وأذهب

إلى المتنزه لكي أعين ببغاواتي على العمل. تلك هي تعليمات جيمي. ستعرف عمّن تسأل. سأنتظرك في المتنزه ما تبقى من الوقت.

اجتازا الحاجز دون عوائق. يقع الفندق في مبنى دار الأيتام القديم. ما تزال اللافتة معلقة على الواجهة: مقر أيتام القديس بيثينته. اقشعر جسد رافائيل. لم يكن يتوقع أن تكون ردة فعله بهذا الشكل. نادراً ما كان يفكر في يتمه أثناء بلوغه. كانت والدته بالتبني، والدته الوحيدة ببساطة، تردد على مسامعه دائماً أنه يجب أن لا يعتبر نفسه يتيماً أبداً أبداً، لأن اللذين أتيا به إلى الدنيا، كانا قد أتمّا مهمتهما، وينبغي أن لا يجازيهما بالضغينة. وحده الله يعلم بقصتهما وبالأسباب التي أدت إلى انفصالهما عنه. لم يكن رافائيل يؤمن بالكراهية، لكن بالظروف. فبعد كل شيء، فهما فخوران به. كان والداه صديقيه. كانا يعتبران نفسيهما محظوظين لانهما عثرا عليه.

كثيراً ما أطريا على الحب الذي جمعهم واعتبراه رابطاً أعمق من ذلك الذي نتج عن الرابطة الجينية والبيولوجية: حب غاية في العمق. أخبرته أمه أن بعض الأطفال وُلِدوا في الرحم، والبعض الآخر في القلب. لم يحقق رافائيل قط في أصله، كما فعل الكثيرون. لكن راوده الآن، أمام المبنى، إحساس بالهوية، وكانت تلك اللافتة وضعته أمام سفارة وطنه غير الموجود.

كان المبنى رباعي الأضلاع مع ممرات تنتهي في فناء داخلي: حديقة عشبية متواضعة تتناثر في زواياها أربع أشجار نخيل محاطة بالسراخس. احتل الفندق جناحاً منه.

– ابحث عن سيدتين هولنديتين.كريستا وفيرا – قال وهو يقترب من طاولة خشنة بسيطة مصنوعة من خشب الصنوبر.

نظر إليه الصبي السمين العابس من الأعلى إلى الأسفل، ثم التفت ناحية الخزانات حيث كانت تعلق المفاتيح التي تحمل أرقام الغرفة، باللون الأحمر.

– إنهما في الغرفة رقم تسعة في النهاية – قال مشيراً إلى الممر.

تخيل رافائيل أن هذا الشاب يتيم أيضاً. نظر إليه جانباً قبل أن يتوجه إلى الغرفة رقم تسعة. كان لوكاس قد قال له إن الجميع هناك يتامى. قصّ عليه ما حدث في واحدة من أطول الحروب التي تعرضت فيها تيمبو للدمار.

أما الأيتام الذين تُركوا في دار الأيتام، فقد كبروا وأداروا المدينة وتزوجوا بعضهم من بعض. ومن أجل التكاثر، قرروا إنشاء عوائل تتكون من أطفال تركتهم الحروب الجديدة أو الظروف الأخرى، دون آباء، بدلاً من الإنجاب.

مشى أمام صف من الأبواب.كانت الغرف صغيرة، تحوي على القليل من النوافذ الطويلة الرفيعة للتهوية. كم عدد الأطفال الذين ناموا في كل واحدة، على أسرّة مصفوفة في الظلام بلا أبوين ولا مَن يُهدّئ نحيبهم؟ أطفال وحيدون ينامون في ليل يخلو ممَن يمسح عنهم الدموع.

وصل أمام الغرفة رقم تسعة. لقد استغرق الأمر منه بعض الوقت ليستجمع قواه، ويتذكر سبب وجوده هناك. طرق الباب.

الفصل التاسع والعشرون

نهضت ميليساندرا مرتبكة عندما سمعت طرقاً على الباب. فتحته دون أن تسأل عن الطارق إذ اعتقدت أنه رافائيل. كان جيمي. أحضر لها وجبة الإفطار.

- صباح الخير، ميليساندرا - حياها جيمي بعد أن وضع الصينية على الطاولة المستديرة في الزاوية وتوجه لفتح الستائر.

- شكراً جزيلاً. هل لديك معلومات عن رافائيل؟ - سألت وهي تقترب من الصينية التي تفوح منها رائحة القهوة والخبز الساخن.

- كان على رافائيل أن يخرج من المدينة، لكن لا تقلقي. إنه في أمان. لم يشأ أن يوقظك. سيعود بعد ظهر اليوم. أعتقد أننا تمكنا من توفير الأدوية لمرضانا، وذهب ليحضرها.

- الأدويـة؟ أي نوع من الأدويـة؟ نفى موريس وجود دواء فعال لهم - قالت.

- شيء لتقليل معاناتهم، وإزالة الألم. أعشاب.

نظرت إليه ميليساندرا بصمت. تناولت رشفة من القهوة، وشرعت في الكلام فجأة.

- نعم يا جيمي، أعشاب. ممتاز. لا نمتلك الأسباب لتصديق أنهم يعرفون ما لا نعرفه نحن -قالت بسخرية أقرب للنشيج- كان عليك أن ترى موريس يا جيمي. طلى نفسه وهو يعرف جيداً أن المسحوق مُشع. لم يفعل ذلك بسبب حبه لإنغراثيا فقط. أنا متأكدة. لم يكن ليسامح نفسه وهو يراهم يموتون دون أن يقوم بشيء - وضعت الخبز على الطبق دون أن تلمسه.

- من المؤسف أن النبلاء هم السباقون دائماً للتضحية بأنفسهم -قال جيمي ساهماً- سوف تبتهج عائلة إسبادا بهذه المأساة.

- هل تعتقد أن واسلالا موجودة يا جيمي؟

- سمعت الكثير من القصص التي جعلتني أؤمن أحياناً بأنها لابد أن تكون موجودة.

- لكن هل تعتقد أنهم لا يعرفون ما يجري في فاغواس؟ ألا يبدو لك الأمر مُريباً في احتفاظهم بحالة النعمة هذه لعدد قليل؟

- يظنون أن الوقت لم يحن بعد. يجب أن تأكلي يا ميليساندرا -قال حين لاحظ أنها لم تتناول شيئاً- أمامنا أيام طويلة وصعبة.

الفصل الثلاثون

فتحت كريستا الباب. وضعت إصبعاً على شفتيها. اششش.

خلف الباب الموارب، رأى رافائيل، فيرا جالسة على كرسي هزاز وطفل رضيع بين ذراعيها. كانت منهمكة في هدهدته وبالكاد رفعت نظرها لترى مَن القادم. عندما تعرفت عليه، ارتسمت على شفتيها بسمة ملاك عاد إلى السماء.

خرجت كريستا إلى الممر.

– عفواً يا رافائيل، لكننا مثل المغفلات، مثل الفتيات اللواتي يتبارين فيما بينهن على مَن يُنيم الطفل أو يغير حفاضاته.

– هل هو طفل أم طفلة؟

– كنا نرغب بطفلة، لكنه طفل. لم يعد الأمر ضرورياً. إنه جميل جداً.

ابتسم رافائيل وهنّأهما. اتجهت كريستا إلى مجموعة من الكراسي في منتصف الممر، ودعته للجلوس. كانت تتحرك بخفة، كأنها ليست نفسها صاحبة الجسم القوي المتين، الذي بدا الآن ببساطة ممتلئاً وناعماً ولدناً.

– لقد حصلنا عليه قبل يومين، سوف نسميه هانز –قالت– بالكاد يبلغ من العمر ستة أشهر. لقد حزن كثيراً أولئك الذين كان بمعيتهم، حين رأوه يغادرهم، لكن بقي لديهم في المنزل ستة أطفال. كيف وصلتِ إلى هنا؟ –سألت مقطبة الجبين، كأنها استيقظت للتو.

– مسألة يطول شرحها. أعتذر لأنني لا أحمل أخباراً سعيدة –قال رافائيل– لقد حدث شيء خطير للغاية وأحتاج لمساعدتكما.

أشرقت شمس الصباح على الممر، مشعة وأنيسة. كانت أشجار النخيل تُمسك نور الصباح بسعفها وترسمه ظلالاً على الآجر. تشنجت ملامح كريستا حين سمعت الأخبار، وضربت ركبتيها بقبضتها المشدودة.

- أحتاج إلى... من الضروري أن أحصل على الفيلينا. سوف يخفف آلامهم - قال رافائيل.

- أحتاجُ إلى الهواء -انتصبت كريستا واقفة- لنتمشَّ قليلاً. سأخبر فيرا بأنني سأخرج.

سارا في أحد الشوارع الذي تحول في النهاية إلى طريق عشبي ضيق يرتقي إلى قمة تل.

رغم أنّ كريستا قوية، فإنها كانت تلهث عند الصعود. ساعدها رافائيل بأخذ ذراعها. قالت له إن الحديث عن الفيلينا في تيمبو أمر غير مُستَحَب لأنه خطر على الجميع، وموضوع محظور، لا يجب الخوض فيه. كصحفي، عليه أن يكون حذراً، إذ يمكن أن يكلفه حياته. قالت كريستا إنها لا تبالغ مطلقاً فيما ذكرته.

- ولكن هل تعتقدين أن بإمكاننا الحصول عليها؟ -أصر رافائيل- إنغراثيا وموريس والأولاد بحاجة إليها.

مسحت كريستا العرق بمنديل. كان وجهها مائلاً إلى الاحمرار بسبب جهد الصعود.

- أنا في حالة بدنية جيدة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أني أنجبتُ قبل يومين، ما رأيك؟

ضحك الاثنان، ثم سكتا بالقرب من القمة، متأملين البلدة الصغيرة في الأسفل.

- كنتُ يتيماً أيضاً -قال رافائيل- عثر عليّ والداي على مقعد في إحدى الكنائس وتبنياني. أحاول أن أنسى في بعض الأحيان. لم أشعر باليتم قط، لكنني حين رأيت لافتة دار الأيتام اليوم راودني شعور تام بالانتماء. لا أعرف كيف أوضح هذا.

- شكراً على الثقة -ابتسمت كريستا- لم أعتد على ثقة الرجال بي.

ربما سمحت لك حالتك كيتيم، أن تتصرف كإنسان وليس كصحفي - قالت وهي تنهض بصعوبة.مكتبة سُر مَن قرأ

قبل أن يصلا إلى قمة التل بقليل، أشار إليها أن تستلقي على الأرض، لأنهما صارا يسحبان بعضهما بعضاً في آخر الطريق. غطى العشب رأسيهما. كان يهب عليهما نسيم بارد وسط منظر رائع. على الجانب الآخر من المدينة، ارتفعت سلسلة من الجبال الزرقاء من الوادي الأخضر الخصب، فيما تتناثر هنا وهناك أبراج خشبية بدائية.

- يُقال إن واسلالا تقبع بين تلك الجبال -همست كريستا- وهنا فقط، في تلك الأراضي الخضراء التي تراها، مختلطة مع مزارع الذرة، تزرع الفيلينا، المورد الوحيد لهذه المدينة المتضامنة والجميلة التي تعيش على تجارة المخدرات، والإدمان وهزيمة الأنداد -وأضافت وهي تلتفت إليه مبتسمة بسخرية لطيفة- ليس الأمر بهذه الصعوبة بالنسبة لي، لكن عليك أن تعاهدني على الحفاظ على هذا السر. ستدرك أنه لن يمر وقت طويل، إذا كتبت هذا التقرير، بين نشره وبين وصول طائرات شرطة مكافحة المخدرات. سوف يحرقون كل هذا.

- أنا واعٍ لهذه المسألة. لا تتخيلي أنني لا أشعر بالقرف من أن الصحفيين أصبح عملهم محققين بدون أجر. ما هي تلك الأبراج؟

- فيخياس دي ماكلوفيو، التابعة إلى إسبادا. لا يُعرف أين ينتهي البرج ويبدأ الآخر. تيمبو تحصل على استقرارها السلمي مقابل ثمن. سكانها لديهم حرية حركة محدودة. اكتشفنا أمر الفيلينا من خلال حدث عرضي، لم نكن نتوقعه. قام الإسبادا بتهديدنا، وهانز يدفع ثمن صمتنا.

- سنكون جميعاً شركاء في نهاية الأمر.

- مَن نحن لنأتي إلى هنا لفرض الأخلاق؟ -أخذت كريستا نفساً وهي تطرح السؤال- كم عدد المتابعين في قناتك الذين سيثيرهم أمر تيمبو إذا تضورت جوعاً؟ لماذا نسأل الأيتام الذين يعيشون هنا أن يقلقوا من أجل مدمني المخدرات لدينا، ومن أجل الشباب الذين يجربون الفيلينا لأول مرة، منتشين بهذه المخالفة؟ لنذهب -أضافت- من الأفضل أن نعود وتبقى أنتَ

مع فيرا في الغرفة ريثما أحصل أنا على الفيلينا. فكر بذلك جيداً. يجب أن لا يراك أحد غيرنا.

- لحظة واحدة - قال رافائيل وهو يزحف نحو القمة مرة أخرى، ويحدق في المناظر الطبيعية الهادئة، والسهول التي تهب عليها الرياح، والفجوة بين الجبال، والقمم الزرقاء الناعمة بين السحب، وأبراج الحراسة. كان فريقه في الفندق، ومن السهل عليه أن يتخيل شكل التقرير: لا صوت، الكاميرا في الوضع البطيء، والزوم التلسكوبي.

- لنذهب يا رافائيل - أصرت كريستا من الأسفل.

فكر في لوجو. ما مدى فائدة تقريره في النهاية، عن العصابات، وعن الشباب وحروبهم الطقوسية، والتضحيات البشرية، والقلوب الممزقة التي ما تزال تنبض، وبقع الدم في الأزقة، والمراحل الأولى لأكلة لحوم البشر، والليالي الحمراء مع الفيلينا، والهيروين، والمخدرات الاصطناعية البديلة غير الضارة، والمخلوطة مع مضافات، والتفاعلات التي يحصل على صيغها المراهقون أثناء لعبهم بأجهزة الحاسوب؟ كان محيا لوجو، وجسده الصغير مثل دمية من خرقة، مرمياً ومتيبساً إلى جوار حاويات القمامة، والعويل وسط وابل الرصاص، والمرأة التي دخلت في المشهد، والتصوير الذي أُوقف فجأة، كل تلك اللقطات أبهرت المشاهدين. الشيء ذاته سيحدث هذه المرة. ستكون مدة الخبر لحظة واحدة، دون أن تُعالج المشكلة الأساسية. حين تبدأ الطائرات بحرق المزارع، ربما سيحصل أيتام تيمبو، مثلما حدث مع لوجو في مستودع الجثث، على دمى الدببة الضخمة، والزهور، والبالونات، وحتى علب الشوكولاتة على شكل قلب يرسلها سكان نيويورك المتأسفون، في محاولة غامضة لتنظيف اليدين، وسيهدون الصبي في موته، حفلة عيد ميلاد مُبالغاً بها، متأخرة ومثيرة للشفقة.

زحف إلى الأسفل للالتحاق بكريستا.

في وقت لاحق، حين أصبح في الغرفة مع فيرا وهما يستمعان إلى مناغاة هانز، استلقى على السرير ونام.

الفصل الحادي والثلاثون

كيف وصلتُ إلى هنا؟ تساءلت ميليساندرا بإلحاح، وهي تحاول عبثاً إعادة تركيب الأحداث. لقد استعادت توالي الصور بوضوح: الحديقة، ثينيريا، البحيرة، هي على دراجة نارية على الطريق الترابي، الشمس، امرأة تلوح لها وتصرخ طلباً للمساعدة، شيء ما عن طفل مريض، التوقف، النزول من الدراجة النارية إلى القرية المظلمة. بحثت مراراً وتكراراً عن كيفية نسج هذه القطع، واستعادة الحلقة المفقودة في ذاكرتها، وإن يكن بهدف إبقاء ذهنها مشغولاً لتجاوز الاختناق الكاتم لأنفاسها جرّاء القلنسوة المظلمة التي تغطي وجهها ورأسها بالكامل. لم تكن تسمع أي صوت من حولها. يداها وقدماها مربوطة بإحكام من المعصم والكاحل بخيط غليظ وخشن اخترق جلدها. كانت الأرض الممددة عليها بوجه إلى الأعلى، تنز برداً ورطوبة. لازمها شعور بالخوف، والدوار، والبرد، والارتجاف. حاولت أن تستدير. كانت الأربطة تضطرها إلى التحرك ودفع نفسها بجذعها. حاولت ذلك مرات عديدة حتى تمكنت من تغيير وضعيتها. حين صارت على بطنها، شعرت بأمان أكثر على الرغم من أن ذراعيها بدأتا تؤلمانها بسبب ثقل جسدها. ظنت أنهم قاموا بتخديرها. آخر ما تذكرته: رائحة الأرض الرطبة التي تفوح من ظلام الكوخ. توسلت أن يأتي شخص ما. كانت تعاني من رهاب الأماكن المغلقة. لم تتحمل قط أن يُغلق عليها. هزت رأسها بقوة من جانب إلى آخر. حاولت أن تقضم القلنسوة. أخرجت لسانها لتتحسسها. كانت خشنة ورائحتها نتنة. صدرها يضطرم كما لو أن قلبها انتفخ على حين غرة، وصار يضغط على رئتيها وأضلاعها. تنفست بعمق. ستختنق إن لم ينقذها أحد. كلما حاولت أن تتنفس، يرفض جسدها الرائحة العفنة والكثيفة.

كان الحجاب الحاجز يرفض التنفس. ذلك كله إضافة إلى الخوف. كانت أوصالها ترتجف بشدة، مأخوذة بالذعر. ربما كان جسدها أكثر حكمة من عقلها. ليتها تستطيع أن تتنفس بعمق، وتهدأ. «اهدئي»، أمرت ميليساندرا نفسها، بصراخ ذهني. «ستموتين إن لم تهدئي. على الأقل اكتشفي ما يدور حولك، ما الجديد، مَن الذي أتى بك إلى هنا؟». صور. كل صورة تلغي الأخرى. كان عليها أن تستحضر شيئاً يهدّئها. حاولت أن تستذكر النهر. مرّ في ذهنها على نحو عاجل، وسرعان ما داهمها مرة ثانية، الكوخ، ورائحة الأرض، والبحيرة، والدراجة النارية، والغبار. وعاد النهر. صور مبعثرة: ماء، نهر، المياه، بحيرة، سائل الرحم.

ضربت جبهتها بالأرض مرة بعد أخرى. شعرت بنفسها أكثر استرخاءً. فاضت عيناها بالدموع وبدأ أنفها يسيل. شعرت بالطعم المالح في فمها. ابتسمت لذلك. ستكون كارثة إذا بكت. ستغمر الدموع وجهها. لم تكن تمتلك وسيلة لتنظيف نفسها. سوف تبتلع مخاطها. «أولاد القحبة. تعالوا، تعالوا الآن يا أولاد القحبة»، غمغمت. لم تشأ أن تصرخ. كانت أسنانها تصطك، لكنها ساعدتها على إطلاق الشتائم. صار ارتجافها أقل حدة. استدارت على ظهرها. حاولت أن ترفع ذراعيها لتمسح وجهها بطريقة ما بالقلنسوة. لكنها لم تُفلح، بيد أن القلنسوة تحركت بضعة مليمترات. حاولت أن ترى. شاهدت الصدر. إنه انتصار عظيم. القميص الأبيض. وتساءلت إن كانت ستتمكن من الجلوس. خفّ الدوار قليلاً. مؤكد أنهم سوف يقومون بحقنها بشيء. حاولت أن تتذكر إحساس مسدس الحقن، الإبرة. وعلى نحو غائم تذكرت شيئاً. بدأت تتحرك، وترفع ساقيها، منحنية على صدرها، واحد، اثنان، واحد، اثنان. كانت تتأرجح حتى أصبحت واثقة من عزمها. جلست. وضعت رأسها بين الركبتين. كان الشعور بالحضن لا يُوصف. هدأت أكثر. في حالات يأس، ليس هناك أسوأ من السلبية. كان عليها أن تبقى مشغولة.

شرعت في البحث عن جدار لتسند ظهرها. تصورت الغرفة في مخيلتها في محاولة لإدراك حجم الجدار. من المرجح أن تكون صغيرة. كانت الأرضية غير مستوية، والظلام ليس دامساً. لابد من وجود نافذة في مكان

ما أو فتحة على الأقل، تبدد هذا الظلام. قامت بتحريك خصرها، وأردافها، واحد، اثنان، واحد، اثنان، مع القيام بقفزات صغيرة. ستعمل على إنقاذ نفسها من هذه الحال. لم تكن تعرف كيف، لكنها ستتخلص منها. وجدت الحائط. انحنت لتتخطى بالقفز، واحد، اثنان، واحد، اثنان، حتى جالت في الجوانب الأربعة من الغرفة الصغيرة. كانت مستطيلة الشكل. بدا لها أن الدقة المكانية مهمة في هكذا وضع. هي الآن تعرف أين يقع الباب البارد المصنوع من الألمنيوم أو النحاس. زحفت حتى أدركت أنه في منتصف الجدار المقابل. إنجازات. فتوحات. لقد تخلت عن الاهتمام بالقلنسوة. وضعت رأسها بين ساقيها مرة ثانية. «ليتهم يأتون، رباه أرجوك أن يأتوا». لكن لا شيء يُسمع. كان الجزء الخلفي من سروالها مبللاً، وربما ممزقاً. لم تعد تستطيع أن تفكر في أي شيء آخر تقوم به، وبدأت تشعر بالعطش ورغبة في التبول.

الفصل الثاني والثلاثون

استيقظ رافائيل على صرخة الطفل. حملته فيرا من المهد، ثم جلست وضمته إلى صدرها. رآها من السرير وهي تقدم حلمة ثديها للطفل بشكل متكرر.

- فيرا، فيرا -قال- ألا تظنين أنك تبالغين قليلاً. أعطه الحليب، إنه جائع.

- كانت تعيش معنا في البيت كلبة صغيرة نوع «هود دوغ». كانت ما تزال عذراء عندما أحضرت أختي قطة حديثة الولادة. حسبت القطة أن الكلبة أمها. بعد فترة وجيزة، بدأت الكلبة في إنتاج الحليب وإرضاعها. استمرت على هذه الحال لسنوات عديدة. أنا واثقة من أنها مسألة تحفيز الغدد الثديية.

- لكن افعلي ذلك حين لا يكون جائعاً. سوف تحبطينه.

- وماذا الذي تعرفه أنت!

- الأمومة ليست حكراً على الأمهات.

عاد إلى الاستلقاء فوق السرير، وتطلع إلى جهاز الاتصال الخاص به. هل أنقذ صمته الأيتام؟ أم إنه حكم عليهم بالاستمرار في التبعية والخضوع إلى عائلة إسبادا؟ على مَن يتكل؟ من سيكون الشريك؟ كان الطفل يبكي بشدة. قامت فيرا بتسخين الحليب. أفرغ الطفل زجاجة الرضاعة بلمح البصر، وتركها مليئة بالرغوة.

- كان يجب أن أتركه يبكي -قالت- وإلا فإنه لن يحفز الثديين بما فيه الكفاية. مثلما ترى، ليست لديّ الجرأة لفعل ذلك.

- يا للحظ - أجاب، في الوقت الذي دخلت فيه كريستا، حاملة حقيبة ظهر سياحية.

- ها هي ذي -قالت، وهي تلقي بها على السرير. بدت حمراء ومضطربة- خطوتُ بأسرع ما يمكن، لكن الأمر استغرق مني أكثر مما تصورت. كان صديقي متوتراً. قال إن المراقبة أصبحت مكثفة هذه الأيام. اضطررتُ إلى أن أشرح له حقيقة الموضوع حتى يمنحني إياها. صاحب الببغاوات ينتظرك في المتنزه. أخال أنه من الأفضل ألاّ أرافقك. كيف هي شهية هانز؟ - أضافت، وهي تلتفت إلى فيرا، التي أرتها الزجاجة فارغة.

- لا يريد أن يرضع من صدري.

- المسكين بين المطرقة والسندان. صدري كبير جداً وصدرك صغير جداً -قالت ضاحكة وهي تقبّل فيرا بحنان- علينا أن لا نستسلم.

- لا شك في أن الأمومة تحسم ذلك - ابتسم رافائيل مفكراً في الانطباع الخاطئ الذي كونه عنهما أثناء الرحلة، حين اعتبرهما متزمتتين وغير مرحتين.

أشارت إليه كريستا أن يجلس. قالت له إنها تريد أن يكون على يقين من أنه استوعب حجم الكارثة التي ستُبتلى بها تيمبو، إذا ما سُربت معلومات عن مزارع الفيلينا. ستقوم شرطة البيئة بإشعال النار فيها، دون فائدة، لأن عائلة إسبادا ستعمل على إنشاء مزارع لها في مكان آخر، ويبقى الأيتام، الخاسر الأوحد.

- لست مقتنعاً بأنني سأنفعهم إن لزمت الصمت -أضاف رافائيل- أنا لست ممن يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة. هذه معضلة أخلاقية.

- وإرسال القمامة السامة تصرف غير أخلاقي. أرجو أن نترك الحديث عن الأخلاق -علّقت كريستا- لا يمت إلى قضيتنا بصلة.

- لكنه هو المشكلة بعينها -قال رافائيل- المسائل مرتبطة بعضها ببعض. ستلازم حياة الأيتام الشاعرية صبغة منحرفة، ما داموا يعتاشون على الفيلينا. إنهم في الواقع متواطئون مع عائلة إسبادا.

- لا تظن أننا لم نفكر في هذه المعضلة -تدخلت فيرا بهدوء، والطفل

نائم بين ذراعيها– نحن نرفض أيضاً وبشدة أن يكون الأيتام جزءاً من مخطط عائلة إسبادا.

– ليس لدينا الكثير من الوقت للمناقشات الفلسفية –قالت كريستا– بالنسبة لي، المبادئ لا تتقدم أبداً على البشر. دعونا نعقد صفقة: منذ أن قدمنا إلى هنا ونحن نفكر في إشعال النار في المزارع وجعل وطننا الأم يأخذ على عاتقه إسناد تيمبو. نعتقد أن بإمكاننا إقناع الأيتام بالانضمام إلينا، لكننا نحتاج إلى موافقتهم المبدئية. نريدهم أن يتخذوا قراراً أخلاقياً، من أجل مصلحة الجميع. عاهدنا على عدم كتابة التقرير، ونحن سنتكلف بإقناعهم بحرق المزارع. ليس غداً أو بعد غد. نحتاج إلى وقت. يمكنك أن تقوم بالتقرير لاحقاً، بناءً على أحداث حقيقية ومؤكدة وقعت لهم.

حين انتصف النهار، كانت تفوح رائحة حفاضات قذرة من الحجرة ذات التهوية السيئة المكونة من نافذة واحدة، عالية وضيقة. نقلته الرائحة إلى مكب نفايات إنغراثيا. إنهم في الانتظار. سيكون القيء والحروق والألم اليوم أشد مما كانت عليه بالأمس. في كل الأحوال، سيتعين عليه تأجيل التقرير.

– يجب أن أغادر الآن –قال وهو يهم بالوقوف– لكنني سأعود بأسرع ما يمكن. ثقا أنني لن أنقل شيئاً مما أعرف. تذكرا ذلك جيداً.

توجه رافائيل إلى المتنزه. لم يكن الطقس حاراً في تيمبو. قرب المدينة من الجبال منحها أجواءً لطيفة. كانت تفوح في الهواء رائحة السرو والصنوبر. لم تكن هناك آثار ولا علامات للحرب. المباني بدائية وغريبة، من الطوب الأحمر الصغير، بسيطة ونظيفة، مع حدائق مصغرة. كانت أرصفة المشاة مرصوفة بالحصى. مر بساحة مُحاطة بقضبان معدنية، حيث يلعب بداخلها أطفال يرتدون ملابس متشابهة مصنوعة من قماش مبقع بالزهور. لابد أن تكون تابعة لأحد مصانع الستائر. فكر في لوجو.

الفصل الثالث والثلاثون

– من الغريب أن ميليساندرا ورافائيل لم يعودا بعد – قالت إنغراثيا.

شعرت أن يداً خفية كانت قد انتزعت عمودها الفقري، كما لو كانت دعامة حوت. مررت يدها على وجهها، وهي متكئة على الوسائد. كانت تعاني من آلام في الـرأس. لاحظت أن الوقت لا يتقدم بالدقائق ولا بالساعات، بل بفترات زمنية غير محددة، تقتلعها من الأحشاء. أصبحت حياتها في تيه وتشظّ تنثال بها من هنا وهناك لدرجة أنها صارت ترى، من نفس الغرفة التي سألت فيها عن ميليساندرا ورافائيل، صورة مركبة لوالدتها في غرفة جلوس واسعة بجدران بيضاء ناصعة، تخيط قطعة قماش، جالسة على كرسي هزاز أنيق وذهبي، وترفع عينيها من حين لآخر لترمقها بنظرة مليئة بالبهجة الطفولية وتلوّح لها بيد أنيسة لكي تستعجل.

فتحت عينيها من جديد، ثم هزت رأسها. تمايلت صورة العالم الآخر مثل انعكاس بركة. أمسكت والدتها بذراعي الكرسي الهزاز حتى لا تقع.

– هل سمعتني يا خوسيه؟ –كررت– تأخرهما أمر غير معقول. اذهب إلى الفندق في سيارة الجيب لمعرفة ما إذا كان جيمي يعرف شيئاً عنهما.

– لا داعي لذلك –أجاب خوسيه وهو يطل من النافذة– جيمي قادم الآن.

– خذ له بدلة صفراء. ليرتديها قبل أن يدخل هنا – عقّب موريس من الديوان، وهو ينحني متوتراً.

وقف جيمي جامداً ومتردداً أمام الفناء. توقفت جميع الأنشطة: لم تكن تُسمع ضجة الناس المتواصلة وهم يساومون، ويقترحون تبادل بضائعهم، ولا سحب الأشياء التي لا تنقطع، نحو عربات النقل. لم يكن يُسمع في

الخارج، مناداة العمال وهم يعرضون خدماتهم. كان يوم أحد هادئ وحزين. حتى نور الشمس المتدفق كشلال على الأشياء والنخيل، لم يتمكن من أن يبدد الشعور بالنهار المدلهم والنذر السيئة.

ارتجف وتساءل، ما الذي ينتظرنا بعد؟ غير أن الذهن لم ينقطع قط عن لعب حيله، في انتظار المعتاد حتى في خضم المآسي.

مضى أحد ما نحو المكتبة عبر الفناء. كان على وشك أن يناديه حين ظهر خوسيه، ببذلة صفراء مطوية على ذراعه.

– لابد أن ترتديها، جيمي.

نظر إليه بحيرة، متسائلاً: لماذا سيرتديها هو وليس خوسيه؟

– ارتديتها قبل قليل. لا أحب أن أرتديها طوال الوقت، لكن البروفيسور موريس ينزعج إذا لم يرنا بالبدلة.

قاده إلى جناح غرف إنغراثيا. سأل جيمي عن الأولاد الخمسة المرضى، متململاً ومتضايقاً داخل البدلة. أوضح خوسيه أنهم فضلوا التمدد على بطانيات على أرضية المكتبة، حين رُبط كل واحد منهم بكيس مصله، مُتسلين بالنظر إلى الصور المفضلة لديهم، والكتب المصورة. لم يشأ أي منهم أن يظل في المستوصف. رافقهم الأولاد الآخرون، ولم يتركوهم وحدهم ولو للحظة.

– أنا مصعوق من المصائب المتراكمة في وقت قصير –قال جيمي– علمتُ تواً أن عائلة إسبادا تحتجز ميليساندرا في أحد أقبية الحصن.

دخل الغرفة. انسحب خوسيه إلى الدهليز. عانق جيمي صديقيه وهو يردد ما حدث مع ميليساندرا. كان كئيباً ومتجهماً جرّاء المشهد. لم تشاركه إنغراثيا أوقات العزاء هذه، وطلبت منه أن يورد لها تفاصيل ما يعرف.

أوضح جيمي أنه لم يكن يمتلك الكثير من التفاصيل، لكن أحد الطباخين الذين كانوا يعملون أحياناً في ثكنة القوات، سمع جنديين يتجادلان حول من سيُحضر الأكل إلى حمراء الرأس.

– جاء ليخبرني بعد الغداء على نحو عاجل بعد أن انتهت مناوبته –قال– وجئتكم إلى هنا على الفور. اعتقدت أن لديك مصادرك يا إنغراثيا.

– ورافائيل؟ ماذا حدث له؟ ربما لم يكن معها؟

– كلا – قال جيمي مغموراً بأجواء من الأسف، وشرع يسرد على مسامعهم ما اتفق عليه كلاهما، في محاولة للتخفيف من آلامهم بالفيلينا، وكيف أن رافائيل رحل إلى تيمبو، وعزمه على مرافقة ميليساندرا وكيف أنها غادرت وحدها في الصباح مسرعة.

– مؤكد –صاحت إنغراثيا بصوت ضعيف– أنهم سوف يستخدمون ميليساندرا وسيلة ضغط على رافائيل. آه يا جيمي، آه. شكراً، ولكن لا، شكراً.

تمددت إنغراثيا على السرير وظلت ساكنة.

– هل رأيت يا موريس؟ –قالت أخيراً بعينين مغمضتين– بعد كل شيء، سوف تتحقق رؤياي السابقة عن الانفجار في ثكنة إسبادا، وسوف تزور أشباح ويويلي، الإخوة الصغار هذه الليلة بالذات.

– ولكن ماذا عن ميليساندرا؟ – سأل موريس، مستلقياً.

– سوف يسلمونها إلينا، لا تقلق. ستخرج من هناك قبل أن نطير جميعاً.

– عمّاذا تتحدث؟ – سأل جيمي مرعوباً.

– أولادي لن يموتوا في الفراش يا جيمي. لا هم ولا أنا. سنأخذ إسبادا إلى العالم الآخر. عندما فكرت في هذا الموضوع للمرة الأولى، كانت دوافعي إنسانية بحتة –ابتسمت بسخرية بين فترات القيء التي تزفرها في دلو بجانب السرير– آسفة يا جيمي. تلك هي المتاعب المترتبة على مهنة جمع القمامة. كما أسلفت قبل قليل، لدينا الآن سبب ملموس ومادي وعادل، وآمل أن يقتنع بروفيسوري هناك بالجوار.

– لكن هذا جنون – هتف جيمي.

– أود أن أخبرك يا صديقي بأنه قرار جميع المتضررين الذين يجب أن لا يطالهم الموت. لم يتبق لدينا سوى القليل من المصل، وحين ينفد سوف نعاني سواء بالفيلينا أو بدونها، أكثر مما يتخيله أي واحد منّا، إذا كنا ما نزال على قيد الحياة. وبذلك نكون قد تعدينا ما وصلت إليه عائلة إسبادا

من مجد وعلياء. سوف نقوم برسم أنفسنا على نحو أجمل. لن ينسى أحد في ثينيريا الليلة، وبالنسبة للذين لا يعرفون السر، لن نكون نحن أنفسنا هذه الليلة، بل أشباح ويويلي ذاتهم الذين سيزورون الإخوة الأعزاء - تبجحت إنغراثيا، بإشارة سخرية، خرجت بالكاد من الجسد الضخم الجاثم على السرير، إلى جانب محمل معدني يتدلى منه كيس المصل.

- ناولني ورقة وقلماً من فضلك -طلبت إنغراثيا- يجب أن أكتب إلى ميليساندرا بعض التوصيات.

تمايل الببغاء بهدوء على المحمل المعدني. ومن مكانه على الأريكة، نظر موريس إلى جيمي بتعابير مستسلمة.

الفصل الرابع والثلاثون

شعرت بالمهانة بسبب حرمانها من النور ومن الهواء ولأنها مقيدة مثل حيوان. بعد التفكير في الأمر كما لو أنه قرار بالغ الأهمية، استنتجت ميليساندرا أن لا خيار أمامها سوى ترك السائل الساخن يخرج ويُفرّغ قبل أن تنفجر مثانتها. لم تعد تتحمل الوجع في أسفل بطنها.

آه! من دواعي سروري أن أقوم أخيراً بانتعال الهيبة والكرامة، وجعل ملابسي مبللة. أن أشعر به، نوع من الحرية ونشوة جنسية طويلة متواصلة. بكت ميليساندرا. كان يمكنها أن تتسامح مع هذا كله، لو أن شخصاً ما يأتي ليؤكد أنها ما تزال على قيد الحياة، وأنها لم تمت فجأة، وأن كل ذلك كان جحيماً مُتخيلاً. الآخرون هم الذين يؤكدون وجود المرء من عدمه. كيف يمكن للمرء إثبات ذاته في عالم مظلم لا حركة فيه ولا أصوات فرح أو وجع؟ كيف يُفصل الواقع عن الوهم؟

عندما سمعت وقع أقدام، كانت تشعر بعطش شديد لدرجة أنها حاولت أن تخفض رأسها إلى الأرض بين ساقيها وتتحسس رطوبة بولها عبر القلنسوة، على أقل تقدير. كانت تلك مسألة مستحيلة بالطبع، لكن الفكرة ركبت في رأسها، حتى سمعت الصوت الأجوف والإيقاعي يقترب. يا لها من مفارقة أن تشعر بفرحة كهذه، يا لها من سخافة! إذا تمكن الحارس من أن يرى وجهها، عند فتح الباب، فستقابله بابتسامة عريضة ومُنتشية، وملامح مبتهجة. ستستقبله بأطيب التحايا وإن لم تكن تعرف إن كان الوقت صباحاً أم مساءً: صباح الخير، مرحباً، أو ليلة سعيدة، مثل الغريق الذي يحيي أول إنسان في جزيرة مهجورة، لكن ميليساندرا صمتت لبرهة من الوقت واستطاعت أن

تميّز خيبة حماسها اللطيف، ولم تتأخر كثيراً في أن تتمنى بيأس أن تعود إلى وحدتها مرة ثانية.

لم ينطق الرجل بكلمة في البداية. رفع عنها غطاء الرأس بما يكفي، ليترك لفمها مجالاً، ثم ألصق الإناء بشفتيها. تولد لدى ميليساندرا أول دافع للرفض، وهو الشعور بأن الحارس كان يعاملها أسوأ مما يعامل الحيوان، ومن حقها على الأقل أن ترى ما تأكله. لكنها قررت أن تلتهم بغضب شديد كل ما كان أمامها. ألصقت فمها وأسنانها بخليط الأرز والفاصوليا، غير آبهة باندلاقه من فمها. سمعت ضحكة الرجل السادية والباهتة، فسحبت وجهها إلى الخلف.

- لا يمكنني أن آكله بهذه الطريقة. أفضّل أن تعطيني ماء - قالت مُستجدية عطفه في ذهنها.

- هل تريدين ماء؟ أهذا ما ترغبين به؟ - قال الصوت الذي لا ترى من صاحبه سوى الحذاء العسكري.

- مَن أنت؟ لمَ أنا هنا؟ - سألت.

- بللتِ سروالك... صه - همس الخبيث موبخاً إياها.

- لم أستطع العثور على المرافق الصحية - قالت هازئة.

- إن أعطيتك الماء، ستفعلين ذلك مرة ثانية - قال لها.

- وماذا في ذلك؟ ها أنا ذي مبتلة.

- من المؤسف أن لديّ أوامر بعدم لمسك... في هذا اليوم على الأقل. سننظر في الأمر لاحقاً -تمتم وهو يقترب منها ممرراً أصابعه برفق على جلد ذراعها. لن ألمسكِ، لكن عليك أن تسمعيني يا جميلة- همس - سأخبرك بما سأفعله بك، وإذا أصغيتِ لي بهدوء، سأسقيك الماء.

الفصل الخامس والثلاثون

– الحمد لله وللعناية الإلهية أنك ظهرت –بادره لوكاس بالتحية– تأخرنا كثيراً. انظر، حتى طيور الببغاء نفد صبرها. كنت مضطراً إلى تكرار نفس الأدوار للعملاء. أنت تعرف أني نزيه. ألا ترى أنني أستخدم نفس الخطابات يوماً بعد يوم. أجلس في كل ليلة أكتبها – كان يتحدث أثناء انهماكه في تشغيل السيارة. جلس رافائيل في المقعد الأمامي، فيما ارتاح هو خلف المقود.

– كل شيء على ما يرام؟ – سأل لوكاس رافائيل.

– كل شيء على ما يرام –ابتسم هذا الأخير، وهو يربت بيديه على حقيبة الظهر التي كانت بين رجليه– هنا أحمل ما كنت أرغب به.

– ا. ج. – قال لوكاس.

– ماذا قلت؟

– الإجراءات –ضحك لوكاس– إنها طريقة قروية للاختصار فيما بيننا. الأمر لا يقتصر عليكم، أنتم الناطقين باللغة الإسبانية في استخدام الاختصارات. إنها مزحة عن قواعد الإملاء –أضاف– هل تعرف قصة الرجل الذي أصابته جلطة دماغية وتركته عاجزاً عن الكلام؟ –نفى رافائيل بحركة من رأسه، متابعاً اللعبة– حسن، هذا الرجل كتب مختصراً لزوجته عما يريد أن يأكله. «خ»، على سبيل المثال، تعني خنزير. على كل حال، كانت زوجته تعرف طرقه. في أحد الأيام كان في ضيافته صديق، فكتب حرف «ح» على بطاقته. ظن الأخ أنه يطلب منه «حرس». وبما أن الوقت كان مبكراً جداً، استشار زوجته، التي حالما رأت حرف «ح»، حتى شرعت

تضحك قائلة: «لا، حبيبي، إنه يريد بيضاً، لكنه لفظ هذا الحرف خطأً بدل حرف «ب»» – وأطلق صاحب الببغاوات قهقهة.

كان لدى لوكاس مجموعة كبيرة من النكات التي بددت بفعالية قلق رافائيل. لكن، ما أسعده أكثر هو سماعه يصف إجراءات مهنته كقارئ للمستقبل.

– الأسئلة هي ذاتها دائماً –قال– لا أعرف إن كان البشر أغبياء أم عنيدين، ولكن، بصرف النظر عن الأشياء الجيدة جداً أو السيئة جداً –التي أرصدها بعين طائر– فإن الأشخاص العاديين يريدون معرفة الأساسيات التي ستمسهم وتمس أسرهم، سواء على نحو فردي أو جماعي: ما إذا كانوا سيأكلون، على ماذا سيحصلون، هل سيمرضون أو يموتون. أمسك أنا بكتب الشعر التي أمتلكها. أطرح الأسئلة التي تخطر على بالي كما لو أنني فلان أو علان، أفتح الكتاب عشوائياً وأختار البيت الشعري الذي أعتقد أنه الأنسب. إنها طريقة صائبة. لقد أقنعتني وظيفتي أن الشعر يحتوي على كل الإجابات. هل تعلم أنني أقرأ الشعر لببغاواتي؟ هذا هو الجزء الآخر. إنها تفهمه. بعضها يصيب في اتخاذ الخيار الصحيح أكثر من البقية.

كان يوماً جميلاً. الأيام في المناطق الاستوائية جميلة، بعد موسم الأمطار. لا تزال الأرض تحتفظ في أحشائها الرطبة، بذكرى الأمطار المفاجئة والمُدمرة. يعتقد رافائيل أن الخضرة هنا لا تشبه التي في إنكلترا الجديدة أو فرجينيا، إذ إنها أكثر اخضراراً، خضرة زاهية وجذابة، وتكاد تكون عفوية في طريقتها لإثارة الحواس وإيقاظ جلود الخيول أو الثيران في مسيرها اليومي. طوبى للحيوانات التي يمكن أن تمشي عارية في هذه المساحات من المناظر الطبيعية المتغيرة. طوبى للمرتفعات والمنخفضات والمنحنيات التي تُسحق فيها الأرضيات الخضراء دون أمر أو طلب، بينما تنمو شجيرات هنا، وأشجار وأعشاب طويلة هناك. طوبى لخلفية السماء الزرقاء المضطربة، الغاصة بالسحب الضخمة التي تتمطى لتتحول إلى ريح. طوبى للقادرين على إطالة أمد حياتهم ولديهم عيون يرون فيها هذا التناقض النابض للموت، ومفارقة الخضرة التي استبدلتها غزوات الإنسان الشهيرة بمدن غير متجانسة. طو. ، لنيويورك بشرائطها العالية التي تلوح في الأفق فوق المباني، والمساحات

الخضراء المحاطة بمتنزه ثابت لا يشبه المتنزهات هنا، حيث تنط الأشجار، وبقع الاخضرار تقفز مثل الغزلان، وتظهر دون أن يتمكن أحد من منعها، لدرجة كان لوكاس يتجنب جذورها العريضة الناتئة على الطريق.

ومثلما كانت تظهر الكوارث غير العادية فجأة في هذا الجزء من العالم، ودون سابق إنذار، تراءى أمامهما منحنى -ولما يتبق سوى بضعة أمتار للعودة إلى الطريق- ونقطة التفتيش منصوبة تواً، عبارة عن سيارة جيب وعربة SAM، يركبها رجال وجنود لا يرتدون بدلات رسمية، بل قمصاناً خضراء تميل إلى اللون الزيتوني فوق بنطلون جينز أو بنطلون زيتوني، وقبعة خضراء، وجزمة عسكرية، معلقين على صدروهم، ببساطة، أشرطة الذخيرة.

خفف لوكاس من سرعة العربة، ثم توقف. نظر إليه، دون أن يصدر صوتاً، كأنه يقول إنه لا داعي للقلق. ترجل تاركاً المحرك يشتغل، واقترب من الجنود، مبتسماً ومازحاً. سألهم عمّا يجري ولماذا أوقفوهما، وهو برفقة ببغاواته العرافات يجمع الرهانات؟ نظر رافائيل إلى الشباب الأربعة الذين يبدو أنهم اجتازوا لتوهم فترة المراهقة، مندفعين ببنادقهم على أكتافهم، متبخترين بملابس قطاع الطرق التي عفا عليها الزمن. وبدأ الجدال. انتحوا بلوكاس في الجانب الآخر من سيارة الجيب. اعتقد رافائيل أنهم سيأتون لأخذه عاجلاً. الأمر يدعو للقلق، ومن الضروري تفحص المكان، وتدقيق الحسابات، لمعرفة الاتجاه الذي يمكنه الركض نحوه. في مؤخرة السيارة وعبر سيارة الجيب كان لوكاس يُرى وهو يحرك يديه. شرعت الببغاوات في القفص تصدر ضجيجاً مسموعاً. أحكم رافائيل يده على المقبض أمامه ليكتسب قوة دافعة للخروج من السيارة. وضع حقيبة الظهر على مقعد السائق. كان لوكاس منبطحاً، بعد أن جعلوه يتمدد على الأرض لتفتيشه، واضعين مقدمة أقدامهم على جسده. نزل من السيارة، وكان على وشك أن يقترب ويستفهم منهم، والتوسط بكل ما من شأنه أن يشفع له، ويعود بالفائدة عليه، حين سمع دوي انفجار، وإطلاقات نارية. وشرع يركض في هذا اليوم المشؤوم، غير مصدق.

حاول الجنود إيقافه عندما ألقى بنفسه على لوكاس، لكنهم تراجعوا. اعتقدوا أنه سيكون جزءاً من العقاب للرجل الآخر، حين يقلب المُحتضر وينظر إلى رأسه الملطخ بالدماء، والعيون المفتوحة التي اخترقت الغيوم،

والسماء الزرقاء، التي كانت إلى وقت قريب وديعة وغير مؤذية، والفم الذي تتدفق منه الدماء وهي تفتح ببطء قناة رقيقة نحو الرقبة. كان ما زال يتنفس، إذ إن جزءاً من الحياة، وبأعجوبة، رفض أن يترك الدماغ المحطم. انحنى رافائيل عليه. التقت أعينهما، وتدفقت شرارة فكاهة من صاحب الببغاوات الذي أبى الركوع أمام الموت. أراد أن يقول شيئاً. وضع رافائيل أذنه على فمه الذي كان يتمتم.

- واسلالا، واسلالا، اعثروا على واسلالا.

- نعم، نعم - كرر رافائيل.

لم تتوقف الببغاوات عن الصراخ. تمتم لوكاس مرة ثانية:

- حرر طيوري. دعها تذهب.

وأخيراً انهزم المزاج أمام الرعب. تجمدت العيون الموجوعة. رفع أحد الجنود رافائيل من ذراعه، قيده بأصفاد، وتركه مشلول الحركة.

غص بكل الإهانات التي مرت على فكره، وتوقف عند الفكرة الغبية المتمثلة في توجيه السؤال لهم: لماذا؟ ما الذي ارتكبه لوكاس ليستحق هذا الإعدام السريع، كأنه كلب مسعور؟ حرك ذراعه. جاءه رجل آخر ولكمه في بطنه. وشرعوا يضربونه. رموا به على الأرض. سيلتحق بلوكاس قريباً جداً، وسيواصلون طريقهم، ولكن في اتجاه آخر، حسب اعتقاده، ودون معرفة أي صاعقة ستفرقهم، ولماذا؟

- إلى السيارة -أمر أحدهم- ضعوه في الخلف.

دفعوه. ظهرت سيارة جيب أخرى في الأفق.

- بسرعة - كرر الرجل.

رأى رافائيل المصابيح الأمامية لسيارة جيب تقترب في وضح النهار، تشتعل وتنطفئ. إنها تعزيزات، فكر بسخرية لاذعة بشكل غريب.

توقفت حركة خاطفيه. زاد الضغط على ذراعه الملتوية خلف ظهره، فجاهد على عدم الاستسلام للوجع.

توقفت سيارة الجيب. صرّت الإطارات المطاطية. فتح ماكلوفيو الباب ونزل.

الفصل السادس والثلاثون

– من الواضح أننا لسنا في وضع مناسب للهجوم على الثكنات والاستيلاء – قالت إنغراثيا.

طلبت ماء. كانت شفتاها جافتين ومتشققتين.

اعتدلت في مجلسها للحظة، متظاهرة بضبط الوسائد. حين تحدثت مرة ثانية، كانت نبرة صوتها قد تغيرت. خالطتها بحة غليظة.

– خطر ببالي أن يذهب خوسيه ويطلب منهم موعداً مستعجلاً لهذه الليلة، ويخبرهم أننا لا نطيق الانتظار وأننا نموت ونحب أن نتفاوض بشأن تحويل الوديعة. ما إن يجتمعوا، حتى نحتجزهم كرهائن: إما أن يسلمونا ميليساندرا أو ننسف الثكنات... وهو ما سنفعله على أية حال، بمجرد أن تكون في مأمن.

كآبة الستائر المسحوبة في غرفة إنغراثيا، أبرزت البريق المُشع من أجساد الملوثين. احتل المرضى والأصحاء الأرائك والكراسي في الغرفة. كانوا يحدقون بعضهم في بعض مضطربين، تتناوبهم تعابير عدم التصديق والحنين والتحدي. كانت الأرجل تهتز والأيادي تُطبق على الطاولات والأشياء، فيما يغلق المرضى أعينهم أحياناً مستسلمين لتشنجات الألم. لن يظن مَن يراهم متجمعين –العملاقة في السرير، رجل الذراع المعدنية على الأريكة، خوسيه بوجهه الرسولي السابق لعهده، الخمسة الآخرين الأصحاء المتخصصين بجمع القمامة، وصاحب الفندق غير المرتاح، المنشغل بالحفاظ على كرامته داخل البدلة الصفراء– أنهم كانوا يتآمرون لتحرير فاغواس من الطاعون النهم، الذي أبقاها غارقة في مستنقع حروب آكلة لا معنى لها، تحولت الرذائل فيها إلى مهن ومصدر معيشة.

لقد جعل منهم الهزال والجلود المتقرحة والشعر المتساقط من رؤوس الفتيات بكثرة، صورة للهلاك، مثل قوارير فقدت بريق حياتها. آه! لكن احتمالية عدم الموت هناك، أو الموت البطولي، أو عدم الرحيل وحيدين، كما كان يقول الأولاد، برقت في أعينهم بنور من الأمل، وكأن شخصاً ما وعدهم بالشفاء، وليس ذلك فحسب، بل أنهم سيعيشون إلى الأبد.

- لماذا يذهب ويطلب منهم موعداً؟ تدخل لابيتوسا. هذا الأمر سيزيدهم يقظة. من الأفضل الوصول إليهم في موكب، متوهجين، مدهونين ثانية بذلك النور، ثم نطلب التحدث معهم عند مدخل الثكنة.

بيد أن أحد الحضور حذرهم من نقاط التفتيش التي ستوقفهم.

- اسمعوني، يجب أن نفكر تفكيراً نفسانياً -قالت إنغراثيا وهي ترفع رأسها من الدلو بعد القيء- في هذه الساعات، يشعر أفراد عائلة إسبادا بأنهم ملوك: لديهم ميليساندرا، وهناك أخبار حول حصارهم لمزرعة النهر العائدة للشاعر أيضاً. لا بد أنهم يبحثون عن رافائيل. وفوق ذلك كله، سأبعث لهم وأخبرهم بأنني أرغب في الاستسلام. سيكونون سعداء بهذا الخبر! وسوف يستقبلوننا بالطبول والصنوج. مؤكد أنهم لن يتخيلوا أن الطبول والصنوج ستكون من حصتنا.

- سوف يتم تفتيشكم عند المدخل. كيف ستُخفون المتفجرات؟

- أنا سأقوم بهذه المهمة - قال موريس، وهو ما يزال مغمض العينين.

- انتهى الكلام -قالت إنغراثيا- هيا إلى العمل جميعاً. مع هذا الضعف اللعين سنتقدم بخطى حلزون، والله وحده يعلم كيف تمر الآن ميليساندرا بلحظات عصيبة.

تناهى إلى سمع موريس إخلاء الغرفة والكراسي وحركات المغادرين. كانت حنجرته تؤلمه، لكن أكثر ما يخشاه هو عدم قدرته على صياغة جملة واحدة دون أن ينكسر شيء من القوة المتبقية التي تمكن من تجميعها في الساعات الأخيرة. أرعبته فكرة الموت. ما إن يفكر فيه، حتى تشتعل أحشاؤه وجعاً، رغم تحفيزه لنفسه بضرورة التحلي بالشجاعة والعقلانية. العلم في هذه الأشياء ضار. ليته كان جاهلاً، لأصبح أفضل حالاً. للسبب ذاته، ربما

كانت رؤية كرامة وشجاعة الأولاد وإنغراثيا، مُدمرة بالنسبة له. كأنهم لم يتنبهوا لهذه المسألة، أو أن عملاً سحرياً مكنهم من السمو بالتجربة اللعينة هذه، وتحويلها إلى ملحمة كبيرة عامرة بالفداء. تأجج في داخله حنان لا متناه، لدرجة شعر معها بإحساس لاذع بالألم بسبب شعوره الوافر بأنه ما تزال هناك ربما تجارب في الحياة عليه أن يعيشها.

الفصل السابع والثلاثون

من هو الأسوأ؟ تساءل رافائيل: ماكلوفيو، وهو ينزل من سيارة الجيب بسروال نظيف، وقميص أبيض، وقبعة من القش، مثل مزارع ودود من قرن آخر، أم الذين قبضوا عليه وعاملوه بقسوة واضحة، دون رياء، ومارسوا معه القوة بوحشية، وكانوا بذلك قتلة أشداء دون رأفة؟

ميّز الجنود ملامح شريك رؤسائهم.

– إلى أين تأخذون هذا الرجل؟ – سأل بتسلط.

– إلى الثكنة أيها الرئيس. إنها أوامر عليا.

– ورجل الببغاوات؟

– انتقل إلى حياة أفضل أيها الرئيس. كان يتظاهر أمامنا ببراءته.

– قتلوه مثل الكلب – قال رافائيل.

وخزه الجندي بذراعه، فتلوّى.

– أطلقوا سراحه –أمرهم ماكلوفيو– قطاع طرق متوحشون. مَن أمركم بقتل لوكاس؟ ألا تعرفون أن لا أحد يتعافى من الموت؟ حيوانات! عودوا إلى الثكنة في الحال. سأقوم بمعاقبتكم بنفسي. اتركوا السجين. أنا سآخذه. ربما تقولون إنكم تسلمتم أوامر بضربه؟

كانت نغمات صوته ترتفع طبقات عدة مع كل جملة. انكمشت أكتاف الرجال. اعتقد رافائيل أنهم سيرحلون ولن تبقى سوى ملابسهم المجعدة على الإسفلت.

– اذهب معهم أنت أيضاً –أمر ماكلوفيو سائقه– لستُ في مزاج يسمح لي أن أرى أي واحد منكم، أبناء العاهرات.

ركب الرجال سيارة الجيب. شغلوا المحرك، ومروا فوق جثة لوكاس التي ظلت مسجاة بوجه إلى الأعلى، وذراعين مفتوحتين قليلاً. جلس رافائيل على ركبتيه بجانبه، أغمض عينيه، وصالب يديه على صدره، بعد أن أزاح الخصلة من على جبهته، ثم مرر أصابعه على شعره، مُعيداً بذلك الحركة نفسها، وكأنه ليس هناك مهمة في العالم سوى هذه: تمرير اليد على شعر لوكاس، وملامسته كمن يهدّئ من روع طفل يعاني من الكوابيس. بالكاد عاش برفقته بضع ساعات، لكنها كانت كافية لكي ينظر، وهو على ركبتيه، إلى وجهه المليء بتجاعيد لا حصر لها. شعر كأن هذا الوجه كان يتطلع إلى غروب شمس جميل لا يتكرر، فتلاشى ليلاً قبل الأوان. ليت لوكاس رأى ذاك المشهد ولو لثانية. لن يعرف بعد الآن لِمَ كان جامع الطيور يحب الشعر والتنبؤ بالمستقبل؟ أو لمن يُدين بعشقه للنكتة؟ صمتُ جسده، ابتلع كل شيء.

لم يقترب ماكلوفيو. جلس على درع إطار سيارة الجيب ووجهه بين يديه. كان خائفاً من استفزاز غضب رافائيل، المُبرر بالتأكيد، رغم أنه ليس مسؤولاً بشكل مباشر عمّا آل إليه مصير لوكاس المسكين. لم يعجبه منحى الأحداث. حاول أن يثني أبناء إسبادا عن فكرتهم في القبض على ميليساندرا واستخدامها لشراء صمت رافائيل. قال لهم إنه ليس من الضروري استخدام هذا النوع من الإكراه، لأن نتائجه عكسية. «اتركوا الصحفي لي»، لكن آل إسبادا كانوا عنيدين وعميان، لأن السلطة جعلتهم يفقدون القدرة والمهارة عاماً بعد آخر، فصاروا أكثر قسوة وعناداً وتعنتاً. لقد رسم لنفسه حدوداً منذ البدء، بيد أنهم عاودوا ارتكاب الحماقات حين أرادوا إقناعه بالذهاب إلى الأيتام من أجل صفقة التبني غير القانوني أو بيع أعضائهم. المشكلة الأولى كانت مع المخدرات التي احتاروا بين خيار استعمالها من عدمه، أما الأخرى فهي الاتجار بالأطفال. كان يمتلك قلباً صغيراً مُرهفاً يصعب الحفاظ عليه. مسكين لوكاس، لم يكن يستحق ذلك.

– كان صديقي أيضاً – قال.

– أعرف – أجاب رافائيل. نهض في النهاية ماسحاً رأسه بيديه. والآن ماذا سنفعل يا ماكلوفيو؟ وما الذي تنويه معي؟

- لنذهب -قال ماكلوفيو- سأشرح لك الأمر في الطريق.

- مَن يضمن أنك لن تسلمني إلى عائلة إسبادا؟

- لو كانت هذه نيتي، لكنتُ تركت هؤلاء المتوحشين يأخذونك. لستَ مضطراً لأن تثق بي، لكني أعتقد أن لا بدائل كثيرة أمامك. صدقني، علينا أن نذهب. ساعدني في تصعيد لوكاس.

حملا الجثة، وغطيا رأسه بقطعة قماش.

كان لوكاس جالساً في المقصورة الخلفية لسيارة الجيب، كأنه نائم. قال ماكلوفيو إنهما سيصلان إلى ثينيريا في غضون ثلاث ساعات على الأكثر. ما إن سمع رافائيل ثينيريا، حتى تذكر الفيلينا، والهدف من الرحلة المشؤومة. سار نحو عربة جامع الطيور لالتقاط حقيبة الظهر.

حين وقعت عيناه على قفص الببغاء، أدرك مصدر الصوت الجهنمي في المأساة الأخيرة. لم تنقطع الببغاوات عن النق بصورة حادة ورتيبة وبنغمة عويل مزعجة. رجع نحو العربة.

تأمل نظرة الطيور الغريبة، وتساءل ما إذا كانت ستظل على قيد الحياة، وأجاب أن نعم. ستحيا قصائد لوكاس مع الطيور الشاعرة. ابتسم، وشعر أنه إنسان من جديد، متخلصاً ولو قليلاً من المرارة اللاذعة التي كانت تنهشه، وكأن لوكاس ينفخ أحد الأسرار في أذنه، ويخبره أن الموت كان مزحة.

فتح القفص. اقترب منه ماكلوفيو، وراقبه في صمت، متنبئاً بما سيفعله. ظلت الببغاوات تتأرجح على المحامل، دون أن تستوعب الحرية المفاجئة التي مُنحت لها.

- ا. ج. -شجعها رافائيل. انقطعت أصواتها- وداعاً أيتها الببغاوات الحبيبة - قال، والدموع تطمس بصره.

بدأت الطيور تطل من الفتحة واحداً تلو الآخر. انطلق أول ببغاء محلقاً ثم، مثل السباحين الذين يتناوبون على منصة القفز، خرجت تباعاً في طابور دقيق من شأنه أن يكون مفخرة لصاحبه، حتى شكلت سرباً أخضر، يشبه ورقة ساقطة من شجرة من السماء تتأرجح في دوائر. تناوبت على الخروج متجنبة الاصطدام بالقضبان، وانطلقت جميعها باتجاه الأفق زاعقة.

الفصل الثامن والثلاثون

حين أبصرت السماء الصافية وهي ترخي آخر الظلال الزرقاء، جال في خاطر إنغراثيا أن تتوقف عن التذمر: لتكن ليلتها الأخيرة صافية ومليئة بالنجوم. ولأنها الليلة الأخيرة، قررت أن تعيشها بأبهى ما تستطيع. أرادت أن تبدو جميلة في الساعات الأخيرة من عمرها. أن تتزين يعني أن تتنكر، وبهذا لن يتعرفوا عليها.

أحضرت إلى غرفتها وعاء من المسحوق المميت، الذي قام موريس والأولاد بإخراجه من الحفرة ثانية عند الظهيرة، وبدأت تزين جسدها العاري بدوائر وحلقات مركزة، برصانة. وفي محاولة للتحايل على كشفها، وضعت بين فخذيها حزمة رقيقة من المتفجرات القوية متصلة بجهاز آلي، يعمل حال فتح اليد. مرت بلحظة رعب عابرة: جنسها سوف يتحول إلى أشلاء، وسيتبدد الدليل الغامض لملذاتها، والينبوع الذي تتدفق منه الحياة. «واسلالا»، تنهدت. ستموت بالحنين الأبدي إلى واسلالا.

انتزعت قماش الديباج الذي نُجد به ملحق الأريكة الممزق، ولفته حولها، ثم رتبت الطيات لتظهر أشبه بسترة رسمية. قامت بتصفيف شعرها أمام المرآة، وجدلته على أفضل ما يكون وطوقت به رأسها، ثم عملت على طلاء جميع خصلاتها واحدة تلو الأخرى، بالمسحوق اللامع. كحلت عينيها، وصبغت شفتيها. حين انتهت من تزيين نفسها وتأملت صورة جسدها بالكامل، دمعت عيناها. رأت نفسها جميلة مثل محاربة أسطورية، مثل تمثال مهيب يتصدر مقدم شبح مركبة تائهة. وهي تشعر بالدوار من الإجهاد، جلست على الكرسي، وتناولت كوباً من الماء البارد. أرخت رأسها على المسند بعينين مغمضتين، وأصغت إلى صوت البحيرة، والأمواج القصيرة

والمتكررة التي تنقر على الرمال، وإلى نعيق الضفادع الذي كان يتصاعد بحيوية مفرطة، وإلى صف أشجار النخيل التي يتوقف عندها النسيم، وإلى صراصير الليل التي لا تعرف الكلل. لا شيء أجمل من الشفق.

– إذا كانت هناك حياة بعد الموت –قالت بصوت عال– فالأجدر أن لا نقارنها بهذه الحياة التعيسة.

***

مثلما تنبأت إنغراثيا، وافق آل إسبادا على الاجتماع وحددوه في التاسعة ليلاً. عند الساعة الثامنة، ركب الأولاد الخمسة، وإنغراثيا وموريس سيارة الجيب، كأنهم سرب من الأسماك المتلألئة. عانقهم خوسيه والآخرون مودعين وهم يتحركون بتثاقل داخل بدلاتهم الصفراء. كان الجميع يبكي. غادروا متوجهين نحو ثينيريا في نهاية المطاف.

ولحسن الحظ، أن ما حدث كان بعيداً عن الواقع، لدرجة استحال على موريس قبول فكرة أنها رحلة دون عودة. وسط دموع الوداع، بدا له أنهم جميعاً على قناعة تامة بأن معجزة ما ستحدث. ستتجاوز سيارة الجيب بركابها، البوابة الحديدية، وسوف يعود الزمن في ظروف غامضة، كما كان عليه قبل ثلاثة أيام. سيختفي ذلك الإحساس المؤلم للفتيل المشتعل، وتنطفئ في الظلام قريباً أضواء الجميع.

ساهم ظهور إنغراثيا في خلق أجواء عجائبية بشكل كبير. كانت رؤيتها بهذا المظهر الرائع، مجردة من هالة الاغتراب التي تمكن موريس من تجاوزها بنفسه، دون أن يعرف حتى الآن كيف، لدرجة أن هذا الوضع كان كافياً لإقناعهم بوجود قوة خارقة ترافقهم. كانت إنغراثيا، بجسدها الضخم الملون بالنجوم والنيازك والمدارات المضيئة ملفوفاً بالحرير المُوشّى، ووجهها العريض الموسوم بالتحدي، يجسد القوة الأرضية لعاصفة كهربائية، والغموض المظلم لرحم الأنثى. بدت مهيبة لدرجة أثارت في الجميع، أوجاعاً من أجل الأم وحنيناً للحبيبة.

من الركن المظلم الضيق للمقعد الخلفي لسيارة الجيب، حدق موريس في شعرها الملتهب الذي لم تحركه الريح، وابتهل أن تكون أساطير العالم السفلي صحيحة وأنه سيلتقي بها في العالم الأبدي.

الفصل التاسع والثلاثون

زحفت ميليساندرا الجالسة على الأرض، في محاولة للعثور على أقل الأماكن رطوبة في الزنزانة من أجل الاستلقاء على بطنها ومعرفة ما إذا كان الضغط على بطنها سيخفف من الغثيان. لم تتوقف عن التساؤل إن كان اغتصابها جسدياً أقل مذلة من إجبارها على سماع شهوته القريبة منها، لدرجة ظنت أنها شعرت، رغم القلنسوة التي تغطي وجهها، ببخار أنفاسه عبر النسيج الخشن، مشكلاً حول رأسها سحابة من الصور المبتذلة اللاأخلاقية، والبساطة المثيرة للشفقة. قد يكون الجنس من دون خيال أمراً سخيفاً، لكن استحضار تلك القوة البدائية أدى إلى أن تطفو ردود أفعال وراثية، تُبعد الإرادة، والعقل، والكرامة. ربما تكمن أكثر الأشياء إهانة، في أن يعرف الرجل أن الرفض الفكري، والاشمئزاز لن يمنعاها من التنفس بقوة أكبر، والشعور بالغريزة تخترق كل الحواجز مهما حاولت إخفاءها. لو أنه أجبرها على القتال جسدياً، لمقاومة هجومه بشراسة كوحش مُنهك وجبان، فإنها لن تنهار ولن تخضع للتواطؤ الدبق والقذر الدنيء، الذي اضطره إلى الإمساك بها -وإن كان على نحو عاجل جداً- حين بدأت تصرخ به ليصمت، ويذهب إلى الجحيم بمياهه القذرة، لكن ليصمت إلى الأبد.

- سمعتِ ما قلته لك، أليس كذلك؟ والآن تريدين أن تدعي الشرف في حين أنك مثلهن. جميعكن متشابهات. تبرزن مؤخراتكن من كل جانب. أيتها العاهرة، الضائعة - صرخ في وجهها، تاركاً ماء الدلو يندلق على رأسها.

لم تكن تعرف كم مضى من الوقت منذ أن غادر. ما إن خرج الرجل، حتى حاولت يائسة ترطيب شفتيها بالقطرات التي كانت تنزلق على وجهها،

وهي تجاهد محمومة أن ترشف ما علق منها في قطعة القماش القذرة التي أغرقوها بها ليلاً، وما عادت تعرف ليلها من نهارها. لابد أنه المساء، هكذا ظنت. كانت ترتجف من برد جليدي. في وقت قصير جداً، عملوا على تجريدها من الدفء ومن القوة والحيوية، وتركوها مع القليل من الموارد. ما أسهل أن يتركوا الأشخاص بأسمال بالية! إذا لم يعودوا حتى اليوم التالي، فربما سيكون لديها الوقت للتعافي، والتفكير في ميليساندرا وتقويتها مرة ثانية. لكن، من المحتمل جداً أن يُحضروا لها الوجبة ذاتها من الأرز والفاصوليا للعشاء وربما سيعود هو نفسه أو شخص آخر لإخضاعها لما لا يحصى من الشتائم والخطب الهجائية الساخرة. كان الجسد، وغريزة البقاء على قيد الحياة، أقوى من الوعي. بعد أن غادر الرجل، لم تفكر في شيء سوى التقاط بعض الماء الذي كان يقطر من رأسها لتبلل شفتيها، فيما احتل الغضب والانزعاج، المرتبة الثانية. وحسبت ذلك، بعد كل شيء، أحد الدروس. لم تكن واسلالا بكل مجدها، لتحول دون الجوع والإهمال والأوبئة التي حصدت الحياة في فاغواس. أخذت تبكي. لابد أن تستجمع قواها حين تتوقف عن النحيب. من الممكن الحفاظ على الكرامة في مثل هذه المواقف، لكن الحيل مطلوبة لخداع الجسد واسترضائه. لم يدم النحيب طويلاً، إذ لم تستطع البكاء داخل القلنسوة. وضعت رأسها على الحائط حتى تنزلق المياه القليلة الملوحة نحو فمها، ثم هدأت في مكانها وهي تتخيل شمساً لا وجود لها. البكاء يُضعفها. ما إن بدأت بالنحيب حتى انطلقت في موجة من الذكريات. كانت دموع الحاضر تؤجج دموع الماضي. كيف ستخرج من هناك؟ أين رافائيل؟ تمنت لو يكون قد تمكن من الوصول إلى إنغراثيا وموريس مع تلك الأعشاب.

لم يعد لديها شك أنها في ثكنة عائلة إسبادا. كان نسيج الزنزانة وحجمها مؤشراً على أنها ليست سجناً مؤقتاً، بل أحد سجون الحصن الشهيرة. كل ما استطاعت فعله هو التفكير في الأسباب التي دفعت الأخوين إلى القبض عليها وإخراجها من اللعبة. ربما يكونان قد علما بالحادث وقررا استغلاله بجعلها واحدة من ضحاياهما؟ هل كانت هذه هي الطريقة التي سيعزلان بها جدها من أجل الاستيلاء على المزرعة؟ هل هناك علاقة بين اختطافها

ورحلة رافائيل للبحث عن الفيلينا؟ أم أنهما قلقا من فكرة العثور على واسلالا واعتبراه تهديداً للعائلة؟

عاد إليها القلق والاضطراب بعد فترة الهدوء هذه. لم تستطع أن تعد الدقائق، لكنها شعرت بها. لن يتأخر السجانون كثيراً في العودة. كانت تعرف ذلك لأنها جائعة.

كانت خائفة من سماع وقع الأقدام، والمفتاح في القفل، وصوت الرجل.

***

لم يعر رافائيل اهتماماً إلى الأسباب التي دفعت ماكلوفيو إلى تقديم المساعدة لإنقاذ ميليساندرا.

سيبحث عن الأسباب في وقت لاحق، وربما سيرجح احتمالية هذا الفعل، لشراء صمته أو لجذوة حياء باقية في روحه. لكن الوقت الآن ثمين جداً وينبض في عظامه، كما لو أنه ابتلع ساعة عملاقة تهدد بإغراقه، وتفجير طبلة أذنه بضرباتها المتكررة، وباستعجالها. حين وصلا إلى ثينيريا، وبعد أن عرف من ماكلوفيو في الطريق، بما حدث لميليساندرا، استأذن وتوجه إلى جيمي لإعطائه الفيلينا. من خلال جيمي، عرف النية الحسنة لخطة إنغراثيا، التي أدرك من تفاصيلها، ضرورة الإخراج الحتمي لميليساندرا من الثكنة، قبل أن يتطاير القديسون والأشرار ويصبحوا أشلاء. كانت الساعة السابعة مساء. لحسن الحظ، كان أمامهما ما يزيد على ساعتين بقليل لدخول السجن والعثور عليها والخروج من هناك. وكانا يحملان في حقيبة الظهر، ملابس رجالية لميليساندرا من أجل تمريرها كصبي. لن يكون الأمر صعباً.

قال ماكلوفيو إن الدورية لابد قد أبلغتهم عن وصوله مع السجين، وسوف يكونون في انتظارهم في ثكنة عائلة إسبادا، ولن يستغرب الجنود إذا قاده بنفسه إلى السجن. يمكن أن تُكلل الخطة بالنجاح، إذا لم يصر أحد نواب عائلة إسبادا، على أن يأخذ ماكلوفيو، رافائيل إلى رؤسائه أولاً.

عبروا نقاط التفتيش بسهولة، على الرغم من الإنذار والتهيوءات التي لاحظاها بسبب اقتراب موعد زيارة إنغراثيا.

– يبدو أننا محظوظان يا رفيقي –قال الأرجنتيني– هل تصدق أن

العملاقة قادمة الليلة للتداول مع الإخوة؟ ترى، ماذا دهاها؟ - تمتم وهو ينظر إلى رافائيل، الذي تظاهر بالمفاجأة نفسها.

أوقفا السيارة الجيب في ميدان العرض بالثكنة. لاحظ رافائيل دراجة ميليساندرا النارية من بين المركبات القليلة. كانوا في انتظارهما فعلاً. اقترب جنديان لإعفاء ماكلوفيو من عهدة السجين.

- آسف جداً، لن تسلبوني هذه المتعة -قال ماكلوفيو، موجهاً ضربة إلى رافائيل، ورابطاً يديه بحبل- اهتموا بالميت، وأنا بالأحياء.

- لدينا أوامر... - قال أحدهم متردداً.

- أنا سأنفذها عنكم -أعلن ماكلوفيو، رافعاً صوته، ومبالغاً في إيماءاته ثم أضاف- ارحلوا من هنا. هل سمعتموني؟ أنزلوا الميت، واغسلوا سيارة الجيب قبل أن تصبح رائحتها نتنة.

لاحظ رافائيل أن الأجواء في الثكنة كانت مختلفة. تظاهر بالوقوف خانعاً، وهو ينظر إلى كل شيء من طرف عينه، كما يفعل السجناء عادة. في الظلام، كانت مجاميع من الجنود تدخن وتتحدث، لكن في وضعية تأهب وليس بفتور. وهو ينظر إلى حذائه، مستشعراً دماء لوكاس، فكر في ضرورة معرفة ما إذا كانت الظروف لمصلحتهما. في غضون أيام قليلة، تلاشى السراب، الذي أغرته به فاغواس في البداية. كان من الغباء الاعتقاد أن الأحكام المسبقة في عالمه هي التي لونته بالرعب، الذي خيّم على كل مكان.

- هيا - دفعه ماكلوفيو بعنف.

ألقى رافائيل نظرة أخيرة على الليل، وعلى السماء الصافية المرصعة بالنجوم. فكر في لوكاس، الذي قد يموت مرة ثانية في الانفجار.

الفصل الأربعون

في الطريق إلى ثينيريا، اصطدمت سيارة إنغراثيا بسيارة جيمي، الذي خرج بأقصى سرعة لتسليمهم الفيلينا.

قال إنه لا يعرف مدى تأثيرها، لكنها بالتأكيد، سوف تريحهم وتوقظ انتباههم في الاجتماع مع إسبادا. سلّم الأوراق إلى إنغراثيا، وأخبرهم أن رافائيل سيحاول بالاشتراك مع ماكلوفيو، إخراج ميليساندرا من الثكنة قبل الساعة التاسعة ليلاً.

- أطيلوا الاجتماع -قال بأنفاس متقطعة- لا تأتوا على سيرة ميليساندرا حتى اللحظة الأخيرة. اتركوا المتفجرات كحل أخير. قد لا يكون الأمر ضرورياً.

نظرت إليه إنغراثيا بحنو.

- شكراً جيمي -قالت- إذا لم نعد من الاجتماع، تأكد من عودة ميليساندرا ورافائيل إلى المستودع لأخذ حاجيات تركتها لهما مع خوسيه. أريد منهما أن يعتنيا ببغائي. قل لهما ألا يطعماه فاكهة، إذ لا تروق له الأغذية الغريبة، لأنه اعتاد على أكل العجين.

تناهت إلى مخيلة جيمي الأطوار الغريبة التي تصدر عن الكائنات البشرية عند المآسي، حين كان يحدق في السيارة وهي تبتعد في طريقها إلى ثينيريا، مغلفة بهالة منيرة، مثل قارورة مليئة بيراعات ألقتها يد خفية ضخمة. كان قلق إنغراثيا على ببغائها مُبرراً في تلك الساعة. قالت إنهم لن يعودوا. قرأت ذلك في عيون موريس والأولاد. ربما لن يرغبوا بالعودة، ولا في أي شيء يحول بينهم وبين التضحية أو الموت المزهر.

لم يتبق أمامه سوى الانتظار. انحنى على عجلة القيادة. بدا شديد الحزن، ومرهقاً، وعديم الفائدة، ووحيداً.

وزعت إنغراثيا أوراق الفيلينا. قالت إنهم يسمعون الكثير عن المخدر الممنوع، لكن لم يجربوه حتى الآن. أخذوا يمضغونها بنهم، مشدودين كلياً إلى الطعم المر، والإحساس بالعجينة، واسترخاء ألسنتهم. عندما ركنوا سيارة الجيب في شارع مظلم على بعد عدة مبان من المتنزه، لم يشعروا بالتحسن الجسدي فحسب، بل بحالة من النشوة الروحية، جعلت من هواء الليل، مادة مُنعشة ومفيدة خففت من التهابات القروح. بعد أيام من الضغوطات المُحرجة، شعرت بأنها رشيقة. لقد حولتهم الفيلينا إلى مخلوقات خفيفة ظريفة، لا ينال منها الخوف، أو الرعب، أو الشك، وجاهزة للانطلاق في موكب من الأشباح المشعة عبر ثينيريا.

قام أصغر الأولاد خيريمياس، بضبط الطبل على خصره ومهّد الطريق. سارت وراءه إنغراثيا، ثم موريس، يتبعهم لا بيتوسا مع نايه الرخيم، ثم كاتالينو مع الاثنين الآخرين.

كانت ليلة صافية. ساروا في الشوارع، ولم يجدوا سوى الكلاب تنبش في القمامة، ومتسول يستلقي تحت مظلة من خرق وسخة وكارتونات. هكذا كانت الشوارع في الظلام: متوترة وهادئة، عبروا من خلالها دون ضجيج، تاركينها تحتضن بصمت أولئك الذين يقبعون في المنازل. عند وصولهم إلى المكان الموازي للمتنزه الذي ظنوه قريباً من أول نقطة تفتيش، طلبت إنغراثيا من قارع الطبل أن يبدأ. ومع الضربات الأولى للطبل، ناغاه لا بيتوسا عازفاً على الناي. وتغير لون الليل على حين غرة. أضحت الشوارع مأهولة بوجوه مذهولة تتطلع، من خلال ثغرات المضخات، والنوافذ، وفتحات الأبواب، إلى رؤية موكب الكائنات القادمة من عالم آخر، محولة الليل إلى سائل أخضر ومشع، تلتمع فيه مذنبات، وشموس، ومدارات من كواكب أخرى، منصهرة في موسيقى مسيرة طفولية، تدندن أحياناً بلحن شقي، وتبدو في أحيان أخرى كأنها في خضم فعالية لاذعة لتظاهرة خادشة لجزء خامد من الروح. شعر موريس بأنهم مسافرون في دوامات متحدة المركز، زعزعت ذبذباتها الرنانة المدينة بأكملها. خرج النائمون والساهرون إلى الأرصفة،

بلباس النوم، وبالنعال، شبه عراة مغطين أكتافهم بمناشف اتقاءً للبرد، متعثرين بعضهم ببعض مذهولين تأخذهم الدهشة.

لم يجرؤ أحد من الدوريات، على إيقافهم أو الاقتراب منهم. بعد وقت طويل، تساءل أحدهم إن كانت المرأة الضخمة في مقدمة الموكب، هي إنغراثيا. حين صعد الموكب المتلألئ إلى آخر نقطة تؤدي إلى الحصن، تبعتهم مجموعة من الكلاب الضالة التي كانت تعوي وتنبح.

كان ظهورهم عند مدخل الثكنة مع أصداء عويلهم، مثل طرف مذنب، سبباً في قلق وتفريق الجنود، الذين شرعوا في الركض في جميع الاتجاهات، مبهوتين بالظهور الفجائي للشياطين والخرافات التي تلاحقهم في الحياة. بعيداً عن كل التكهنات، وجد الوافدون الجدد أنفسهم وحيدين في ساحة العرض، حيث اختفى منها ماكلوفيو ورافائيل قبل قليل. أخذت إنغراثيا تضحك ضحكة مكتومة، إذ كان عليها احتواء الرغبة في الضحك بصوت عال.

– أنطونيو ودامیان إسبادا –صاحت– نحن هنا. هل من أحد لاستقبالنا؟

***

في الزنزانة، سمعت ميليساندرا صدى خطوات. هل كانت لاثنين أم لثلاثة أشخاص؟ تساءلت مع نفسها. أغمضت عينيها، وصرت أسنانها، ثم قوّمت ظهرها. الخدعة تكمن في الغياب. أن لا أكون هناك، ولا أتحدث. كانوا هم أنفسهم مَن نبهوها كم يرعبهم ويخيفهم الصمت. كانت تراقبهم مثلما يراقبونها. بما أنه لم يكن لديها إمكانية النظر بالعين، اعتمدت على حدسها وهدوئها. تنفست بعمق، وبدأت تشعر بدمها البارد يفور في صدغها. كانت الخطوات تقترب. شدت على كفيها وفركتهما بعضهما ببعض. كان الجانب القوي من شخصها في احتدام مع الجانب الذي يمكن أن ينتهي بها إلى الفشل. كم الوقت طويل! أم إن الخطوات لربما أخذت اتجاهاً آخر؟ سمعت أصواتاً. إنه ماكلوفيو، بصوته، ولكنته المتميزة. إنه ماكلوفيو من دون شك. إنه يتكلم، ويأمر، ويقنع. كانت الكلمات تصلها مبهمة، لكنها سمعت بوضوح ذكر سجين آخر. كانوا قريبين. طلب من الحارس الذي التزم الصمت أن يفتح الأبواب. إنها أوامر صارمة، غير قادر

على عصيانها. ينبغي على السجين أن يمكث في زنزانة أخرى. استمروا في الجدال. أدركت ميليساندرا أن عضلاتها لن تقاوم هذا التوتر، وأنها سوف تنهار. أغمضت عينيها. شعرت بوجع في رأسها، وبأن الدم غير المبالي استقر في دماغها، ضاغطاً على جفنيها. كانت أسنانها تصطك. طرقات على الباب، وصوت حنجرة متجمدة ترغب في الزعيق. «المفاتيح»، قال صوت رافائيل، المفاتيح. اعتقدت أنها واهمة، لكن صوت رافائيل تجاوزها وخدرها. أدركت لماذا يقال إن الصوت يمكن أن يكون له وقع الصاعقة. تكهربت. سمعت صوت الباب المعدني يرتطم بالحائط بقوة. طرقات. ربما لم يكونوا يرونها. لم يتجهوا نحوها. مكثت في سكون. ينبغي على رافائيل أن يُخرجها من هناك. ومن فرط المفاجأة، أصبحت حماسة الإصغاء إليهم، خوفاً. ماذا لو لم يصلوا إليها؟ ماذا لو اختفت أصواتهم بعد حين؟ ماذا لو أن هناك باباً آخر وبقيت وحيدة؟

– حرر مليساندرا يا ماكلوفيو. أغلق الباب. دعنا لا نضيع الوقت.

شعرت بانتزاع القلنسوة منها. تطلب الأمر منها بضع ثوان لتستوعب ما يحدث. كان ماكلوفيو يفك ربطات يديها وقدميها، بينما أمسك رافائيل الحارس من ذراعه وشدّ على رقبته بيديه. قاوم الرجل وجاهد.

– غيري ملابسك – قال ماكلوفيو، وهو يناولها حقيبة الظهر، ويأخذ منها الأشرطة لاستخدامها في ربط قدمي الحارس، بعد أن ركله في خصيتيه. كان الرجل يئن من الألم، متكوراً على الأرض، بغير حراك. قام رافائيل بتقييد يدي الحارس، وتكميم فمه بالقلنسوة.

«هل أنتِ بخير؟» كان رافائيل يسألها بين الحين والآخر، رافعاً عينيه بعجالة لرؤيتها والتأكد من ردها الإيجابي، أثناء فتحها الحقيبة لتبديل الملابس. خلعت بنطالها المُبلل ولبست البنطال والقميص العسكري فوق قميصها وكذلك القبعة. كانت ما تزال ترتعش. بالكاد استطاعت أن تزرر قميصها. خرجوا وأغلقوا الباب خلفهم. كان الممر مظلماً ورطباً. على مسافات متباعدة كانت هناك شموع معلقة تبعث ضوءاً قاتماً ضخّم ظلالهم.

– والآن لنتحرك بشكل طبيعي – قال ماكلوفيو، لاهثاً.

ساروا واحداً تلو الآخر. توقفوا قبل أن يستديروا إلى زاوية الممر التالي، الذي تقوم في نهايته السلالم.

أثناء تسلقهم السلالم الخرسانية، تناهت إلى أسماعهم أصوات صاخبة. نزل عدد من الجنود راكضين.

– لا تصعدوا، لا تصعدوا – صاحوا فيهم، وهم يواصلون المسير.

ألصقوا ظهورهم على الحائط. سمحوا لهم بالمرور فيما ركضوا بدورهم في الاتجاه المعاكس.

عند خروجهم إلى ساحة العرض عبر باب صغير في نهاية الجدار، تمكنوا من رؤية الكائنات الطيفية المضيئة، التي كانت تجتاز المدخل الرئيسي للثكنة.

«أي جحيم هذا؟»، قال ماكلوفيو ساخراً. أجابه رافائيل بالقول: «من الأفضل ألاّ تعرف». كان عليهم الخروج من هناك في أسرع وقت ممكن، والذهاب إلى الفندق، حيث ينتظرهم جيمي. سيكونون بأمان هناك. ركضوا إلى سيارة جيب ماكلوفيو. بعد تفرقهم، عاد الجنود إلى الظهور مرة ثانية، بيد أن الاضطرابات لم تتوقف. غادروا بين النظرات الحيرى، دون أن يوقفهم أحد.

– أبناء إسبادا سيحاسبونك على هذا الفعل – قال رافائيل، بينما كان ماكلوفيو يعبر نقاط التفتيش بفضل عنف الإيماءات السلطوية والقطعية.

– مؤكد أنهم سوف يقاضونني، لكن حياتي بين يديك يا رفيق –قال ماكلوفيو لرافائيل– ستتم تصفيتنا إذا لم تدمر شرطة مكافحة المخدرات، المزارع.

– لا أفهم شيئاً – قالت ميليساندرا وهي تمرر يديها على رأسها ووجهها، وتحك معصميها وجلدها، حيث آثار القيد ما زالت تؤلمها.

– لم أكن لأتخيل ذلك – تمتم رافائيل.

الفصل الحادي والأربعون

بذل أنطونيو وداميان إسبادا ما بوسعهما لإخفاء قلقهما أمام ما اعتبراه فخاً من تدبير إنغراثيا للتنكيل بهما: القوات التي كانت في حالة من الفوضى لفترة أطول مما يمكن تحمله، اضطرتهما إلى الخروج على مضض لاستقبالها، ولكنهما وجدا نفسيهما، فجأة ومن دون سابق إنذار، مكشوفين في ليل استحال إلى ألسنة حرائق لا هوادة فيها.

صاحت بهما إنغراثيا، حين رأتهما يظهران في ساحة العرض، أنها تمتلك التفسيرات لما يحدث، إن سمحا لها بالمرور إلى الداخل. لم تتبق أمام الأخوين إسبادا وسيلة أخرى سوى المجازفة والقبول حتى لا يبدوَا جبانين في حضور رجالهما.

توجها إلى مكتب داميان. كان سيناريو الاستقبال قد أُعد بعناية. امتدت أمام جناح طائرة المكتب، مائدة طويلة. لاحظت إنغراثيا أن الستائر السميكة بلونها الأحمر الخمري غطت الجدران، ومنحت المكان أجواءً تشبه أجواء الكنيسة خلال عيد الفصح. تساءلت إن كان ذلك ما يمنع آل إسبادا من تسريب أسرارهم. دعا الأخوان الزوار إلى الجلوس إلى جانب المكتب، فيما شغلا الطرف الآخر بصحبة مستشاريهما، والرجال الذين يثقان بهم، ومجموعةَ من الجنود المتأهبين لحراستهما. لم يتوقف الرجلان عن النظر إلى إنغراثيا، التي أثارت إعجابهما بهيئتها الملوكية، رغماً عنهما. كانا يتحركان مثل الهررة متظاهرين بالالتفات إلى تفاصيل غير دقيقة قد تمنحهما الوقت لاستعادة الغطرسة والتكبر والتفوق الذي تخيلا به المشهد قبل أن تعبث بخيلائهما، وهي تخرج من الليل مثل ربة مُشرقة.

كان المكتب المضاء بأضواء النيون، بجدرانه العالية من الطوب وعوارض السقف المكشوفة، والنافذة الوحيدة فيه، بارداً وكئيباً. هذه الأجواء العدائية، مع وجود مشاعر قاتمة وتوجس، جعلت موريس يفكر في الاجتماعات التي تقيمها العصابات في المرائب والمستودعات الشاغرة؛ حيث يقرر العرابون إعدام أنصارهم.

جلسوا في مقاعدهم أخيراً. شكرتهما إنغراثيا دون مقدمات، على استجابتهما للقاء بعد إبلاغهما بوقت قصير. وسرعان ما أدركا أن الأمر كان على درجة من الخطورة ولا يقبل التأجيل.

– ما لا نفهمه، هو هذا العرض –قال أنطونيو ساخراً– ما كان عليكم القيام بمثل هذا الانتشار.

– أنا أتفهم ارتيابك –عقبت إنغراثيا مبتسمة بلطف– لكن ما تسميه عرضاً هو جزء من المشكلة، علاوة على أنني أرى أهمية إضفاء هيبة على هذه المناسبة وتوجيه السكان لحدث يمكن أن يؤثر على حياتهم. لا ذنب لي في تفرق جنودك.

كان موريس الساخط يراقب المشهد، متيقظاً. لقد خففت نعمة الفيلينا من آلامه وشحذت حواسه، لكنها أدت في الوقت ذاته إلى تأجج جنون الارتياب لديه. نظر إلى يدي أنطونيو إسبادا الرقيقتين، وأظافره الطويلة، ثم انتقل إلى مظهر داميان المعتدل والمتوتر والشيطاني أيضاً، وهو يداعب شواربه.

– كيف تكون هذه الأقنعة، جزءاً من المشكلة؟ –أشار أنطونيو بدهاء– لنختصر المقدمات. اشرحي لنا ما جئتِ لأجله.

بصوت هادئ، وبينما كانت تبحث داخل ردائها عن المفجر الدقيق الذي كان موريس قد صنعه، تحدثت إنغراثيا على نحو مُبالغ فيه عن حجم الشحنة المشعة التي ما تزال مدفونة في فناء المدرسة، وعن عواقبها. تدخل موريس لتعزيز الحجج، ووصف بطريقة علمية، الآثار المميتة على البشر الذين يتعرضون، لسبب أو لآخر، لهذا المستوى من الإشعاع.

– هذا المسحوق اللامع، الذي تسميه أنت قناعنا، هو السيزيوم 137 –قالت إنغراثيا– نحن لوثنا أنفسنا دون قصد، لاعتقادنا أنه طلاء فوسفوري.

سوف نموت، قريباً جداً -أضافت- أخال أنكما ستكونان سعيدين بهذه الأخبار...

- تعازينا -تدخل داميان بدهاء- لا يمكن أن نُسعد بشيء من هذا القبيل.

- نود أن نضفي على موتنا بعض الفائدة -واصلت إنغراثيا رابطة الجأش- وقد أتيتُ، كما أخبرتكما سابقاً، لأقترح عليكما صفقة.

سوف تمنحهما تجارة القمامة بأكملها مقابل حرية ميليساندرا. وعلى الرغم من أنهما قد يعتقدان أن رخصة القمامة، بعد اختفائها، ستظل مفتوحة أمام مَن يدفع سعراً أعلى، فإنّ القرار ما انفك بيدها في أن يقوم المجتمعون بإدارة المستودع. من الأفضل لهم أن يتقبلوا أن تأخذ الشركات الأجنبية توصياتهم بعين الاعتبار، وتوافق على طلباتهم.

- أيامكم معدودة -نهض أنطونيو إسبادا- مع ذلك، تعتقدون أنكم في وضع يسمح لكم بالتفاوض -كان يتحدث متظاهراً على نحو هزلي، بمراجعة اقتراحها- المستودع مقابل الفتاة. مممم. ربما ليست صفقة سيئة. ما رأيك يا داميان؟

- تـودون رؤيتها، أليس كذلك؟ للتأكد أنها بحوزتنا، صح؟ -ابتسم داميان.

- ستكون متسخة بعض الشيء. لم نستطع ضيافتها بالشكل المناسب ولا أن نوفر لها حماماً خاصاً. أنتم تعلمون... هذا الحصن قديم.

- لم تكن النظافة مصدر قلق أسلافنا - أضاف أنطونيو.

اللعنة! لن تكون أمامكما فرصة للتفاوض في شيء، فكرت إنغراثيا وهي تكبس على الزر الذي سيُفعّل المتفجر لاحقاً، وستكون ميليساندرا في ذلك الوقت بأمان. يجب أن تكون بأمان. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف، والعرق يتصبب من بين فخذيها.

- أنتما على حق -سُمعت تقول- لابد أن نراها.

تمسك موريس بذراع الكرسي بإحكام لكبح الرغبة في الخروج راكضاً، بعد أن تحسس الخطر. كانت تعابير ابني إسبادا شبيهة بردة فعل الحيوانات

الرابضة، التي تدرس وضعية الفريسة، وتقيس طول مخالبها. مؤكد أن لديهما خطتهما الخاصة.

بإشارة بسيطة، أصدرا أمراً بالخروج للبحث عن ميليساندرا، فاستجاب لها العديد من الجنود. أشعل أنطونيو إسبادا سيجارة غزت رائحتها الغرفة.

– يصعب تصديقه، أليس كذلك يا أنطونيو؟ –تدخل داميان بتهذيب– من الصعب أن يُصدق أن تفكر خصمنا في توريثنا تجارتها وهي في مواجهة الموت. آه! إنها الرومانسية –ابتسم– مقابل إنقاذ الفتاة التي ليست في خطر. إنها ضيفتنا.

– أما وأنتِ على حافة الموت، ربما يهمك أن تعرفي أنك كنتِ مفيدة جداً لنا –تابع أنطونيو– كانت المراكب التي تنقل القمامة، أمراً مُدبراً... إحدى أفضل الطرق لإخراج الفيلينا.

في محاولة منها لاستيعاب المفاجأة، استقامت إنغراثيا، بيد أن ردة فعلها قوطعت بالخطوات العاجلة للرجل الذي عاد راكضاً، وهو يتمتم، في حالة هيجان واضحة، نبأ اختفاء السجينة. وسرعان ما تشنجت الغرفة بأجواء لا ضبط للنفس فيها، من خلال حركة شاملة لأسلحة تتأهب، ورجال يحيطون بهم.

– أيا ابنة أكبر عاهرة! –صرخ أنطونيو واقفاً، وهو يضرب الطاولة بقبضته– أنت خططتِ لكل هذا، صح؟

تحركت الستائر. كان يختبئ المزيد من الرجال المسلحين، الذين ظهروا وصوبوا الأسلحة نحوهم.

– نحن أيضاً لدينا خططنا –تدخل داميان، بصوت أجش بسبب الغضب، وهو يعطي الأوامر بإشارات، وإيماءات عدوانية لجنوده للقبض على موريس وإنغراثيا– كنا نعلم أنكم سوف تأتوننا بقصة الإشعاع هذه، وأنكم سوف تحاولون تضليلنا بهذا الطلاء الفوسفوري لأجل الإيقاع بنا. لذلك تأهبنا للدفاع عن أنفسنا والقضاء عليكم نهائياً. هل كنتم على قناعة بأنكم قادرون على مباغتتنا بهذا العمل؟ حسنٌ، أنتم واهمون. سيتم إعدامكم على الفور. لا أحد هنا يملك ترف التآمر ضدنا دون عقاب.

بالدفع والضربات، غرس الجنود حافات البنادق في أضلاعهم وظهورهم، للحيلولة دون القيام بأي نوع من المقاومة، ثم ساقوهم إلى ركنٍ عارٍ من أركان الغرفة. كان الأولاد يحدقون في موريس وإنغراثيا بعيون متوهجة من الغضب وأجساد مشدودة ومتهورة، على استعداد تام للتوثب. رآهم موريس وجاهد لإخفاء غضبه، وضبط نفسه، لكنه لم يتمكن من ذلك وهو يتأمل وجوههم الشابة، فيما كانت إنغراثيا تجلس إلى جانبه، وحيدة ورابطة الجأش، يفتر ثغرها عن ابتسامة مبهمة، تبدو كأنها ساهمة عمّا يحدث. فكر بطريقة موتهم البريئة. ما كان من المفترض أن يتحملوا ذنب البدء بالهجوم. ستقوم عائلة إسبادا بإبادتهم. ألقى نظرة أخيرة على الأولاد. أراد أن يطمئنهم ويؤكد لهم أن الهدف نبيل، وأنهم أنجزوا المهمة على أفضل وجه. كبروا في عين موريس وشعر بالرعب لما يعتمل في أحشائهم الواهنة، وهو يردد أنه لم يكن قد أخطأ في ذلك. هذا ما شعر به، وكان تأكيد تخميناته يمكن أن يشتت انتباهه. أحس بدخول قاذفات إلى مشجب الأسلحة. أخذ بيد إنغراثيا. كانت باردة، تتصبب عرقاً. تناهى إلى سمعه صوت تفجيرات بعيدة. شعر بالصدمة، وبالرصاص مثل كفوف مشتعلة تدفعه للأمام. التصق بالجدار وانزلق أسفله، دون أي ألم، سوى القليل من الضعف، وبالحياة تفر من مسامات جلده، وبالجسم مثل كرة تفرغ من الهواء بصورة عاجلة. كانت إنغراثيا إلى جانبه تخترق عينيه بعينيها في نظرة مشرقة وحية تؤكد له الخلود الذي يمكن أن يخلفه الموت. آخر شيء رآه موريس كانت يدها اليسرى التي ما تزال مشدودة.



الفصل الثاني والأربعون

ظل انفجار قلعة عائلة إسبادا راسخاً في ذاكرة ثينيريا لعدة أجيال. لم تقترحه إنغراثيا ولا موريس بهذه الطريقة. حتى إن موريس حين أعد المتفجرات على مضض، والدموع تذرف على ذراعه المعدنية، حسب كميتها بدقة لكيلا يتطاير عصفها أكثر من اللازم بسبب قوتها، بيد أن ذخيرة عائلة إسبادا، وأسلحتهم، وقنابل حروبهم العديدة التي لم يُحتفظ بها في مكان آمن، كما ادعوا، لأنهم أبقوها، بسبب خوفهم من الخيانة التي كانوا مسؤولين عن إثارتها، مدفونة في أقبية القلعة التي يعيشون فيها ويتآمرون ويقضون أوقات فراغهم برفقة عائلاتهم، هي التي ساعدت على الانفجار المهول.

لم يكن حينها انفجاراً واحداً، بل عدداً لا يحصى من التفجيرات التي اندلعت في ليلة ثينيريا المروعة تلك. بدت السماء، المقلوبة رأساً على عقب، مصبوغة بلون البن. أما الأرض، فكان بركاناً ليس كالبراكين، استفاق لافظاً حجارة، وكونكريت، وأسس الحصن القديم، على مسافة مئات الأمتار حولها. صارت السماء حمراء بفعل اللهب، وأخذت تمطر قطعاً من كل شيء يمكن تخيله، على أرصفة المشاة، والمتنزه، والمنازل التي اختبأت فيها النساء والرجال والأطفال تحت الطاولات لإنقاذ أنفسهم من هذا الانفجار الذي يصم الآذان، والذي فجر ترسانة أسلحة معارك، وحده الله العالم بعددها.

لم تكن إنغراثيا مخطئة في تنبؤاتها: لن تنسى ثينيريا تلك الليلة أبداً. ولأن سكانها غير قادرين على أن ينسبوا مثل نهاية العالم هذه، إلى أبناء

جنسهم، فقد توصلوا إلى استنتاج مفاده أن أشباح ويويلي أنفسهم خرجوا من قبورهم بعد أن تحملوا قروناً من الغضب والعار، التي كانت قد قذفت الموريسكيين والمسيحيين إلى جهنم. قال الكهنة إن ذلك كان بداية لنهاية سدوم وعمورة. من الأفضل أن يشرع الجميع هذه الموة وبجدية، في تقويم طرق فاغواس الملتوية، إن كانوا لا يريدون الذهاب مباشرة وبشكل ميئوس منه، إلى الجحيم.

كان الناس، في حيرة من أمرهم وبلا أهداف، يتجوّلون في أرجاء المدينة قبل طلوع الفجر ليكتشفوا، بين عشية وضحاها، أنهم أصبحوا دون حاكم، ودون عائلة إسبادا، ولا إنغراثيا، ولا أسلحة ولا خردة، لأن الأخبار سرعان ما انتشرت حول ما حدث في مستودع النفايات، وأنه لا ينبغي لأحد الاقتراب منه لفترة طويلة على الأقل. وما زاد الطين بلة، هو أن الحكومة اختفت، بكامل مجلسها من الانتهازيين والمتطفلين، كما لو أن الأرض ابتلعتها، خوفاً من الانتقام أو من اتهامها بالتسبب في الكارثة.

– في خضم هذا الارتباك، يمكننا إعادة تنظيم البلد – قالت ميليساندرا.

كان الحديث مقتضباً في الفندق، حيث اجتمعت هي ورافائيل، وماكلوفيو، وجيمي، وخوسيه، وفرق الانقاذ، بحثاً عن ملجأ في ليلة الحريق. طغى الحداد على الموتى، وعلى المشاعر المتراكمة وغرق كل واحد منهم في أجواء من الحزن الجنائزي الهادئ. أغمضت ميليساندرا عينيها حتى تنفض عنها إحساس الحبس الذي مايزال يجري في عروقها مع الحزن، وكأنها الآن حرة لكنها سجينة. لم يتوقف رافائيل الذي لم يفارقها، محاولاً أن يهدّئ من روعها، عن استحضار وجه لوكاس النازف، وإشاعات البحيرة في مبنى إنغراثيا، وأشجار النخيل الحادة وهي تطعن الرياح. كان يتخيل المشهد مراراً وتكراراً. مكتب الأخوين إسبادا. في أي مكتب من مكتبيهما اجتمعوا؟ أنطونيو إسبادا وهو يشعل سيجاراً كوبياً. القرقعة. الموت. وإنغراثيا المتلألئة. طارت ذراع موريس بآلياتها المعقدة خارج جسده، وأخذت أجهزته تلقائياً تقيس درجة الحرارة، والتركيب الكيميائي للمتفجرات. عبثاً قضى ليلته يتمرن على كتابة مقدمة ذهنية لمقالة يفصّل فيها ما حدث، واصفاً أبطالها. بدأ ينظر إلى براد على أنه شخصية كابوسية. قاوم

مبادرة التواصل معه حتى حان الفجر. ذكر موت عائلة إسبادا، وإنغراثيا، دون أن يأتي بسيرة الفيلينا، ولوكاس، وإنقاذ ميليساندرا.

- هل وثّقت الانفجار؟

- نعم - أجاب.

- تبدو مُتعَباً -قال براد- ابعث لي المواد حالما تتمكن من توثيقها بطريقة منسقة. أعتقد أن هذه المعلومات ستكون نافعة لقسم الأخبار المسائية.

عند انتصاف نهار اليوم التالي، شرع الناس يتجمعون في المتنزه. تطايرت أوراق الأشجار بفعل الرياح التي تفوح منها رائحة البارود، وتساقطت رذاذاً من فضلات ورماداً فوق الجموع الرمادية المتسخة بالسخام، والغبار الذي يرشح من رؤوسهم إلى الأقدام. كانت النظرات المُثارة والمتطفلة هنا وهناك، تدل على فقدان البوصلة التي توجه تصرفاتهم حتى ذلك الحين. نزلت ميليساندرا من سيارة الجيب القادمة من الفندق وتوجهت للتحدث معهم، بعد أن شهدت الاضطرابات في ثينيريا وأمضت الصباح كله في نقل الجرحى إلى المستشفى مع بعض أولاد المستودع، وسط ضباب من الدخان يغطي المدينة. حين رآها مندمجة مع الناس، بشعرها الأحمر الباهت، والمائل إلى البني، قارن رافائيل الوضع الحالي مع ما يحصل عادة بعد حدوث كارثة طبيعية أو ثورة ما: الظهور المفاجئ للمتطوعين على الأرض، مهما كان تنوعهم، والذي يتطلب تنظيمهم من جديد، وعقد اتفاقات، وتوزيع المهام والمسؤوليات. كانت ميليساندرا مثل سمكة في الماء: تجيب على الأسئلة، وتقترح، وتستجوب، وتتحداهم باستخدام براعتها. كانت تتحدث وسط الشرفة من علٍ وهي تقف على كرسي وضعه لها أحدهم، مثيرة انتباه كل العيون التي تحولت إليها.

لسبب غامض، وافق الحشد على اتباعها وطاعتها. ربما كانت تمثل واسلالا بالنسبة لهم، وربما أسلموا لها القياد دون وعي منهم لتعثر على الدرب المفقود وطريق الخلاص.

أشد ما أثار إعجابه بها، هو إدارتها الأمور: دعت العصابات إلى عقد اجتماع، وأشارت عليهم كيفية تنظيم المراقبة الليلية، وتهيئة طاقم لاستعادة

إمدادات مياه الشرب، وإنشاء سوق يمكنهم المقايضة فيه من دون وساطة الرهانات. كانت ما تزال ترتدي ملابس الجندي التي أخرجها بها هو وماكلوفيو من الثكنة، متسخة بالغبار والسخام والدم.

أرسل رافائيل التقرير إلى براد، وبدأ بتوثيق كل ما حدث. قرر أن يوجه اهتمامه إلى الفيلينا. إنها مسألة إعادة بناء بلد. وهذا هو الصواب.

الفصل الثالث والأربعون

يا لهذا السخط، وهذا الغضب الذي تملكها! يا لهذا الانبساط وهذه النشوة في الوقت ذاته! فكرت ميليساندرا في قصيدة إحدى نساء واسلالا، التي قرأها لها جدها هناك في المكتب بمحاذاة النهر. لم تكن تحفظها عن ظهر قلب، لكن الفكرة تكررت في ذهنها مثل مقطع أغنية. كانت فاغواس بلداً صغيراً من الطين، في مستهل حياتها. قالت بصوت عال، وهي تتذكر البيت الأول: «أعيش في بلد، لا غروب في العالم يسمو على غروب شمسه».

نظرت إلى يديها، وإلى معصميها المحمرين جرّاء الحبل. أرخت رأسها إلى الوراء، وتنفست بعمق. ذكّرها الحمام الصغير بالزنزانة. كانت تقف ساهمة وهي تسند ظهرها إلى بلاط الجدار الأبيض المائل إلى الاصفرار، تاركة مياه الدوش تنزلق على جسدها العاري.

لابد أنها متعبة، إذ كانت تعمل منذ حدوث الانفجار دون توقف ودون نوم تقريباً. لكنها مع ذلك، لم تفقد طاقتها، لأنها تعيد شحن نفسها باستمرار. أمامها الكثير للقيام به، فكرت وهي تحت الماء، مسترجعة تفاصيل ما حصل.

فعلت ذلك في بداية الأمر، لأنها لم تستطع كبح الغضب ولا فوضى ما حدث. سارت في الشوارع مع خوسيه رغبة منها في التضامن، وتقديم أفضل ما لديها. ودون وعي منها، شرعت في العمل واندمجت بينهم. أصابتها الدهشة أولاً حين استمعوا إليها بشغف، واستشاروها، حتى وجدت نفسها مكلفة رسمياً بإدارة الوضع: عادت مدينة الطين شيئاً فشيئاً إلى ما يجب أن تكون عليه، وشرعت بعض الجماعات بتنظيف شوارع أحيائهم، وبدأت الأطعمة تتوفر -البطاطس والخضروات على الأقل- وأصلحت أنابيب

المياه المكسورة، وتجمد عمل العصابات بعد قبول وقف إطلاق النار، واستأنف العمل بالمستشفى مرة ثانية، بعدما جرى اكتشاف موقع تخزين الأدوية، التي كانت عائلة إسبادا قد خبأتها لبيعها في السوق السوداء.

حين كانت تغسل شعرها، رأت الرغوة المتسخة تتساقط على البلاط. شعرت أن الماء يريحها من طبقات عدة من الوحل. ما عليها الآن سوى أن تقرر الرحلة إلى واسلالا. لم يكن هذا هو الوقت المناسب للابتعاد. وحده الله يعلم ما يمكن أن يحدث. مع تفكيك الهيكلة غير الصالحة التي كانت عائلة إسبادا تدير بها المدينة، بدا أن الناس لا يمتلكون أدنى فكرة عن كيفية البدء من جديد دون اللجوء إلى النُظم التي أغرقتهم في المصائب. ضغطوا عليها حتى تخرج إلى واسلالا في أسرع وقت ممكن، معتقدين أن جميع الإجابات ستأتي من هناك. كان موضوع الرحلة يثار في كل اجتماع. سألوها متى ستغادر. لم يتعبوا قط من تكرار مدى تأكدهم من أنها ستعرف كيف تصل. لأول مرة في حياتها، تساءلت عما إذا كانت واسلالا ستحل فعلاً كل المعضلات التي تواجههم، والمهام التي تنتظرهم. ارتأت أن تكرس نفسها لما هو ملموس. هل سيُصيبها الغرور في القريب العاجل، لاعتقادها أنهم لن يستغنوا عنها؟ تساءلت، وهي تجفف جسدها بالمنشفة بشدة، وتشتم رائحة البنطلون النظيف والقميص، والملابس المغسولة التي ارتدتها بسرعة. هل كانت تخشى على نفسها من أن تذهب، ثم تعود لتجد أنه جرى الاستغناء عنها؟ يا لغبائي! خاطبت نفسها أمام المرآة. ما الفرق إن هي تولت زمام الأمور، أو أي شخص آخر، رجلاً كان أو امرأة! قامت بتنعيم شعرها بيديها وخرجت للقاء رافائيل، وجيمي، وخوسيه، الذين كانوا ينتظرونها للذهاب إلى مستودع إنغراثيا، من أجل استعادة الرسالة، والببغاء، وفحص الحفرة الخرسانية، التي تم دفن السيزيوم فيها مؤخراً.

حين نزلت إلى مكتب الفندق، وجدت أخباراً مفادها أن بيدرو كان قد وصل من مدينة لاس لوثيس وأبلغهم أن دون خوسيه ومرسيدس بخير. قال لها جيمي إنه سيعود لاحقاً لمزيد من التفاصيل، لأنه غادر في مهمة مستعجلة.

– ولكن ما الذي حدثك به؟ ما الذي كان يريد أن يقوله بعد؟ – سألت بقلق.

– إن جدك أصابه الحزن الشديد والضيق حين علم بوفاة إنغراثيا لدرجة ظن معها الجميع أن لها بداخله تقديراً أكبر مما كان يبديه من قبل. عندما وصل رجال إسبادا إلى المزرعة وحبسوه مع مرسيدس داخل المنزل، تصرف معهم بتحد جريء، لكن حماسته سرعان ما خمدت وغزاه الحزن حين تناهى إليه ما جرى لإنغراثيا.

أخبره جيمي أن مقاومة خواكين ضد المستعمرين كانت باسلة، إذ قام بإحباط محاولة الجنود لمحاصرة المزرعة وإشعال النار فيها. بعد نبأ نهاية الأخوين، كان رجال إسبادا قد تفرقوا.

كان على ميليساندرا أن تتأقلم مؤقتاً مع هذه العلاقة الوجيزة. الشيء الوحيد الذي حظيت به أثناء إقامتها القصيرة في السجن هو عدم علمها بما حدث في المزرعة. لم تكن تريد أن تفكر حتى في الخيبة التي أرهقتها جرّاء عجزها وعدم قدرتها على مد يد العون لهم.

أوقف رافائيل عمله الدؤوب في تسجيل كل ما حدث في المدينة بكاميرته، لكي يرافق جيمي وخوسيه وميليساندرا إلى مستودع إنغراثيا. لم تدرك الفتاة سبب هوسه بتوثيق كل شيء، لذلك آثرت أن تذيب بعض الذكريات. لم تكن لتروق لها فكرة مباغتة الذكريات لها عنوة، وحفظ كل وجه، وكل إيماءة. كانت تفضل أن تترك الذاكرة حرة لإعادة صنع الذكريات أو تجميلها أو تطهيرها من العقل.

سلكوا الطريق الترابي الذي يحيط بالبحيرة. أراحت ميليساندرا رأسها على كتف رافائيل، وشعرت أن النصفين المتناقضين لطباعهما عادا إلى التلاقي، بعد أن فرقتهما الأيام، وأنها أصبحت قادرة مرة ثانية على اللمس، والحنان، وإغلاق عينيها والشعور بدفء الشمس، وصوت الماء، وعلى استعادة القلب الذي كان مختبئاً، وإخراجه رغم الخجل والخوف الذي لا يزال يعتريه، لكي يطلّ على الخارج ويرى الغيوم التي كانت الريح تبددها. تذكرت الدهشة، والطريقة المبتكرة التي وصلت بها إلى هناك، وعينيها اللتين لم تعتادا على شيء آخر سوى الخضرة، وخضرة النهر التي كانت حوافه الحادة قادرة على امتصاص أوجاعها.

عبروا البوابة الحديدية، ثم الدائرة التي واصل فيها الكاهن غير المبالي، التمسك بتعاليمه الدينية. عاشت ميليساندرا آلام الآخرين وشاركتهم لا في أحزانهم فحسب، بل وفي ساعات الرخاء التي لا يشعرون بطعمها حين يكونون وحيدين. انبثق المبنى أمامهم بصمت. جُردت الأعمدة والجدران والأشياء المتبقية، من الحياة بعد أن كانت ذات يوم عامرة ونابضة بها: الطاولة المتهالكة التي كانت تجري عليها المقايضة، والممرات التي تمتلئ بأدراج المكاتب دون وجود للمكاتب، والمزلقة، والسرير البائس لرضيع، والنسيج الكتاني، والأوراق المتطايرة بفعل الرياح، والمحرقة في الخلفية مع أشجار النخيل، والملابس المعلقة على الأسلاك. كانت ترى ذلك كله بحزن، بحزن شديد. ربما ستظل على هذه الحال إلى الأبد. ربما لخلوه من الإنسانية الهائلة لإنغراثيا، وحب موريس، وحيوية الأولاد، ما عاد أحد يفكر أبداً في هذا المبنى المتفرد بحنين الأول وبدأ يُنظر إليه كمنزل مدمر، وملجأ ليس للبشر فحسب، إنما لتلك الأشياء المرفوضة، والمرمية، والمهجورة التي وجدت نفسها هنا سعيدة، بهياكل من الألمنيوم والحديد وقلوب من النحاس والبلاستيك والزجاج. تلك الجنة الأرضية لتلك الأرواح الجامدة، يُتِّمت وهُجرت على حين غرة، ولا خطوات سوى تلك الجوفاء الناعية وهي تتجه ببطء وعلى مضض نحو غرف إنغراثيا، التي بدت غارقة في أشياء قديمة مُغبرة وأنسجة العنكبوت التي يتجول بينها الببغاء يندب وحدته كالكلب. وعلى الضوء الخافت، ميزت ظرفاً أبيض انعكس النور عليه، يقبع وحيداً على طاولة الزاوية.

– أوصتني أن أحتفظ بكل أغراضها. اعتقدت أنك قد تكونين بحاجة إليها في المستقبل –أشار خوسيه– وربما تأخذين الكتب التي تريدين إلى جدك – أضاف محاولاً جهده ألاّ يبدو صوته منكسراً.

جلست ميليساندرا على الأريكة والرسالة في يدها. نظرت إلى الخارج حيث ضوء النهار، ولم تفهم كيف تمكن نوره من التغلغل في الداخل. تسرب فيها الحنين إلى جدها لأول مرة منذ أيام كثيرة.

خرج الرجال للقيام بأمور عملية. بقيت وحيدة. وتساءلت ما فائدته الآن وقد فات الأوان؟ فتحت المغلف، ودُهشت بخط اليد الواضح والمُسهب:

عزيزتي ميليساندرا:

لماذا لم أخبرك عن هذا كله وجهاً لوجه حين كان في استطاعتك أن تنظري في عيني وتسأليني عمّا يجول بخاطرك؟ لا أعلم. بعد أن منعت نفسي لفترة طويلة، وكلّي أمل في أن ينتهي كل شيء، بدأتْ واسلالا تتسلل إليّ مرة ثانية في هذه الأيام. إنها مسألة مؤلمة للغاية بالنسبة لي، لأن المرء يميل إلى تجنب الأوجاع والفرار منها ببراعة. لكن لم تعد لدي هذه القابلية، إذ أيقظ الألم في جسدي، الحرائق القديمة لروحي. أنظر إليك وأرى فيك نفسي حين كنتُ في عمرك: في رحلة الصراع بين العقل والقلب، نطارد الأحلام القديمة التي نمتصها في ظروف غامضة من السائل العكر لأرحام أمهاتنا. ما الذي سنكون عليه نحن البشر إن لم نحلم؟ في أي عالم مسطح، ومتوسط، وساخر سنعيش؟ الإنسانية بُنيت على أساس مطاردة الأحلام. ولكن، مع ازدياد تعقيدات العالم، قيل لنا إن عصر الأحلام قد انتهى. لقد حلمنا بما فيه الكفاية وحان الوقت لكي نتحلى بالواقع وندرك أن الأحلام خطيرة. نعم إنها كذلك يا ميليساندرا، خطيرة بقدر ما هي ضرورية.

كنتُ أقدم القهوة في الاجتماعات التي ناقش فيها جدك وأصدقاؤه الشعراء ليلاً ونهاراً، تأسيس واسلالا. لا أتذكر كم كان عمري لأنني لم أعرف عمري قط، لكنني كنت صغيرة نوعاً ما، رغم شعوري آنذاك بأني امرأة ناضجة. لقد استغرق مني وقتاً طويلاً كنتُ أقوم فيه بخدمتهم بتوزيع الفناجين والسكر والحليب. لطالما كانت يدي قبيحة، كبيرة جداً. حدث في أكثر من مرة، أن سكبتُ القهوة المغلية على بناطيلهم وأسقطتُ الأواني، بسبب اندفاعي في الاستماع إليهم. كان الجميع يوبخني عدا جدك. كان يحنو عليّ، فوقعتُ في حبه كلياً. كنتُ أراه مثل حمل. بفضله، سمحوا لي بالجلوس على الأرض في الزاوية والاستماع إلى حديثهم عن ذلك العالم الذي يتسم بالمساواة والهناء حيث سيكون الحب والتعاون والمصلحة العامة ركائز لأساس سعادة لم نذقها جميعاً من قبل قط.

عندما وقع الانقلاب وتم الاتفاق على أن الوقت قد حان للرحيل إلى واسلالا، توسلت إلى جدك أن يأخذني. أعتقدُ أنه في ذلك الحين أحبني

قليلاً. أقلقته فكرة أن يتركني في حياة العبودية تلك، بعد أن وجدتُ نفسي في قبس جديد لنوع آخر من الحياة.

مُتعبة أنا ولا أمتلك الكثير من الوقت. أظن أنه أخبرك ببعض التفاصيل حول جمعية واسلالا، لكني واثقة من أنه تغاضى عن ذكر السلبيات وما حدث بيننا، بالطبع.

بدأنا نطمح إلى العيش في كنف مجتمع ديمقراطي للغاية. قمنا بتعيين مجلس مكون من الشعراء، أشرف كل واحد منهم على ركن من الحياة المجتمعية. لكن السلطة مع ذلك ظلت محصورة في مجلس يتكون من جميع أفراد المجتمع الذين تزيد أعمارهم على ستة عشر عاماً. اعتدنا أن نلتقي عند كل مساء بعد غروب الشمس. كانت الاجتماعات لا تنتهي، لكنها ممتعة ومُحفزة. سارت الأمور على ما يرام لفترة من الوقت، لكننا سرعان ما أدركنا أن أداء المجتمع يتطلب العديد من القواعد واللوائح. وبدأ كل فرد يفهم المسؤولية على طريقته الخاصة. حين شرعنا في وضع المحددات والالتزامات، تحول المجلس إلى هرج ومرج. أي نوع من الديمقراطية يمكن أن ينشأ يا ميليساندرا، وسط هذه المصالح المتباينة؟ الكثيرون منهم، كانوا مهتمين بحل المشاكل اليومية المتمثلة بالطعام والملبس ورعاية الأطفال والسكن، بينما كان الشاغل الوحيد للشعراء هو خلق عادات جديدة للحياة، وقيم جديدة، ولغة جديدة، وأشكال جديدة من العلاقات. كان يجب تحديد سبل العيش، كما أخبرهم أعضاء المجلس، قبل القلق بشأن تعريف الحرية.

أُصيب جدك بالاكتئاب الشديد، ووجدني في حزنه. غالباً ما كان يشعر أن هناك نقصاً في الجوانب العملية للحياة، لكني عملت على منحه الفرصة ليشعر بالكفاءة والحكمة في الوقت ذاته. قمنا معاً ببناء المنزل الذي عشنا فيه، وقضينا الليالي معاً، يقرأ لي فأصغي إليه وأطرح الأسئلة. أعجبته غريزة المكر بداخلي. لم يكن يعرف شيئاً عن الطبيعة البشرية. الأشخاص الذين خطط لتحقيق حلمه معهم لم يكونوا موجودين إلاّ في ذهنه. لقد كانوا كائنات مجردة: رجالاً ونساء طيبين للغاية، ونبلاء بعمق. أكدت هذه الكائنات المثالية على أن الكائنات البشرية غير المتكاملة التي تعيش حولهم، يجب أن يكونوا على استعداد للخضوع لأي نوع من الحرمان أو

القيود أو التضحية في كنف العالم الذي سيقيمون فيه يوماً ما. لكنني أدركتُ ذلك متأخرة، ميليساندرا، وبعد فترة طويلة من مغادرة جدك، إذ شهدتُ هذه الحقائق واضحة في تصرفات الآخرين.

أخذ المجلس، كما قلت لكِ، بالانتكاس. كل يوم يأتي شخص ما بأفكار جديدة، ويقترح عليهم التوقف عن فعل ما تمت الموافقة عليه في اليوم السابق. وفقدت الأخوة التي راهنا عليها كثيراً، هيبتها بسبب كثرة النقد، وبدأ الشعراء يشعرون أنهم معرضون للمضايقة والهجوم في كل يوم أكثر. تحول المجلس إلى وحش صغير، ودكتاتورية تعسفية مُحرّضة، غائبة عن الوعي، تتلاعب بها الرؤوس الكبيرة أو أفضل المتحدثين بسهولة.

في النهاية، اتفقنا جميعاً على حلها والبدء بمحاولة جديدة باقتراح عكسي للبساطة، منحت الشعراء سلطة شبه كاملة. تحسن الأداء لفترة ما، إذ استطاعوا تهدئة الجدالات والتفرغ للعمل جميعاً. لم يكن مثالياً، لكنه سمح لنا بتركيز طاقتنا على أولويات أخرى أكثر أهمية. كنتُ وجدكِ سعدين للغاية في تلك الفترة. لقد أحببته بكل ما أمتلك من طاقة شبابية وبادلني الحب بنضوج ولطف سنواته، لدرجة أن الولاء والحب العميقين اللذين شعرت بهما تجاه جدتك، جعلاني أقرر الخروج للبحث عنها عندما توقف الخطر والقمع اللذان انغمست فيهما فاغواس.

قوتي على وشك النفاد ولا أعرف إن كنت سأتمكن من مواصلة الكتابة. أشعر بالأسف الشديد لأنني لا أستطيع أن أعطيك المزيد من التفاصيل عن واسلالا، لكنني متأكدة من أنك ستجدينها. لم أؤمن مطلقاً بمحاولات جدك للعودة. أخال أنه حاول الوصول إلى هناك دون رغبة فعلية منه. أعتقد أنه كان يخشى لقائي مرة ثانية، ومواجهة الانسحاب، وهو القرار الذي احترمته دائماً.

خذي الببغاء من غرفتي وادخلي الغابة من جهة «لاس ميناس»، عبر الطريق الذي سيرشدك إليه باسكوال – واعثري على المرشد هناك. اتبعي غرائزكِ ورؤاكِ. استمعي لقلبك باهتمام شديد.

ستجدين والدك ووالدتك في واسلالا، وسوف يشرحان لكِ كل ما ترغبين بمعرفته عن تجربتنا. لا أريد أن أنهي رسالتي دون أن أعطيك رأيي،

مهما يكن حكمك: واسلالا كانت الحدث الأجمل في حياتي. لا أستطيع أن أتخيل ما سوف أكون عليه من دون تلك التجربة. تعلمت من واسلالا ما معنى أن يمتلك الإنسان إيماناً لا يوصف، ما معنى الإيمان بالإمكانات الهائلة للكائن البشري والمشاركة في تحقيق الأحلام الكبيرة، الطرية وغير العملية. ربما لن تكون واسلالا مثالية أبداً كما رسمناها في دواخلنا، أو الأقرب إلى مخيلتنا، لكن الحياة أقنعتني أن سبب وجود المثل العليا هو الحفاظ على الطموح حياً، وتحدي الإنسان، والأمل الذي لا يمكن أن يوجد إلاّ بالإيمان بقدرتنا على تغيير واقعنا والوصول إلى عالم سعيد حيث لا موريس، ولا أولادي، ولا أنا، ولا الكثير والكثير منهم يجب أن يموتوا ويعيشوا بين النفايات والفضلات. لماذا لا نسمح لأنفسنا بمساحة من الحرية في أن نحلم بهذا، ميليساندرا؟ أن نتقبل أن المثالية عسيرة المنال ولا تستحق أن نسعى لها، قد تسمح لنا بالعجز المريح لاستيعاب فكرة أننا لا نستطيع تغيير الحزن وظلم الحياة، بيد أن هذه المسألة من شأنها أن تقودنا أيضاً إلى إنكار مسؤوليتنا والاستسلام إلى أننا لا نتملك أبداً نشوة الاعتقاد بأعمق تطلعاتنا وتحقيقها، مهما كانت الجهود سريعة الزوال ومحدودة وغير معصومة. أنا مقتنعة أكثر من أي وقت مضى، بأن العظمة، والخلاص الوحيد لجنسنا البشري يكمنان في القدرة على تخيل المستحيل.

نصيحتي الوحيدة هي: لا تسمحي للفكرة وللحلم، بأن يصبحا أهم من رفاهية أكثر الكائنات البشرية تواضعاً. هذه هي المعضلة، اللغز، التحدي الذي أتركه لك، والذي متُ وأنا أحلم بأن نتمكن من حل شفرته ذات يوم.

حظاً موفقاً يا ميليساندرا. اعتني بأولادي، بجدك، وبفاغواس.

إنغراثيا.

إنغراثيا، إنغراثيا، إنغراثيا! آه، ليتها تستطيع أن تستحضر صوتها! كان الوقت الذي قضته بقربها قصيراً للغاية وما زال لديها الكثير من الأسئلة المتبقية، ورغبة كبيرة في معانقتها والتحدث إليها والبكاء معها على الأحلام المفقودة والمتوفرة، الإحساس المتكرر بأن المرء يعيش شيئاً أكبر وأكثر غموضاً من أن يتمكن من مواجهته أو استيعابه: كانت الإنسانية تجري في

طفولتها بتصميم مجهول ومبهم، حيث لا شيء أشد وضوحاً فيها من فكرة التملك الكامنة في أعماقنا، والمُصانة ضد العقل وربما ضد الأمل، واللهفة التي تنتهي في البحث الطويل عن السعادة المفقودة. تلك الرغبة في الخروج سعياً وراء هذا الهدف البعيد، وتلك النقطة النائية المضيئة البعيدة المنال، التي تنبجس بين فترة وأخرى، كأمر محتوم، عنيد، مُلحّ لا يفنى، يدعو البشرية إلى السير على الطريق دون خرائط، ودون بوصلة. قررت مع نفسها أن تصل إلى ذلك المكان المبارك، وإلاّ، كيف نفهم إصرار الحلم على الظهور جيلاً بعد جيل على الرغم من الرفض والإخفاقات والإثبات العملي الواضح والبسيط على أنه ليس سوى دافع وراثي أعمى وجميل؟

ولد الشوق إلى واسلالا في ذاكرتها من جديد، مع صوت الطبول، والجنون المُشع غير المكتمل. تخيلت جدها وإنغراثيا، يقرآن ويتجادلان فرحين بعضهما ببعض. كيف لم تتنبه من قبل إلى أنهما كانا يحبان بعضهما بعضاً! كيف لم تخمن ذلك من خلال النظرة التي كان يصوبها إليها! مسحت دموعها بغضب، رغم أنها كانت تتدفق كما لو أن دمها كله استحال إلى نهر عاود الظهور أمام عينيها بعجول البحر، وأسماك القرش، والسردين، وأسماك الهباش، وأفراخ السمك. لمحت في نحيبها الأجش، جزراً، وشعاباً مرجانية، ومنحدرات، ومسار حياتها الكاملة بالتباساتها: الحب والضغينة بسبب هجر والديها، وملجأ أجدادها، وخواكين، ورافائيل الذي سينصرف إلى عالمه، وصوت النخيل كأنه سكاكين تقطع الرياح، وموريس. إنغراثيا، إنغراثيا، إنغراثيا، والمدينة الفاضلة، والأم التي عُثر عليها ثانية، ثم فُقدت مرة أخرى.

الفصل الرابع والأربعون

لم يقرأ رافائيل الرسالة في حينها. كان متكئاً على ظهر السرير في الفندق، وساقه اليمنى ممدودة على الأرض. كان ينظر إلى البعيد ساهماً بذراع متدلية ومرتخية تُمسك بالورقة البيضاء، فيما كانت ميليساندرا جالسة أمام طاولة صغيرة تكتب إلى جدها وتراقبه من طرف عينيها.

كان الحب يزداد تراكماً في عيونهما يوماً بعد آخر، إذ يلتهمان عصير العشق بشراهة كل ليلة ويتغذيان على ما يؤججه مرور الزمن، في الروح والجسد. كانت قد بدأت تشعر بالفعل بإحساس غريب في أنهما منصهران في كائن واحد، كما لو أن جسدها لم يكن ينتهي، فجأة وبشكل غير مفهوم فيها، بل في جسده. كانا يشكلان كهفاً، وفقاعة، وهواء يلفهما ويجعلهما معاً حتى عندما يكونان بعيدين بعضهما عن بعض.

- ألا ترين أن الأمر غير قابل للتصديق -قال رافائيل بصوت خافت- ليس فقط فيما يتعلق بمضمون هذه الرسالة، ولكن ما يمكن تخمينه بما وراء السطور، وما كانت عليه حياة إنغراثيا، التي عشنا منها لحظات لا غير؟ فكرت في الشيء نفسه حين رأيت لوكاس. كل واحد منا يموت مع تجاربه، ويتلاشى دون أن يمتلك القدرة على البوح بها. كل ما يختفي، ينتهي، ويذوب. ربما لهذا السبب ولجتُ عالم الصحافة، لهذا القلق: الخوف من أن يبتلع الصمت كل شيء.

- نعم -همست ميليساندرا- علينا إثارة الكثير من الضوضاء في هذا العالم لكي نترك صدى على الأقل. أن يتردد صوتي في كائن حي آخر، فإن هذه الفرصة تنقذني، وتجعل الحياة جديرة بالاهتمام.

– ما الذي سنجده في واسلالا؟ متى يكون الوقت المناسب للخروج إلى هناك، برأيك؟

***

وخرجا بعد أسبوع.

غادرا في الصباح الباكر بسيارة جيب جيمي متوجهين نحو تيمبو، ثم لاس ميناس، ثم واسلالا، حاملين معهما ببغاء إنغراثيا.

تملّك ميليساندرا شعور بأن العالم أخذ يسير بحركة بطيئة. تجمع حشد من الناس أمام الفندق لتوديعهما. حين بدآ بالابتعاد، غدت الوجوه مثل دائرة تتراقص متسارعة حول ذاكرتها. شعرت أن الرجال والنساء ودعوا فيها خزائن آمالهم، وحظوظ شخصية أسطورية، توشك أن تبدأ، نيابة عنهم جميعاً، بمرحلة بطولية مليئة بالتجارب، والألغاز، والفخاخ. فسر سكان فاغواس الانفجار على أنه نذير إلهي، وإحدى الظواهر الخارقة، هدفها النهائي، تمكينها من اكتشاف واسلالا. كانوا يتكهنون بما سيحدث حين تصل إلى هناك. أثرى كل واحد منهم خياله عن الفردوس الأرضي، وأخفى، بناءً على الخرافة، الاحتمال المرير بأن واسلالا غير موجودة. عبرت ميليساندرا، كلمات، ووجوه، وأوقات عصيبة، في سيل من الصور خبأتها في أحشائها، حين كانت تودعهم ملوحة بيديها.

يمكنها الآن أن تسترخي، وأن تسند رأسها إلى ظهر المقعد، وتتنفس الصعداء، وأن تكون ببساطة إلى جانب رافائيل في المراحل الأخيرة من الرحلة.

كان ماكلوفيو في تيمبو. لم تكن ميليساندرا على قناعة تامة بضرورة تدمير مزارع الفيلينا التي تعرفها جيداً. لماذا تضطر فاغواس، التي لا تأمل الخير من أحد، إلى أن تضرب مثالاً في السلوك المُتحضر والمسؤول؟ «لأنهم بحاجة إلى موارد»، برر رافائيل المسألة.

تجنب أن يخالفها الرأي. لم يكن متأكداً بعد، إن كان عليه أن ينشر التقرير أم لا. بعد أن تأمل المسألة لبعض الوقت، انتابه شعور بأن الأوقات الرتيبة التي مرت على فاغواس، اضطرتها إلى تقبل الأخطاء البشرية، وإلى القرارات

المترددة، مما جعلها تفكر في إعادة النظر في هذا كله. كان معظم سكان ثينيريا، على سبيل المثال، يسترشدون بساعة الكنيسة، بيد أنها ومنذ وقوع الانفجار، أخذت ترن بصورة غير منتظمة، معلنة بزوغ الفجر عند الشفق.

الفصل الخامس والأربعون

بدأ الظلام يسقط على تيمبو ببطء، شبيهاً بالنساء المجتهدات، والمنشغلات بتغطية أثاث منزل مُشمس بنسيج حريري أسود. كان رافائيل يجلس على قمة التل المطل على مزارع الفيلينا، متأملاً الطقوس اليومية، وعبور النهار إلى الليل.

لم تزل ميليساندرا في الفندق مع كريستا، وفيرا، وماكلوفيو، وأعيان تيمبو، يتناقشون حول ما يجب فعله مع الفيلينا.

حين وصلوا إلى المدينة في ذلك المساء، فوجئوا باستقبال مهيب من السكان الذين كان بعضهم يلوّح بالمناديل، وبعضهم الآخر يهتف لهم وكأنهم حققوا إنجازاً ما. لكن التوترات سرعان ما ظهرت فيما بعد، حين بدأ النقاش بين ميليساندرا والسكان، حول ما سيفعلون مع المخدرات. لم يكن هناك توافق بينهم. استوعبوا المعضلة الأخلاقية، ولكنهم لم يأخذوا المبادئ بعين الاعتبار مطلقاً، وبالتالي لم يتصالحوا مع فكرة القضاء عليها، وحرق ما كان حتى الآن، مصدر رزقهم وعيشهم.

كانوا يثقون بماكلوفيو، ويحبونه. هذا ما أدركه رافائيل بسرعة. كانوا ممتنين له لأنه وقف أمام عائلة إسبادا، عندما حاولوا إثراء أنفسهم على حساب حرمان الآباء من أطفالهم، من أجل التبني غير القانوني. لقد عرفوا أن الأرجنتيني كان يساعدهم على التقدم، والخروج من حالة الفقر، وإيجاد مصدر ثابت للدخل.

اعتقد رافائيل أن اهتمام ماكلوفيو بهذا الشعب على طريقته الخاصة، ربما كان العمل الجيد الوحيد الذي قام به في حياته، والذي لم يقم به

أغلب المواطنين الشرفاء والميسورين في المدينة. في نهاية المطاف، أدرك ماكلوفيو، كأحد الناجين من الكارثة، أن التعاطف الشخصي الذي ألهمه، لم يكن ليقضي على مشكلة المخدرات. إن تبني الجانب الإنساني لا يعني الوقوع في إغواء السماح وتقبل الأشياء الخاطئة، وتبرير ما لا يغتفر، ولم تكن هناك بدائل فيما يخص الفيلينا. في حال لم يوافق سكان تيمبو خلال الاجتماع القبول على حرق المزارع، فسوف يرسل التقرير في هذه الليلة. إنه أحد التزاماته. نظر إلى القمر، إلى الليل المليء بالنجوم، وإلى كتل الجبال المظلمة في الأفق. المشكلة الأساسية، أن معضلته لم تكن الفيلينا فحسب، إنما في إرسال التقرير الذي سيكون بمنزلة الخلاص من هذا الهم، وإعلان الولاء لمنصبه قبل كل شيء، والانحياز إلى جانب أخلاقيات أولئك الذين يستطيعون الدفاع عن كينونتهم، على اعتبارها الحقيقة الوحيدة المقبولة. من جهة أخرى، فإن عدم إرساله سيكون أشبه ببتر أحد أوصاله التي تعتبر حتى الآن وسيلة معيشته كمراسل فطن ومغامر. كان السؤال المطروح هو ما إذا كان على استعداد للتخلي عن ميليساندرا، وعن القصة التي شرع في توثيقها، القصة الفريدة من نوعها التي تزداد غرابة يوماً بعد آخر، والتي تُعنى بمجموعة بشرية تعيد تشكيل نفسها، وإثبات وجودها، قصة بناء أكثر إثارة بالنسبة إليه من أن تكون متعلقة بإحصاء جرائم القتل، أو بمحاولة العثور على مدلول العنف المجاني، دون معرفة ما إذا كان المرء يجاهد من أجل إيقافه، أم من أجل تحريف مفهوم نزيف الدم. سمع وقع أقدام خافتاً، وصوت تكسر أغصان صغيرة، وشهقة. التفت ليرى ميليساندرا في الظل، بجسدها النحيف، وشعرها النحاسي تحت الضوء الباهت. دنت، وارتمت إلى جانبه، ثم استلقت على ظهرها.

– إنهم يجمعون ما يحتاجه ماكلوفيو حتى لا يقضوا عليه في نيويورك، ثم يحرقون المزارع بعد ذلك –قالت بعينين مغمضتين، وهي تضغط بأصابعها على جبينها في حركة تعبر عن التعب– لقد حُسم الأمر.

***

بعد يومين، غادروا تيمبو كما غادرت الأمان الهولنديتان مع الصغير هانز، وماكلوفيو الذي نظّم جمع الحصاد الأخير لسداد ديونهم وإنقاذ أنفسهم،

وإنقاذ العائلات التي ارتبطوا بصداقات معها. كان في توديعهم المزيد من الوجوه التي يحدوها الأمل والتوقع، وأيادٍ تقدم لهم هدايا صغيرة من أجل الرحلة: خبز، وجبن، وحلويات، وخرائط، وتوجيهات دقيقة، وعجين ذرة للببغاء، الذي رفض الفاكهة غاضباً.

عبر حقول فيليبا الخضراء والزاهية، تحولوا إلى طريق مُعبّد بالحصى، يقودهم إلى الجبال. عندما رأت النباتات المتلألئة تتمايل في مهب الريح، سألت رافائيل:

- ماذا ستفعل؟ أعتقد أنه لا جدوى من إرسال التقرير الآن. ستحترق الحقول حالما تأتي الطائرات. ليتها لا تصل. لا نريدها هنا.

قال لها إنه متردد بين إرسال التقرير من عدمه. ما زال يزن الحالتين. لديه الوقت، وسوف يبت في الأمر حال عودتهم من واسلالا.

- ومتى تعود إلى بلدك؟ - سألته.

أجابها أنه سيقترح على الناشر تقريراً عن فاغواس. وبهذه الطريقة سيبقى لفترة أطول.

- ربما أُصبتَ بعدواها. وربما لن تغادر أبداً -ابتسمت- لأني أشك في أن يولوا هذا التقرير اهتماماً. مَن يبالي بما يحدث في فاغواس؟

أجاب رافائيل أنه شخصياً يهمه. لم يلج عالم الصحافة ليمضي حياته منغمساً في الدوافع المظلمة للعنف.

- يا للمفارقة! -قالت متفلسفة- في النهاية يدرك المرء أن التقدم والتطور والحضارة لا تقدم إجابات، بل تؤدي إلى المزيد من التساؤلات. يبدو الأمر كما لو أن العالم كرة صغيرة في لعبة من تلك التي يدخل فيها المرء في متاهة من الخطوط السوداء، فيصطدم بعوارض أفقية تحول بينه وبين الخروج، مما يضطر بالتالي إلى العودة والمحاولة من جديد، لكنها ستكون مستحيلة عند نقطة معينة. اللعبة يجب ان تُستأنف وتبدأ من الصفر. هل هذه هي الحروب؟ هل تستند إلى طي الصفحة والشروع في حسابات ضرورية للبدء من جديد؟ ربما بسبب تخلفها عن الركب، تحتفظ الأماكن مثل فاغواس بنوع من البراءة التي تجعلها تتجدد على نحو أبدي...

قال إنها فكرة مُبالغ بها. أية براءة تبقت لهم؟ سوف ترى بنفسها مدى صعوبة استئصال العادات السيئة، والمكر، والخُدع التي كان الناس قد بذروها من أجل البقاء على قيد الحياة وسط الفوضى والبؤس. الجهل مفهوم مغاير للبراءة. كثيراً ما يؤدي اليأس جرّاء الفقر إلى الازدواجية قبل الصدق، ويصبح فرض النظام عسيراً للغاية حالما يعتاد الناس على عدم اتباع القوانين المعمول بها. كانت تعرف تلك التجربة عن كثب من خلال اتصالاتها بالعصابات. كانت حياة الجندي بالنسبة للكثيرين بديلاً مُفضلاً عن التسول وإن تكن تفتقد الراحة والاستقرار. وعائلة إسبادا استفادت من ذلك. «في غياب السلطة الحقيقية، يتم اللجوء إلى استخدام أدوات القوة، ويتحول العجز إلى نوع من السادية»، قالت. لقد جربتها في السجن. كانت تقبع مقيدة، مغطاة الرأس، والجندي بكل جبروته ينحني عليها، ويجبرها على الاستماع إلى رواية الاغتصاب الدنيئة، ليس لكونها متخيلة، ولكن لأنها أقل وحشية.

– لم تحدثيني عن ذلك – قال رافائيل متوتراً. الغضب غير المجدي أفضى برائحة كريهة من فمه.

– لم أفكر فيها إلاّ الآن – همست، وهي تضم ذراعيها على صدرها، وتكظم القشعريرة التي هزهزتها.

نادراً ما كانا يمتلكان الوقت الكافي للالتفات إلى كومة المشاعر المتكدسة، وسط فوضى الأيام الماضية. وها هما يقبلان عليها الآن بشكل متزامن.

أوقف رافائيل سيارة الجيب وعانقها تحت شجرة هائلة كانت تخيط على أغصانها، عند الغسق، دانتيلاً من النجوم.

– اصرخي، ابكي – أصرّ.

احتضن جسدها المرتعش جرّاء البرد، بقوة. وشرع الببغاء الذي كان يراقبهما بعينيه المحولتين، بتقليد صوت الذئب على حين غرة. أخذ يعوي. وسرعان ما غرقا في الضحك إثر صوته المتفرد، ومد رقبته أثناء العواء. ظنا أن إنغراثيا ربما كانت تعوي للقمر. وبضحكة منبجسة من بكاء، ملؤها

الارتياح بعيداً عن الذعر، تبادلا نظرة مشتركة، ونزلا من الجيب ممسكين أحدهما بيد الآخر في ليل صاف وفريد، وأخذا يعويان للقمر. في البداية، فعلا ذلك للتخلص من الشعور المأساوي، وبعدها أخذا، شيئا فشيئا، في الصراخ بصوت أعلى، بكل قوة رئتيهما، مفرغان في العواء شكاويهما، وخلافاتهما، وغضبهما، حتى تحول النحيب الأولي إلى تحد، وتأكيد مدوٍ لما كانا عليه: كائنات حيوية، وواعية في عالم لا يمكن التنبؤ به.

***

بعد ساعات قليلة من المسير، ازدادت كثافة الغطاء النباتي، معلنة توغلهما في شمال البلاد، الغني بالغابات والرطوبة. كان مرأى جذوع الأشجار الضخمة، والمغطاة بالطفيليات والأوراق المدببة الكبيرة، قد عاد بذاكرة ميليساندرا إلى النهر، بيد أن الماء بدلاً من أن يتدفق هنا، يتبخر مكوناً ضفافاً من الضباب تطوف أشباحها الهزيلة بين شجرة وأخرى عند هبوب الرياح. شعرت أنهما بقيا وحيدين في عالم لم يلمسه أحد، ولم يقطع وحدته إلا شدو الطيور وظهور قطيع من الماشية الضال، يظهر ويختفي بحثاً عن راعيه.

بدأت تقاسيم الجبال الحادة، التي بدت قريبة الآن، تنبجس خلف الأدغال. اعتقدت ميليساندرا أن واسلالا لابد أن تكون هناك بين الوديان المتشابهة، حيث جُنّت البوصلة، والببغاء وحده يعرف الطريق، هذا إن كان صحيحاً ما قاله موريس، من أن هذا الببغاء بوصلة عضوية لا تُخطئ أبداً في تحديد المراكز الأساسية. كان الطائر، الذي اتكأ بينهما على ظهر المقعد، يبعث من وقت لآخر أصواتاً، تارة ذكرية وأخرى أنثوية، تشبه أصوات إنغراثيا وموريس. منذ أن استأنفا المسير بين الطرقات الجبلية، خرج من صمته وحزنه كحيوان يتيم، وأصبح أكثر حماسة، نافشاً ريشه مستعيداً الكلام. تساءلت ميليساندرا: هل سيتعرف علينا من جديد؟ هل يمتلك ذاكرة؟ أجابها رافائيل بأنهما سيعرفان ذلك قريباً.

في اليوم التالي، وصلا إلى لاس ميناس، بعد أن أمضيا الليل في المقعد الخلفي للسيارة. استيقظا فجراً حين كان الببغاء ينقر على رأس ميليساندرا الرطب.

لـم تكن شوارع البلدة معبدة. بدت كأنها قرية صحراوية مغبرة على الرغم من وجود مساحات خضراء مزهرة. كانت الأبراج العالية والهياكل المعدنية لمناجم الذهب القديمة تلوح في الأفق بين تشققات الجبال التي تؤوي عروقها. ومن هناك كان ينبعث غبار خفيف أعطى للمكان مظهراً رملياً باهتاً.

لم يستغرقا وقتاً طويلاً لتحديد موقع هيرمان. كان مكتبه خلف كنيسة البلدة، بفضل علاقاته الممتازة مع الخوري. وجدوه جالساً في غرفة الأشياء المقدسة، خلف مكتب كبير، يتقاسم المساحة مع تماثيل القديسين الذين ينتظرون دورهم ليجري تكريمهم في المعبد. كان الحائط يعج بصور الصلب، فيما تمتلئ الخزانة، بثياب القداس، وأدوات طقوسه.

لدى دخولهما، شاهدا صفاً من الرجال أمامه.كانوا أشداء ونحفاء بوجوه لوّحتها الشمس أقوياء. فرّق هيرمان الصف بلباقة، بعد أن أفرط في الترحيب بهما، وأصرّ على أخذهما إلى منزله على الفور، حتى يرتاحا ويحكيا له آخر التطورات. علق قائلاً إنه لا يعرف ما يشعر به، إذ حزن بشدة للأحداث التي ألمّت بإنغراثيا وموريس، لكنه اعتقد أن انتهاء عائلة إسبادا رحمة. كانت قبعة الفلين التي يعتمرها هيرمان، قد ذكّرت ميليساندرا، بالباحثين والمكتشفين الأوروبيين المعتدلين الذين قدموا إلى الأميركتين منذ قرون مضت. شقوا طريقهم في سيارة الجيب ببطء عبر الشوارع الغاصة بالمشاة البالغين والأطفال الذين يلوحون بأيديهم لتحيتهم، وبالعربات التي تجرها الثيران، وبالدراجات، وبواحدة أو اثنتين من سيارات الإسعاف. حتى الكلاب كانت تقترب من السيارة، وهي تهز ذيولها بطريقة ودية. أوضح هيرمان أن لاس ميناس كانت مزدهرة في زمن ما. وفي بداية القرن العشرين، كانت فاغواس ضمن الدول العشر التي تصدرت العالم في أعلى إنتاج للذهب.

– بيد أن هذه المسألة لم تنفع في شيء –أوضح– لأن الشركات الخارجية التي استثمرت في البنية التحتية، غادرت حين استنفدت المعادن، وتركت عمال المناجم عاطلين ومرضى بالسل، والتدرن، والملاريا. هذه المعادن الكونية باتت أشبه بالموضة الآن، لكن هناك دائماً مَن يشتري الذهب –أضاف– غالباً ما يعثر الرجال الذين يشتغلون لمصلحتي في تعدين الذهب، على شذرات في أنهار هذه المنطقة. لا أعرف إن كنتما تعرفان أن

كلمة واسلالا تعني بلهجة القبائل الكاريبية (نهر المياه الذهبية). كان النهر هنا حسب الأساطير المُتداولة، ولكنه نهض في يوم ما وتحول إلى ثعبان مجنح وطار محلقاً. إنها واحدة من الأساطير المُفضلة لديّ - ابتسم.

يقع منزل هيرمان في مجمع سكني، كان يقطنه تقنيون شُقر يعملون في الشركات الأجنبية في العهود المزدهرة للاس ميناس. كانت المنازل الخشبية الأنيقة، المرتفعة عن الأرض قليلاً، تبرز من بين أعالي الأشجار مثل الفوانيس الصينية العملاقة. كان المنزل الذي يشغله هيرمان صغيراً، مع درابزين جيدة الصنع، وسقف مزدوج، تدعمه ركائز متينة. ولأنه بُني على واحدة من أعلى القطع، فقد طفا بلونيه الأحمر والأصفر فوق الغطاء النباتي. لم ينقص داخل المنزل شيء: بطانية متعددة الألوان، ووعاء، ومجموعة من التماثيل الطينية، والكتب، والصور العائلية، التي وضعت بلمسة أنثوية. لم تكن المساحة الدافئة والبسيطة بحاجة إلى زينة أكثر من تلك التي توفرها الغابة، عبر النوافذ الكبيرة. امتدت غرفة الجلوس إلى شرفة مفتوحة يمكن من خلالها رؤية بحر من الرغوة النباتية التي تتسلق الجبال نحو الأفق.

- هذه هي واسلالتك يا هيرمان - علقت ميليساندرا، معجبة بجمال المكان.

في وقت لاحق، طال بهم الحديث حين جلس الثلاثة في الشرفة، يحتسون عصير البرتقال الحلو الطازج والثخين. استفسر هيرمان عن التفاصيل، وتناوبا على إخباره بما جرى. أطلعته ميليساندرا على رسالة إنغراثيا. قرأها هيرمان وهز رأسه غير مصدق، بينما كانت الدموع تنهمر على خديه ولحيته البيضاء.

- أعرف جيداً من هو باسكوال -قال بعد صمت، تنبه فيه لأول مرة إلى وجود الببغاء الذي كان يسير بين الأثاث- إن سمحتما لي، أستطيع أن أنظم لكما الرحلة، والإمدادات. ليتني أتمكن من مرافقتكما. أعرف الغابة بما فيه الكفاية، وأتمنى بالطبع أن أعثر على واسلالا أيضاً.

واسلالا

الفصل السادس والأربعون

في الغابة المظلمة، معبد الرطوبة، والطحالب، والأشنات، والمخلوقات المراوغة، تحللت أجيال من الأوراق لتنبعث منها رائحة نفاذة. كانت رؤوس الأشجار الكثيفة تحجب السماء، والشمس بالكاد تمكنت من أن ترشح في أشعة رقيقة تضيء هنا وهناك غبار اللقاح، والبذور الهوائية التي تحملها تيارات الريح. كانت أشعة الضوء تتشظى في ألوان قوس قزح.

روى باسكوال أن المحاربين، الذين عاشوا في الغابة لسنوات، كانوا يخرجون من هناك بجلد شفاف للغاية، لدرجة يمكن رؤية قلوبهم من خلال ضلوعهم. ساروا لعدة أيام بعد أن تركوا الخيول التي استخدموها في بداية اليوم، ترعى في أرض خالية، لعدم فائدتها في الأيكة التي يتقدمون فيها خلف باسكوال، الذي أقسم أن يدلهم عن ظهر قلب، حتى لو لم يكن هناك دليل مادي على وجودها. ارتضت ميليساندرا ورافائيل وهيرمان أن يكون دليلهم، مأخوذين بالخضرة والضباب الذي يتصاعد من الأرض الرطبة. كانوا يتقدمون دون أن يشعروا بوزن الحقائب على ظهورهم، وتعب أرجلهم. جعلهم الإرهاق يشاهدون صور أحلامهم وكوابيسهم وندمهم على نحو غائم.

اعتقدت ميليساندرا أنها رأت جدها يتدلى من الأشجار، وعيناه الزرقاوان الشقيتان تحدقان فيها، عبر الوجه الأبيض للقرد الصغير والضعيف، الذي ظل يتبعهم لمسافة بعيدة، وهو يرمي عليهم البذور. لقد تركتِني، كان يوبخها، ويناكدها، ويشير إليها من بين الجميع. ردت عليه: أنا أيضاً تركوني. ما الذنب الذي جنيته حين أردت أن أعرف المكان الذي سيعيد إليّ وبشكل وافر،

ليس ما سُلب مني فحسب، بل وخساراتي الماضية أيضاً؟ كان رافائيل يتبعها كظلها، وكذلك الرجل الآخر الذي يشعر بأنه وحيد، ومختلف، ومحاط بامتيازات الحب في بيئة هجر فيها أصدقاؤه آباءهم منذ فترة المراهقة. ولعبت الصدفة الغامضة دورها، في أن تجعله يمتلك ما كان يأخذه الآخرون باستحقاقهم. حمله هذا الأمر إلى الشعور بأنه مدين دائماً، وإلى الخوف من مجانية هباته. حين رأى رافائيل يعين ميليساندرا على صعود المنحدرات، أو حين تمسح بيدها العرق من جبهته بمنديل، فكر هيرمان في ذكرياته القديمة مع الحب الذي انتهى وتلاشى منذ زمن بعيد، مختلطاً مع بقايا من ذكريات أخرى في الذاكرة الأم. كان من الصعب عليه أن يميز إن كان الانبهار الذي غزا ذاكرته، حقيقة مُعاشة في واقع آخر أم تعطشاً لذكريات عزيزة. تمنى أن يستوعب رافائيل أن ميليساندرا لا يمكن تعويضها، وأنه من الآن فصاعداً لا وجود لبديل سواها، أو الحنين الشديد إليها.

في الليالي التي قضوها في المخيم الذي أقاموه، كانوا يتعافون من هذه الرؤى بالنظر إلى انعكاس النار على وجوههم، وهم يتحدثون بحماس حتى يخفت الجمر. كان باسكوال يجفف باستمرار عينيه الدامعتين أبداً. كان صغيراً، أسمر البشرة، قوياً، بجذع طويل وساقين قصيرتين جداً. في الفترات القصيرة التي لم تكن تغرق فيها عيناه بالدموع، يشتد بصره جمالاً، ويسكنه هدوء فطري، ليس جرّاء الراحة فحسب، ولكن من حالة اليقظة الدائمة التي تُعد طبيعته الثانية. كان زاهداً في الكلام، ويؤمن بالخرافات. قال إن الدمع المتواصل هو نتيجة تعويذة إحدى النساء الخلاسيات التي كانت قد أهدرت سهمها الكامل من الحب الذي أتى معها إلى العالم. كانت قد سئمت في أحد الأيام الجميلة، وغادرته، تاركة في العيون دموعاً أبدية. كان من الممكن لهذه الدموع أن تضع نهاية لعمله كمرشد، لكن هذا الداء أنعش فيه الإحساس بالاتجاهات، وحاستي الشم والسمع، بشكل مذهل.

– الحقيقة تُرى أكثر وضوحاً من خلال الدموع – كان يردد.

كان يشخر بصوت عالٍ، على عكس رفاق سفره، الذين يظلون يقظين مُتعبين من الأرق. كانت عيونهم البراقة، متفتحة في سواد ليلٍ غابت عنه النجوم والقمر، كأنها عيون حيوان متأهب.

استيقظت ميليساندرا الراقدة إلى جانب رافائيل، ذات ليلة، مأخوذة بالتفكير في والدتها. لقد أسهمت الاحتمالية القريبة للقائها، في تأجيج مشاعر أمومة قديمة، وفراغ، وظمأ إلى ثدي وحضن الأم. انتابها شعور لم يراودها من قبل، بالغياب الأمومي، إحساس جسدي حاد في جوفها، فيما كان رافائيل يعمل على مواساتها.

– لا تتأسفي على ذلك –قال لها– ثمة مَن خلقنا وتخلى عنا في هذا الكون. جميعنا كائنات دون أب دون أم. مسافرون في سبيلٍ نجهل نهايته.

في اليوم التالي شاهدوا نمراً. كان قريباً جداً. لم يعترض طريقهم. نظر إليهم دون أن يحرك ساكناً.

وصلوا بعد برهة، إلى منطقة غامضة خالية من الشجر، خمنوا أنها أسس أسمنتية وسط أشجار الصنوبر والسرو. غذّى باسكوال السير، متعجلاً. في هذا المكان الذي يُرجح أنه كان في يوم ما ساحة، انتصب حصان خشبي عملاق غريب مجوف البطن. ربما كان سيتبادر إلى الذهن أنه نسخة طبق الأصل من حصان طروادة، لو لم يتزين بزينة الجواد: شرائط على العرفين، وسرج سماوي مذهب باهت اللون، مرسوم على ظهره. أخرج رافائيل كاميرا الفيديو الخاصة به وصوره من جميع الزوايا. سارت ميليساندرا وهيرمان وباسكوال بين الشجيرات، كأنهم بين بقايا جدران ومنازل.

إنها ويويلي، ظل المرشد يردد. كانوا قريبين جداً من واسلالا. لم يخذله حدسه رغم مرور السنين. كان في أول أدوار مراهقته حين التقى بإنغراثيا في واحدة من رحلاته الاستكشافية، واختلط عليه الأمر بينها وبين عملاقة أسطورية. هدّأت من روعه واقنعته أن يساعدها ويكون دليلها في طريق العودة. روى لها أسطورة المكان: قاومت المدينة 416 يوماً، حتى قام أحد الأشخاص الماهرين بالاستراتيجيات، بتقليد الإغريق الإخائيين وأدخل الحصان الخشبي إلى ويويلي. حدث ذلك خلال الحروب الأولى. ومنذ ذلك الحين، نسبت إلى أشباح ويويلي المآثر البطولية التي لا يمكن تفسيرها، وضربات الحظ في المعارك.

تناولوا طعامهم وقرروا قضاء الليل إلى جوار الحصان. وجدوا بداخله

بقايا آخرين مروا به: ملعقة وصفحات كتاب. يقال إن الرطوبة في ويويلي كانت راكدة في الوادي الصغير الذي ينتهي عند جبل يفصل بينهما سهل يكاد يخلو من المساحات الخضراء التي تبدأ بالتكاثف مرة ثانية لتشكل جداراً أخضر على منحدرات الجبل. لم تتبدد الحرارة اللزجة مع حلول الظلام، إذ عانوا من احتدام الحر الخانق القاسي، بعد أن تبللت جلودهم وملابسهم، وشعروا بالإزعاج أكثر حين ظهرت الحشرات الليلية التي كانت تلتصق بهم، جراء انجذابها للعرق، متجاهلة السوائل المقرفة، والأضواء والأصوات التي يحملها رافائيل في حقيبته. أشعل باسكوال سيجاراً منزلياً نفّاذ الرائحة، وأعلن أنه يفضل النوم في تلك الليلة في بطن الحصان. غطى كامل جسده ببطانية، ووجهه بقبعة، وسرعان ما غط في شخير هادئ.

صرّح أمامهم أثناء العشاء بأنهم الأربعة سوف يتقاسمون معاً ومنذ الآن، حالات الغيب التي ستواجههم، لأنه يجهل المناطق القادمة. قال لهم إن بحوزته عصا سقاية، يأمل أن تعينهم على الاكتشاف، إذ سيتحول البحث إلى مسألة حدس وهواجس.

كان رافائيل وهيرمان الجالسان إلى جانب النار، يبعدان الحشرات جانباً، ويأملان أن تحدث معجزة وتهب الريح. تسببت حرارة الغابة في تلف أعصابهم، إذ خططوا في تلك الليلة للنوم في الهواء الطلق والاستغناء عن الخيمة. جلست ميليساندرا على الأرض، مسندة ظهرها إلى ما كان جداراً. لم تستطع أن تخلد إلى النوم أيضاً. عمدت إلى تهدئة الببغاء، بمداعبة رأسه. أصبح التحكم بالطائر، في الأيام الأخيرة من السفر، صعباً. اعتادت أن تضعه على كتفها أثناء السير، ولكن منذ أن اقتربوا من ويويلي، صار لزاماً عليها أن تحمله على ذراعها، وتغطيه باليد الأخرى حتى لا يسقط على الأرض، وهو مقصوص الجناحين، ويضيع بين الشجيرات. هدأ الببغاء بعد العشاء قليلاً. نفش ريشه، ورفع غرته الصفراء.

كانت ميليساندرا شبه غافية، يتناهى إلى سمعها صوت الرجال وغير بعيد عنهم شخير باسكوال. كان رأسها متكئاً على جدار غير سوي، أينعت عليه كرمة تنبعث منها رائحة شيء ما حامض ونفاذ. اشمأزت منها في بادئ الأمر، بيد أنها تقبلتها على نحو تدريجي على أنها فوحان نباتي بسيط. كان العرق

يتصبب على ظهرها. شعرت أن جسدها مبلل، وملتصق بتلك الأرض. مَن قطنَ هنا من قبل؟ ما هي الأفكار التي ستشغلهم في ليلة كهذه، صافية كثيفة في الوقت ذاته؟ أغمضت جفنيها. وضعت البيغاء في حضنها ثم خلدت إلى النوم.

***

فتحت عينيها مندهشة. أذهلها الوضوح، والسماء النارية التي تطل من بين الأشجار عند الفجر. تحركت بصعوبة. رقبتها تؤلمها. أغمضت عينيها وفتحتهما من جديد، لتعرف مَن كانت وأين؟ هذه المرة رأت رافائيل يلف نفسه بالبطانية، متمدداً بالقرب منها، بينما كان هيرمان غافياً على مسافة غير بعيدة عنهما. اعتقدت أنهم كانوا سيسهرون على حراستها. نهضت بهدوء، حتى لا تصدر ضوضاءً. ثنت ساقيها حتى تمكنت من الجلوس ويداها على ركبتيها. كان للنور المنبعث من جهة الجبال نقاء براق غريب، كما لو أن المناظر الطبيعية على الجانب الآخر مغمورة بالمياه. مررت يديها على ساقيها. هناك شيء ما ينقصها. لم تكن تعرف ماذا، ولم تستطع تحديده. تفحصت الأفق والبريق مرة ثانية. صاحت بصوتٍ عالٍ: «البيغاء!». لم يعد البيغاء موجوداً بين ساقيها، ولا يُرى في أي مكان آخر. قامت قلقة، وعدلت ملابسها وشعرها. جالت ببصرها فيما حولها، ثم أطلت على الخيمة، وسارت تبحث عنه في كل الاتجاهات. «ما هذه الوحدة!»، دندنت، يا للسكون الذي يلف هذا العالم العجيب من نوعه! بلد القردة، وطائر التوقان، والنمور، والسحالي، والحشرات، وأصوات بلغة مشفرة غير مفهومة. لا يمكن أن يكون البيغاء قد فُقد الآن تحديداً. كانت على وشك إيقاظ الآخرين، وهي تلوم نفسها على الإهمال منزعجة، حين عبر السماء سرب من البيغاوات، ملأ الجو بنغمات حادة. خُيل إليها أنها ميزت حركة خضراء من جهة الجبل، كانت لبيغاء يحاول عبثاً أن يقفز للالتحاق بالسرب. وأخذت تركض دون أن تفكر في الأمر مرتين.

في منتصف الطريق، أحست بأن جسدها خفّ وأن ساقيها تجريان مع اندفاعها على نحو إيقاعي، وأن إسراعها في الركض تحوّل إلى إحساس لذيذ بالخفة. تجاوزت البريق، الذي تلاشى مثل السراب عندما اقتربت منه، وظلت تجري نحو الشجرة، حيث اعتقدت أنها رأت البيغاء. قررت مع

نفسها أن تبحث عنه بين أكثر النباتات كثافة. كانت ما تزال تجري، لكنها واثقة من أنها لن تلحق به لأنه سيكون قد وصل إلى السرب.

كان باسكوال قد حذرهم، في بداية الرحلة، من أن الغابة ستكرر نفسها إلى ما لا نهاية، مما قد يصيبهم بالإرباك في أي متر منها. تساءلت إن كان هذا هو السبب وراء الركض الذي لم تكن تتخيله، من أجل الوصول إلى الطائر. ربما تكون قد خلّفت الشجرة التي لم تغب عن ناظرها، في الخلف، بيد أنها واثقة من أنها الشجرة ذاتها التي ما تزال تراها وهي تركض، وتلهث من الإجهاد. ووصلت في النهاية، بعد أن استغرقت وقتاً لم تكن قادرة على حسابه. توقفت، واتكأت على الجذع لاهثة. كانت تتنفس بصعوبة. شعرت أنها تختنق، وأن نبض قلبها يرن في صدغيها. مسحت العرق عن جبينها، وعن وجهها المضطرم. كان الألم يتصاعد في رئتيها كلما حاولت أن تتنفس. نظرت في جميع الاتجاهات بحثاً عن الببغاء. أسندت ظهرها إلى طول جذع الشجرة، واتخذت مجلساً فوق الجذور الناتئة على الأرض بعد أن قررت عدم استئناف مسيرتها. كان عليها أن ترتاح، لأنها ما تزال تلهث. لابد أن الببغاء قريب. تفحصت بعينيها المناطق المجاورة. كانت محاطة بالخضرة. اندهشت عندما وجدت نفسها عند سفح الجبل الذي يمكن رؤيته من ويويلي. بدأت أنفاسها تتسارع مرة أخرى. شعرت بالبرد. اعتقدت أن العرق قد تبخر. وفجأة سمعت صوت الببغاء. «شمالاً، شمالاً»، سمعته يقول بوضوح.

انتصبت مبهورة، ومتأثرة ليس بسبب رؤية الطائر فحسب. اقتربت من الببغاء الذي بدا كأنّه ينتظرها بين أغصان إحدى الشجيرات. قطعت المسافة ببطء. أرادت أن تتأكد من أنها لم تكن تتخيل الهواء الشفاف، والصافي، والدافئ، والرياح المنعشة...

أنها «واسـلالا»، همست وهي تلتفت من جديد نحو المساحات الخضراء التي تحيط بها، والخضرة الكثيفة المتلألئة، التي لا تنتسب لتلك الغابة العذراء، بل لفضاء طبيعي آخر: جنينة يمكن من خلالها تقييم عمل الكائنات البشرية.

***

تبعت الببغاء، الذي كان يطير لمسافات قصيرة، ثم يمشي أخرى على قائمتيه، ويتحرك من اليمين إلى اليسار، متعثراً بمخالبه الطويلة التي انغرزت في الأرض الخضراء.

تبعته وهي تعاني من حالتي التوتر والخوف في الوقت ذاته. كانت تحث الخطى، لكنها تتباطأ مترددة ومتكاسلة.

يداها ترتعشان أمام فكرة تمزيق الحجاب. كانت تخشى أن تؤدي الحقيقة إلى تحطيم سلالم خيالاتها المتشابكة على نحو صاخب.

غادر الطائر الحديقة وهبط عبر أحد المنحدرات، متوغلاً بين شجيرات منخفضة. اضطرت ميليساندرا إلى تجاوزها زاحفة حتى خرجت إلى أخدود صغير يجري فيه جدول رقيق، ينزلق بين صخور مستديرة ملساء. تخيلت أنه كان نهراً ذات يوم. ربما يكون النهر الذهبي، الذي خرج محلقاً. مشت على القاع، وهي تصغي إلى خطاها على الصخور. قفز الببغاء مردداً: «شمالاً، شمالاً».

كان قلبها يضيق عليها كما لو أنها ركضت مرة أخرى دون توقف. ارتفعت التضاريس وتحول الأخدود إلى ممر، مغلق بالأجمة، يدور حول سفح جبل تجري فيه رياح قوية وغامضة، لم تكن تهب في اتجاهين فحسب، بل تدور حولها في دوامات دون أن تلمسها. فكرت في قصة جدها حول الملابس، التي كانت تجفف في لمح البصر في «ممر الرياح». ابتسمت. شعرت كأنها في جوف إعصار حليم ولعوب يتباهى بسلطته لكنه لم يجرؤ على إفساد تسريحة شعرها. كانت الريح تدفع الببغاء، سامحة له باستخدام أجنحته المقصوصة، لإنقاذ نفسه من مهانة القفز مثل الدجاجة.

حين خرجت هي والببغاء من هناك، شعرت ميليساندرا مرة أخرى، بحضور الدور البشري: كانت تلتف حول جذوع الأشجار الرمادية التي لم تكن ترى رؤوسها، الكثير من البصيلات، والأوراق ذات الرؤوس الحمراء، وطيور الجنة، والسراخس العملاقة، والأوراق العريضة الحادة والمتشابكة. على الرغم من أن الغابة تبدو كأنها تحتفظ بعذريتها المهيبة، فإنه من الممكن أن يُرى التعاون الخفي والراقي لليد البشرية، الذي أعطى لمسات من الألوان هنا وهناك.

انتهى «ممر الرياح» عند شجرة سيبو الهائلة التي يرتفع جذعها الرمادي المنتصب محتضناً أغصاناً ملتفة بعضها على بعض في حركة شديدة. بعد أن خلّفت وراءها شجرة السيبو، واصلت سيرها لفترة طويلة حول الجبل الذي ينحدر إلى اليمين في وادٍ، تنبجس منه رؤوس وأغصان أشجار مذهلة. انتهى بها المطاف إلى طريق جانبي ضيق عند المنحدر الأيسر للجبل، أوصلها إلى فسحة ساطعة. وانفتح الأفق أمامها. توقفت ميليساندرا، واضعة يدها على فمها. شعرت بضربات قلبها جرّاء الدهشة.

امتد أمامها وادٍ هادئ صغير ووارف، تظهر فيه مرتفعات خضراء وتختفي، كما لو أن الأرض كانت تريد أن تترك أثراً من رجفة تسري في ظهرها. حدقت بذهول نحو جهة اليسار، حيث الأسطح الحمراء التي ترتفع فوق أوراق الشجر، بالقرب من سلسلة طويلة من طواحين الهواء الواقعة إلى جوار أحد الجداول التي قال جدها إنه كان قد شيّد منزله هناك.

هدّأت من سرعة الببغاء، الذي أراد أن يواصل تقدمه. قبضت عليه وضمته بين يديها.

- انتظر أيها الببغاء الحبيب -همست- انتظر.

جلست على جذع شجرة، وهي تعانق الببغاء. دفنت رأسها في صدره، ثم أخذت نفساً عميقاً. رفعت وجهها، ومسحت عينيها، واستأنفت المسير.

خمنت أن الساعة الآن هي الثامنة صباحاً، وربما تكون التاسعة، من يوم صافٍ ورائق. وأقرت في داخلها، أنها وصلت إلى واسلالا. وسرعان ما تملكها شيئاً فشيئاً، شعور غريب بالسلام.

الفصل الثامن والأربعون

كانت تأمل أن ترى والديها حال دخولها إلى واسلالا. تمنت أن يكون الهواء السحري قد نبأهما بوصولها، ونقل لهما رائحة الابنة وهي تقترب. لم تر أحداً. مشت في حالة من الذهول بين مسارات ملتوية وسط أسيجة عطرة، ومساحات عبقة بالزهور، وشجيرات، وأشجار برتقال وليمون، وجذوع نمت عليها نباتات ضخمة مليئة بفاكهة أرجوانية كثيفة. رأت على جانبي الطريق الرئيسي الذي تغطيه حجارة النهر، ممرات تؤدي إلى اتجاهات مختلفة، وقناة مصنوعة من الآجر الطيني المعمول بالفرن، تجري بداخلها المياه. تأملت المنازل المتفرقة التي لا تنضوي تحت ترتيب معين، لأنها تصطف حسب ما تسمح به الأشجار. أعجبها البناء الخشبي الصلب، المستند إلى ركائز متينة، مع شرفات، ودعامات سميكة من خشب البلوط والماهوني الصلب، وكذلك جذوع الأشجار المعمرة التي تنمو لبعضها في الوسط، والغرف المركبة فوق الأشجار المتراصة والمربوطة بعضها مع بعض بجسور، والأكواخ الصغيرة بأشكالها الهندسية الغريبة، والزوايا غير العادية التي تلبي أركانها احتياجات الأرض.

وتساءلت: أين يختبئ السكان؟ هل هو اختفاء نباتي طوعي لكي تظل الزهور في مضاجعها، والشجيرات على الأسيجة، والنباتات الكثيفة المورقة في محلها، حتى لا تتسلق سلالم المنازل، وتعلو النباتات المتسلقة وتلتصق بالنوافذ؟ التزم الببغاء الساكن، الذي كان على كتفها، الصمت.

ألقت نظرة خاطفة على المنازل. كانت دواخلها تنم عن الهجران والهرم. صرخت تلقي التحية. لا شيء. لابد من وجود أحد ما. «أمي»،

كانت ميليساندرا تردد، «أبي». يجب أن يأتي أحد لإقناعها بحقيقة ما رأت.

فتحت باب أحد المنازل. تراجعت دون أدنى صعوبة، بسبب تطاير الغبار أثناء دفع الإطار. ومن خلال تطاير الجسيمات العائمة في الضوء، استطاعت أن ترى ما في الداخل من أثاث مُتهالك، وأن تميز محفوراً خلف الباب اسم: «ماركوس».

جلست على كرسي أحدث صريراً بفعل ثقلها، وأخذت تتأرجح.

استعادت في مخيلتها وجوه أولئك الناس مراراً وتكراراً، لا وجهي والديها وهما يدققان النظر فيها فحسب، ولكن تلك التي تعود للآخرين، ولماركوس هذا على سبيل المثال، الوجوه المباركة التي تطالع المستقبل، وما ستؤول إليه الإنسانية عندما تتبدد الكراهية والتفاهة. من أجل هذه الوجوه عاشت حتى ذلك اليوم الذي تملكها فيه هوس واسلالا، مثل عذراء في المعبد المنير، تُهيئ نفسها سراً لنسج الخيط الذي سيأخذها إلى هناك، وإخراج قرار مغادرة النهر من أحشائها، مثل عنكبوت، ومغادرة الجد وخواكين، وحتى نفسها، وجزئها العقلاني والعملي، من أجل البحث عن الكأس المقدسة عبر غابات الفرسان الموتى، وجثث الانفجار. كانت قد كافحت من أجل العثور على جلدها الآخر وتقبله: جلدها كبطلة رومانسية، مؤمنة، ومتحمسة، ووفية للرغبة الغامضة في البحث، دون كلل، عن سبب ذلك الحلم المثالي الذي كان يجري في عروقها دائماً وبقوة.

نهضت. التقطت الببغاء الذي كان يتهادى، تاركاً آثار مخالبه على الغبار. ستقودها مياه القناة إلى الجدول، وسوف تتعرف على المنزل. ربما ستجد المفتاح هناك. خرجت مأخوذة برائحة الياسمين التي تفوح في الهواء.

في الوسط رأت ما سيكون عليه المنزل المجتمعي: مفتوحاً، له من الأضلاع ثمانية، مع طاولات طويلة ومقاعد وموقد حطب.

لم يصعب عليها العثور على الجدول الذي وصفه لها جدها. «شمالاً، شمالاً»، عاود الببغاء صياحه، بصوت حاد وأجش. طوت ميليساندرا ذراعيها فوق صدرها، ببرود. سارت ببطء، وهي تتأمل المياه البلورية الصافية، والزنابق البيضاء، والسرخس. يا لجمال واسلالا! كانت تطوقها

أربع شجرات سيبو. فكرت في لحن الناي. هكذا كان، ريفياً بنكهة عصرية وغريبة في الوقت ذاته، كأنه لا ينبعث من هنا، بل من مكان آخر. كان البناء على شكل خطوط هندسية نظيفة، بفضاء مفتوح.

لمحت المنزل الذي أخبرها عنه الرجل العجوز، والشرفة التي تجري تحتها المياه. حثت خطاها، فيما قفز الببغاء من على كتفها وبدأ يطير بقفزات صاخبة متحمساً.

شعرت بالعطف نحو الحيوان. ربما يفكر بأنه سيرى إنغراثيا مرة ثانية.

كان المنزل مأهولاً. لم تر أحداً، بيد أن العلامات كانت واضحة: لا شيء من الإسراف والهَرَم. كان الأثاث الريفي مغطى بأغطية ملونة، بعضها رث، لكنها نظيفة. المسكن صغير تنتشر على طاولاته البسيطة أوان فخارية غير منتظمة، تتناثر فوقها أزهار كالتي ترى في كل مكان. كان الموقد الخشبي الكائن في زاوية المنزل يستخدم لتدفئة غرفة معيشة، والطعام، والمطبخ، والمكتب.

في نهايته، كان ينتصب درج خشبي ريفي يوصل، دون شك، إلى غرفة النوم والحمام. وعلى إحدى الطاولات كانت تُرى كتب وأكوام من الأوراق المتفرقة، والمرتبة بعناية، وُضع فوقها حجر نهري ثقيل. دخلت ميليساندرا دون أن تفكر في أن تطرق الباب أو تُعلن عن نفسها. اجتازت عتبة الباب المفتوح. الهدوء يخيم على المكان. «مرحباً»، نادت. لم تتلق أي جواب.

اقتربت من المكتب. رأت الظروف، والفراشات المعلقة بدبابيس، والخنافس المجففة مصفوفة على رف، وصورة صفراء لجدتها معلقة بمسمار على الحائط. ارتجفت. تناولت إحدى الملاءات وغطت كتفيها. مررت يدها على الأثاث، كما لو أنه سيفسر لها اللغز.

لم تكن تعرف كم من الوقت قضته هناك، بلا حراك، تنتظر.

كأنها غفت، لأنها حين استيقظت، رأت أمامها امرأة كانت تراقبها بعينين تشبه عينيها.

الفصل التاسع والأربعون

كان الجدول يزأر في تدفقه، وملامحه تسقط في وعيها إرباً إرباً. توحدت الصور المبرقعة، واستعاد البورتريه الباهت لونه. بقيت ميليساندرا هادئة، تحدق فيها بانبهار. كانت هي نفسها. إنها الآن أمام المرآة بعد عقود عديدة. المرأة الساكنة التي هرب منها الكلام.

– مرحباً، ميليساندرا – نطق الصوت الأجش أخيراً.

– مرحباً – أجابت هي.

انحنت المرأة. جثت على ركبتيها إلى جانب الكرسي. اقتربا بعضهما من بعض ببطء، لا ليرتميا احداهما في حضن الأخرى فقط، بل لكي تشمّا ويتنشقا ويتحققا بعضهما من بعض، في طقس متوتر، تقدمت فيه الأم صامتة عابقة بالحنان، ممتلئة بها، تلامسها، مرددة دون توقف «ميليساندرا. كنت أعلم أنك ستأتين ذات يوم، ميليساندرا». توقف الزمن. في لحظة ما تخلى الجسد عن مقاومته، وأخذت المرأة بأحضانها. وضعت رأسها على كتفها وأغمضت عينيها.

حين أرادت أن تبادلها الحنان، وتقول لها أمي، ماما، انطلق الشوق، وهاج هدير الحزن في أحشائها. وبدلاً من الكلمات، أطلقت العنان لعويل حزنها، ورعب الليالي المُنهِك دون وجودها، ورفضها للأذرع الغريبة التي حاولت أن تحل محلها، والنحيب الغاضب الهائل، والفراغ الذي لا يوصف لعجزها المطلق عن الاستيعاب، وأوجاع التشتت الذي لم تعترف مع نفسها قط، وحتى هذه اللحظة، كم كانت تقض مضاجعها.

كانت الأم الباكية بصمت، تهدّئ من روعة ابنتها وتهدهدها بين ذراعيها، هامسةً في أذنيها أناشيد المهد لفترة تمنت أن تطول.

– أين أبي؟ – سألت ميليساندرا لاحقاً، حين جلست على الأريكة، تحتسي القهوة التي قدمتها لها والدتها.

– مات منذ أربعة شهور تقريباً. كان مُتعباً ومريضاً جداً. تمنى كثيراً أن يراكِ، لكن هكذا سارت الأمور. لم يعد موجوداً، رغم أنني ما زلت أفتقده.

نهضت. أرتها الصور الصفراء لوالدها في شبابه. لاحظت ميليساندرا يديها: خشنتان وقويتان، تماماً مثل يدي جدتها. لم تسأل الأم عن الجد، إذ احتبس في فمها الكلام. اهدئي، قالت لنفسها. أمامنا الكثير من الوقت. مُتعَبة هي كوالدتها التي تتحرك بتثاقل، لدرجة أنها كانت واثقة من أن هناك أمراً ما غير طبيعي. انتبهت إلى كتفيها العريضتين. كانتا متشابهتين، لكن ثمة اختلافاً بينهما. وتراءى لها الشفق من النافذة.

– أين البقية؟ –سألت– هل يُعقل أن تكوني وحدك في واسلالا؟

– سأقص عليك كل شيء مع مرور الوقت. ستبقين معي هذه الليلة على الأقل، أليس كذلك؟ الوقت متأخر، وسيحل الظلام عاجلاً وتنغلق الغابة على نفسها.

تحركت القدور في المطبخ، واشتعل الحطب. نهضت ميليساندرا. قالت إنها ستذهب إلى النهر لترش الماء على وجهها. حال خروجها من المنزل، شعرت بهبوب الرياح الباردة مرة ثانية ودورانها. كانت ترفع الأوراق عن الأرض، وتؤرجح أغصان الأشجار. بدأت النجوم تظهر في السماء الوردية والأرجوانية. وصلت إلى حافة الجدول، وركعت بين الصخور، وأدخلت يديها في الماء. رأت خطوط باطن كفيها الأبيضين، يتلالآن. كان مكتوباً هناك أنها ستعثر على والدتها. علمت بذلك طوال الوقت، إذ كان قلبها أكثر حكمة من عقلها. من الصعب أن تتحقق، في هذه المرحلة، من أن العثور على والدتها لم يحل أي شيء. اعتادت على غياب أمها الدائم، ومن غير الممكن ترميم الروابط. لم تشعر بالاستياء ولا بالعتاب. كانا كائنين منفصلين منذ أن قُطع الحبل السري. لكنها كانت تريد أن تفهمها. من الضروري جداً أن تفهمها حتى تتحرر من الألم الذي كان يربطها بها.

غسلت وجهها وعادت إلى المنزل. كان الظلام يهبط في موجات مذهلة،

ومد يبتلع الضوء على شكل جرعات، وفي الداخل كانت تفوح رائحة الكزبرة.

تناولا طعاماً بسيطاً: بطاطا مهروسة في أوان فخارية، وفاكهة. انبهرت حين رأتها تشعل الأضواء. نور كهربائي في واسلالا. أوضحت الأم أن مصدرها، الطواحين والشمس. لقد قاموا باختراعات لا تصدق هنا.

لكن من أين تأتي المواد الخام، والأشياء؟ من إنغراثيا، شرحت لها الأم. كانت تتوسل إليهم، وذلك هو أحد الأسباب التي دعتها إلى مغادرتهم. كان المجتمع سيفشل في الحصول على بعض الأشياء الأساسية لولا مساعدتها. أما الباقي فقد جرى توفيره عن طريق النابغة.

– لكن أين أولئك الذين مهدوا الطريق لذلك؟ ماذا حدث لهم؟ – أصرت ميليساندرا.

– أخبريني عن جدك وجدتك – أجابت الأم وهي تنهض لوضع الماء في غلاية القهوة.

«إنها خائفة» فكرت ميليساندرا.

– الجد بخير، والجدة توفيت.

– ماذا؟ –قالت الأم في محاولة للبقاء هادئة. لم تكن قد تخيلت، أنها ستموت قبله– وأنتِ توليت مسؤولية المزرعة منذ ذلك الحين؟

– نعم.

كانت تريد أن تعرف عن مرسيدس، وعن النهر. حكت لها ميليساندرا، أثناء قيامها بإطعام عجينة الذرة للببغاء الذي كان يتحرك داخل المنزل كأنه يعرفه.

– هذا ببغاء إنغراثيا، أليس كذلك؟ كيف حالها؟ أخبريني عنها.

– لكنك لم تعرفيها، ولم تتمكني من مقابلتها.

– كأنني أعرفها – أكدت.

أجابت: كما لو أنني عرفتها.

كانتا تتبادلان الرسائل في بعض الأحيان، وأصبحت تعرف الكثير عن إنغراثيا، بما يكفي للمجاهرة بالمودة العميقة.

ارتشفت ميليساندرا قهوتها. كان من الصعب التحدث مع والدتها عن إنغراثيا دون أن ينقطع صوتها.

– آه! ميليساندرا –تنهدت– ما هذه الطريقة المبهمة التي تسير بها الحياة، لكن قليلين مَن يحتضنهم الموت لكي يُولدوا من جديد. آلمني كثيراً ما حدث لإنغراثيا، لكني أفهم ذلك ولا يمكنني أن أعارضه.

أشارت ميليساندرا أن وجودها هنا كان بفضل إنغراثيا. لولاها ولولا باسكوال والببغاء، ما كانت لتصل أبداً. لكنها كانت بحاجة إلى أن تعرف، قالت مصرة، وعليها أن تعود. إنهم ينتظرونها.

الكثير من الناس ينتظرون أن تأتي إليهم بإجابات من واسلالا. كيف تعود وتخبرهم أنها لم تأتِ بشيء؟ لابد أن تنيرهم بشروحات على أقل تقدير.

وقفت وذراعاها متشابكتان على صدرها. ألقت الأم غطاء آخر على كتفيها، وانصرفت لتضع المزيد من الخشب في الموقد، لأنها الطريقة التي كان يدفأ بها المنزل. أعادت ملء فنجانَيْ القهوة، وأشارت لها بالجلوس على الأريكة.

قالت إنها ليست بحاجة إلى إخبارها عن الأسباب التي دفعتها، هي ووالدها، إلى الخروج بحثاً عن واسلالا، لأنها على دراية بها. ولكن مثلما وجدت نفسها، خلال رحلتها، مقحمة في أحداث غير متوقعة، هما أيضاً انتهى بهما الأمر بالتورط في الحرب آنذاك –نفثت في الهواء دخان سيجارتها التي لفتها من أوراق جافة، والتي كانت تنبع منها رائحة كريهة، لكنها مهدِّئة على نحو غريب–. تابعت قائلة إنهما كانا على وشك تعليق البحث، معتقدين أن بإمكانهما استغلال نفوذهما للتوسط بين الأطراف المتنازعة من أجل إنهاء الخلافات، وإقناعهم بحلها سلمياً. حماسهما في التحاور جعلهما يتنقلان بين طرف وآخر، دون الانحياز لأي أحد. لكنهما في الأخير، اتُّهما بالخيانة المزدوجة. وفي أحد الأيام الجميلة تعرضا لكمين. قاموا باغتصابها، فيما قتل والدها، رجلين دفاعاً عن النفس. (خفضت الأم عينيها عندما تحدثت عن الاغتصاب، لكن نبرتها لم تتغير). حين وصلا إلى واسلالا، لم يكن في نيتهما الفرار من مطارديهما فقط، بل ومن أنفسهما أيضاً. رحب بهما المجتمع وأسكنهما في هذا المنزل. واستطاعا بدعم وتضامن الآخرين،

التصالح مع عيوبهما، وغضبهما، وعجزهما، وترك الماضي وراءهما، والشروع بحياة جديدة كأنها بدأت في اليوم الذي عبرا فيه «ممر الرياح». بعد فترة وجيزة من وجودهما هنا، أدركت أنها حامل. قالت إنهما لم يعرفا قط عن أبوة التوأمين، بيد أن الطفلين أصبحا مركز اهتمامهما وحبهما، بعد ولادتهما. بعد وقت قصير، تنبها إلى أنهما لم يكونا يشبهان أي واحد من الوالدين، لأنهما كانا قد ولدا بوجهين مميزين لأولئك الذين يعيشون في عالم طفولي وعاجز إلى الأبد.

– كانا حلوين للغاية – قالت الأم بصوت خافت وحزين.

توفي الأول ثم لحقه الثاني بوقت قصير، في سن المراهقة، قالت وهي تتنهد. اعتنت بهما مع والدها حتى اليوم الأخير.

– لم نستطع تركهما، ميليساندرا. ولم نرغب في إخراجهما من واسلالا لأنهما كانا سعيدين فيها.

نهضت بعد مدة قصيرة، وداعبت رأس الابنة، التي كانت تحدق ذاهلة في اللوحات التي عُلقت بداخلها الفراشات الميتة بدبابيس. مسحت الدموع من خديها، وقدمت لها الماء. أصلحت من حالها، بعد أن شربت الماء أيضاً وواصلت قصتها.

– أُعلن في واسلالا عن فكرة اختيارهم لمهمة تتجاوز الفردية، وذلك من خلال اختيار أسلوب جديد للحياة، إذا تبناه الآخرون، فلن يغير وجه فاغواس فحسب، بل حتى كوكب الأرض. مع ذلك، فإن تفعيل المفاهيم المجردة التي تستند إلى الإيمان الراسخ بطيب الإنسان، لا تخلو من العقبات. أكد الشعراء أن هذا ما كان يجب أن يُسار عليه منذ البداية، وعدم الركون إلى ما يُثبط العزم. وأفصحوا أن المثل الأعلى يكون غير مكتمل حتماً حين يصبح ملموساً، لأن أولئك الذين يقومون به، هم بشر تربوا على قيم متناقضة. كانت مهمتنا زرع البذور، لكن الأجيال الجديدة هي التي ستتغلب على النكسات. ضمن هذا المنطق، وبعد سلسلة من المحاولات التنظيمية الفاشلة، تقرر الاعتراف بمبدأ السلطة، الذي حاولنا إلغاءه في البداية. وهذا ما دفع مجموعة من العائلات إلى مغادرة واسلالا. أما الذين بقوا، فنجحوا

في التعايش معه. استمرت هذه الهدنة حتى بدأ الشعراء يموتون واحداً تلو الآخر، بطريقة غامضة. لم نعرف قط، على وجه اليقين، ما الذي حدث لهم. لقد غرقوا في حالة من الكآبة العميقة، وذبلوا. يمكننا أن نفترض أنه على الرغم من قبولهم بحتمية الأخطاء الأولية، فكرياً، فإن التفاهة والأحقاد كسرت قلوبهم. كان هناك مَن يعتقد أن ممارسة السلطة، التي أهملوا جوهرها، استهلكتهم. أعتقد شخصياً أن ما أسكتهم بالضربة القاضية، كان يقينهم من عقم النسل البشري في واسلالا.

- كيف...؟ - شعرت ميليساندرا بالتنمل.

- إنه لغز يا ابنتي. كانت الحيوانات تتكاثر، والنساء لا تحمل. كما سيشرح لك جدك، واسلالا فترة انتقالية، وفجوة داخل الزمن، ومساحة غير محددة. هذا التشويه الزماني - المكاني، هو التفسير الوحيد الذي استطعنا أن نطلقه على هذه الظاهرة. لقد حللنا المشكلة جزئياً عن طريق إرسال الأزواج على نحو مؤقت إلى مجتمع الفلاحين، الذي أخبرك عنه أبي. عادت النساء حوامل بالفعل وأنجبن هنا، لكن هذا الترتيب كان ينقصه الكثير، لأنهم غالباً ما كانوا يضيعون طريق العودة، وبعضهم لم يرجعوا قط.

- أو ربما أن أولئك الذين سكنوا واسلالا، بطريقة ما، اضطروا إلى التخلي عن التكاثر البيولوجي، بمفهومه الأولي والأساسي للملكية؟

- لم أفكر مطلقاً في هذه المفاهيم -ردت الأم بنصف ابتسامة- لكن يمكننا أن نقول نعم، هكذا كان الأمر.

- أكملي - طلبت منها ميليساندرا بعد أن نهضت وهي تذرع المكان جيئة وذهاباً.

- الحقيقة هي أن المجتمع أصابه الانشقاق، بعد وفاة الشاعر الأخير، ولولا وجود الزوار، لكان قد انتهى بالتأكيد. الدخول إلى واسلالا ليس صعباً كما يبدو، إذ كان يأتي من وقت لآخر، أشخاص تمكنوا من عبور «ممر الرياح». في البداية، كان لهذه الزيارات آثار سلبية، لأن الأخبار التي كان يأتي بها الوافدون الجدد، والحياة التي يرونها، بغض النظر عن مدى القساوة، والصعوبة، والعبثية، التي قد تتبدى للكثيرين، كانت تغري الآخرين

لتذوق طعم واقع أكثر إثارة من المساواة الريفية المتفشية في عهدنا. لكننا مع ذلك، أدركنا -قالت وهي تلف سيجارة خرى- المفارقة التالية: لم تعد واسلالا تلك التجربة المتذبذبة، التي قمنا بإنشائها فقط، بل أصبحت أسطورة ونقطة مرجعية وأمل، وتحولت، قبل إثبات فعاليتها حتى، إلى مثال يُحتذى به. واضطلعت بدورها كحلم قادر على تعبئة رغبات وتطلعات أولئك الذين يتوقون إلى مصير جماعي أكثر انسجاماً مع أفضل الإمكانات البشرية. وفهمنا حينئذٍ، أن الخيال كان قد اكتسب قيمة كبيرة مثل الواقع.

كان لهذا العمل آثار مدهشة خلصتنا من الصعوبات وأنقذتنا من الانحلال، الذي لم يكن يرغب به أحد. لا أعرف من اقترح، في واحد من اجتماعاتنا، أن نغذي خيال واسلالا. قال ربما تلك هي مهمتنا، في أن نجعل من الوهم، حقيقة. وأسرَتنا هذه الفكرة. اقترحنا أن نخلق وَهم مكان سيبقى جماله، وتناغمه، وكماله، أموراً منقوشة بشكل لا يُمحى لدى أولئك الذين تمكنوا، في تقلبات الزمن وأخاديده، من إيجاد طريقهم عبر «ممر الرياح». لقد شغل منح الوهم حياةً، أيامنا وخيالنا.

ولكي نباشر بمشروعنا، عملنا على إنشاء حدائق ومناظر طبيعية، حتى ترسخ الانطباعات المرئية في الذاكرة أبداً. وهكذا أصبحت واسلالا محطة للزهور، وللورود المتسلقة، ونبتات البوغانفيلياس المتوهجة، والشوارع الغاصة بالياسمين، والشرفات التي تمتلئ بأزهار الأجراس، ونباتات الهليوتروب ومسك الليل، وطرقات عامرة بالآنثوريوم والزنابق، وأحواض القرنفل والكاميليا. كان كل منزل عبارة عن معرض. كثرة الزهور جعلت الرياح تعبق برائحة الذكريات الدافئة، والحنان، والنشوة، لدرجة صار بإمكان المرء أن يغلق عينيه ويعاود الصعود في التطور إلى العصر النباتي، حين كان مجرد لمس الضوء يكفي ليبتهج الجسد كله. ثم قمنا بتغطية الأرض بالطحالب والعشب، وأعدنا إنتاج نباتات سرخس عملاقة، وقلمنا الأشجار التي يبلغ عمرها قروناً، لكي تختلط أغصانها بشكل فني بعضها مع بعض. ومن الجدول زودنا واسلالا بقنوات خفية ونافورات، لدرجة صار سماع خرير المياه في كل مكان مُهدئاً للأوجاع.

بعد ذلك، قمنا ببناء كوخ فسيح ومُضاء، من خشب الأرز، لاستيعاب

الزوار، ورممنا المنازل ومنطقة المطبخ، والألعاب الجماعية، والمدرسة، والعيادة، وركزنا جهودنا على الالتزام بمشروع تشطيب الفضاءات التي يتم فيها تدريس الفنون، وصنع الخزف المتعدد الألوان، والمنحوتات، والرسم على لحاء الشجر، بالمواد المتوفرة لدينا.

ومن كتب الجميع، شيدنا مكتبة. ضبطنا الرفوف على أغصان إحدى شجرات الغواناكاست التي بنينا بين قمتها والجذع، سقفاً محكماً من النخيل لا يسمح بمرور الماء. كما صنعنا الجدران من ألواح قابلة للفتح والغلق، بحيث كانت الإضاءة في المكتبة دائماً ساطعة ولا تزعج العينين أبداً. ونظمنا هناك ورشاً أدبية يُلقي فيها الشعراء قصائدهم، تتخللها نقاشات حول الفلسفة... ما شاهدته الآن هو مجرد ظل لما كانت عليه واسلالا.

توقفت الأم لالتقاط أنفاسها. كانت عيناها تتلألآن بنشوة الذكريات التي تحمل معها حنيناً جارفاً إلى الماضي.

كم تشبه الجدة! فكرت ميليساندرا. كان لديها نفس الإيماءات، ونفس الثقة المدوية في الحركات.

شعرت بحنان عميق نحوها، أثناء إصغائها لحديثها.

- لماذا رحلوا؟ - همست بهدوء، وهي تتكئ على الحائط.

- منحنا بناء الحلم، التماسك اللازم للتغلب على العقبات بيننا. وتمكنا في النهاية من ممارسة التوافق والاستغناء عن القادة. وفي حالات الخلاف كنا نلجأ إلى سلطة الأكبر سناً. تابعت قائلة: لا أعرف ما الذي حدث في الخارج، ولكن عندما بدأنا نلمس النجاح الذي تحقق في نشر الأسطورة، توقف الزوار عن القدوم. لقد بقينا دون إمكانية تحقيق الغرض الذي كنا نسعى جاهدين من أجله. دخلنا في أزمة. أولاً، لأن الأزواج الذين خرجوا للإنجاب لم يعودوا، ثم نزوح الباقين المؤلم واحداً تلو الآخر، ولم يتبق سوى والدك وأنا وكبار السن.

- لكن هذا لا يفسر سبب رحيلهم... - أكدت ميليساندرا بهدوء وهي تعاود جلوسها ثانية.

- لا أعرف، ميليساندرا. صدقاً لا أعرف -استندت الأم إلى الأريكة

وواصلت الحديث بعينين مغمضتين- في أكثر من مناسبة وأثناء اجتماعاتنا، كان البعض يشكك في الغرض من الحفاظ على حلم لم يكن يبحث عنه أحد، ولا يبدو أن أحداً مهتماً به.

- إنهم أبناء إسبادا -تمتمت ميليساندرا- أخذوا على عاتقهم إرباك كل مَن يبحث عن واسلالا.

- كان يجب أن نكون أكثر وضوحاً بشأن مفهوم الحفاظ على ما هو مثالي من أجل المثل الأعلى نفسه، والوثوق في فائدته المحتملة -نهضت الأم، وملأت الكؤوس بالماء. استعادت طاقتها- أولئك الذين غادروا كانوا يصرون على ديمومة العلاقة بالواقع. تخلوا عن الإيمان بصلاحية عزلتنا. لستُ في صدد إلقاء اللائمة عليهم، إذ تم تشجيع الكثيرين بمشاعر سخية. لقد أرادوا العثور على هدف يتجاوز تحقيق ذاتهم... لم يستوعبوه.

- أنا أيضاً فكرتُ بالأمر ذاته - علقت ميليساندرا.

- لقد اعتدنا على النظر إلى التنمية من منظور التناقضات والحقائق المُستبعدة، وتجاهل المثل الأعلى إذا كان غير قابل للتحقيق، أو تُنسب إليه أوهام ضارة، أو كان مثيراً للسخرية أو في أحسن حالاته، ارتيابياً. ماذا سيحدث إن تم تغيير هذا المنظور؟ ماذا يجري لو تم اعتبار المثالي والواقعي، قيماً لابد منها في ديناميكية لا متناهية في نقاط الالتقاء والاختلاف؟ ماذا يحدث إذا آمن الإنسان بضرورة وجود أحدهما من أجل الحركة التصاعدية للآخر؟ لماذا تدحض المثالية، ميليساندرا؟ لماذا تُهمل القيمة التي تمتلكها الأحلام؟ لقد بنت البشرية نفسها من خلال البحث عن الأحلام. في خضم التوتر الدائم بين ما يمكن أن يكون وما هو كائن، يكمن النمو. إن سبب استمرار وجودي هنا هو اعتقادي أن واسلالا، على اعتبارها أسطورة، وطموحاً، تبرر وجودها. علاوة على ذلك، أرى أنه من الضروري أن تكون موجودة، وأن تعاود وجودها، وأن تستمر في خلق الأساطير. إن أعظم شيء في واسلالا هو قدرتنا على تخيلها، وأن الخيال هو الذي جعلها تواصل كينونتها، في نهاية المطاف. وعلى الرغم من أننا بقينا وحيدين، فإنه علينا أن نستمر في الحفاظ على واسلالات الخيال، لأن تخيل الواقع لا يقل أهمية عن بنائه.

– لم ينس الناس واسلالا قط –ابتسمت ميليساندرا في وجهها، متأثرة– سيُسعدك أن تعرفي أنهم لم يتخلوا عن إصرارهم على شروعي في الرحلة. إنهم ينتظرونني. يأملون أن أحمل لهم أخباراً من هنا. من الغريب حقاً، أن يكون لدينا نحن النساء وكذلك الرجال، ذلك الحنين العتيق إلى الأماكن السحرية والمثالية... رغم كل ما حدث –أضافت– ورغم التاريخ الطويل من الإخفاقات.

اقتربت الأم.

– إنها الذاكرة، ميليساندرا. نعتقد دائماً أن الذاكرة يجب أن تشير إلى الماضي، لكني على إيمان راسخ بأن هناك ذاكرة للمستقبل أيضاً، إننا نحمل أيضاً ذكرى لما يمكن أن يصير. لقد اخترعنا، رجالاً ونساءً، رحلة البحث عن تلك الذكرى المُنزلِقة. لهذا السبب ثمة حاجة لا تُشبع إلى أماكن مثل واسلالا، ولهذا السبب نفسه، بقيتُ أنا ووالدك هنا في انتظار اليوم الذي سيتم فيه إعادة توطين واسلالا، مقتنعين، رغم كل الاحتمالات، بأن ذلك اليوم لابد قادم. ربما يكون قد وصل الآن، وربما هو نداؤك وإرثك.

– وماذا عن أولئك الذين ينتظرونني؟ ماذا يجب، برأيك، أن أقول لمن ينتظرني؟

– واسلالا موجودة، والمثالية موجودة. إن أحلامهم هي ما جعل وجود واسلالا حقيقة. تطلعاتهم جعلتها حية وستظل كذلك. لكن فاغواس يجب أن تكون فاغواس، لابد أن تصل إلى طريقها الخاص. يجب على الواقع والمثالية أن ينيرا بعضهما درب بعض، وأن يسعيا معاً حتى يلتقيا ذات يوم. لنخلد إلى النوم يا طفلتي –قالت وهي تقبل رأسها وتنظر من النافذة– الفجر وشيك.

كانت ميليساندرا على وشك أن تغفو مأخوذة بدفء والدتها، عندما انتصبت فجأة في السرير.

– ماذا حدث يا ابنتي؟ ما الذي أفزعكِ؟

– أنا أعرف –قالت– أعرف من يمكنه إعادة توطين واسلالا.

– ستخبرينني عنه غداً –ابتسمت الأم– عليك أن تنامي الآن.

الفصل الخمسون

استيقظت ميليساندرا وقت الظهيرة. كان عليها أن تنام جيداً -الطفلة أخيراً بين أحضان أمها، تتمتع بدفء المرأة القوية الرائعة التي كانت تشعر فعلاً بالفخر إزاء أحلامها وشغفها الذي لا يتزعزع، ولم يتمكن الكبرياء من محو غيابها- لكنها لم تنم سوى بضع ساعات، أما بقية الوقت، فأمضته بين النوم واليقظة، وأحياناً في تأمل وجه أمها -نسخة من وجهها: النضج الجميل، والشعر الأحمر الذي صار أشقر بسبب كثرة الشيب- أما الوقت المتبقي، فقد قضته في النسج والحياكة، وتخيل سيناريوهات واحتمالات لا حصر لها.

كان المنطق بسيطاً. لم تكتشف في داخلها شيئاً يناقضها: كان سبب وجود واسلالا هو واسلالا، المدينة الفاضلة، والمكان الذي لم يكن ولا يمكن أن يكون الزمان والمكان المعتادين، بل شيء آخر، ربما هو المختبر، أو الضوء، أو المثالي الدائب الحركة، المأهول والمهجور الذي أُستوطِن من جديد، وربما المكان الذي تم الإيمان به والتخلي عنه ثم الإيمان به من جديد. ثمة مَن يمتلك وظيفة الحلم، وإنشاء ذاكرة للمستقبل، وآخرون يتأثرون، ببساطة، بالواقع، ويقاتلون شياطينهم، وينضوون ضمن المخلوقات المتقلبة والضعيفة المُعرّضة للخطأ، والذين ترافقهم أحلامهم أينما حلّوا، أبطالاً في غير زمانهم. أعظم بطولاتهم تتمثل في المجازفة مرة بعد أخرى لتمرير الحلم وإعادة المحاولة، رغم أنه قد يكون عابراً وينتهي في فراق آخر. وهل يستطيع المرء أن يعيش بطريقة أخرى؟

- ميليساندرا! - نادتها أمها من الطابق السفلي.

ارتدت ملابسها. كانت مائدة الإفطار تنتظرها في غرفة الطعام: بيض وتورتيلا وقهوة. رأت والدتها إلى جانب الجدول تقطف الزنابق. جلست على الطاولة وهي بمزاج جيد.

– أيقظتكِ لأن أمامنا الكثير لنقوم به – قالت الأم أثناء دخولها.

قبلتها على خدها قبلة سريعة ثم أخذت تغير زهور الأصص.

«إنها جانبي العملي»، فكرت ميليساندرا مُبتسمة.

تجولت الأم والابنة في واسلالا من طرف إلى آخر، مستمتعتين بالاكتشاف المُتبادل، تقصان بعضهما على بعض اللحظات العظيمة في حياتهما، وتقارنان أوجه التشابه بينهما. كانتا تضحكان على العادات الغريبة المشتركة، ونقاط الضعف والقوة لدى كل منهما، وقصص الجد السعيدة منها والحزينة، ووفاة الجدة، جرة الفرشاة لملء الفراغات، والأسئلة النسائية التي تطرحها كل منهما على الأخرى في وحدتهما. كلمتها ميليساندرا عن رافائيل.

– لا تتركيه يذهب. قرري بنفسك عنه. الرجال لا يعرفون كيف يحسمون هذا النوع من القرارات.

ابتسمت ميليساندرا، وهي ترنو إلى الحدائق.

– هل هناك مَن يساعدك هنا؟ استفهمت.

– يأتي المزارعون من المناطق المجاورة ثلاث مرات في الأسبوع. نحن نعمل معاً، ويُحضرون لي المتطلبات عندما ينزلون إلى لاس لوثيس.

– إذن يدخلون ويخرجون دون صعوبة؟

– أُغلق المدخل منذ زمن طويل، ولا نعرف السبب، لكنهم عادة ما يعبرون إلى هنا دون مشاكل –أعادت عليها– لم يكن الأمر صعباً. السر محفوظ بصورة جيدة، ولم تكن واسلالا عصية على الدخول. المسألة تكمن في عدم النسيان، وتذكر العلامات، وتوقع نوع من الهواء وصدى معينين.

– مثل رؤية عمق الغابة عبر المياه – همست ميليساندرا، ثم انتقلت إلى وصف ما عاشته بالتفصيل. أبدت لها الوالدة بعض الملاحظات الرئيسية.

كان الصدى يتحول، ولا يظهر في المكان ذاته في كل مرة، بل في محيط يمكن التنبؤ به.

وهما تسيران في الضواحي، اقتربتا من المنطقة الصناعية: مخازن خشبية، بعضها مغلق، وبعضها مفتوح.

أوضحت الأم أن الاكتفاء الذاتي كان الهدف الذي سعى إليه الاقتصاد في واسلالا، إذ تم الاستعداد لاستنباط قائمة من السلع الأساسية، لتفادي الاعتماد على العالم الخارجي عدا بعض المكونات التي من شأنها أن تكون أساساً للمعدات البدائية الفعالة. وحظي المخترعون بتقدير كبير من المجتمع. كان أحدهم ميكانيكي سيارات، أطلق العنان لإبداعه هنا.

– كان آخر مَن مات من الرجال المسنين. أفتقده مثلما أفتقد والدك. كان متحدثاً رائعاً... كانت تلك الأشهر متفردة جداً... –تابعت الأم كلامها، وهي تطرد حزنها مثل حشرة مزعجة– ربما كان الحوار هو الفن الذي ازدهر بقوة في واسلالا. كانوا يستمتعون كثيراً بالإصغاء بعضهم إلى بعض. وخُصص وقت للرقص في أيام السبت، لإعطاء أوقات الفراغ أهمية كبيرة، لأنهم كانوا يعملون من شروق الشمس إلى غروبها. وكُلف كل شخص بمسؤولية، رغم أن الملكية مشتركة، كما أنشأنا نظاماً للمكافآت. مَن ينتج أكثر مما يحتاج، يمتلك حق الخيار في الاحتفاظ به أو استبداله.

أرتها الأم البساتين، والمزارع، ونظام طواحين الهواء المخصص للري، والمحرك الذي يعتمد على الطاقة الشمسية لتزويد الطاقة الكهربائية، والقسم الصناعي بمخازنه القائمة على استثمار الأشجار في إنتاج الورق والقماش والألواح التي تستخدم في الأبنية، والأفران ذات الآليات المتطورة التي يستحيل إعادة إنتاجها، والتي تمكنوا بفضلها من إنتاج المعادن، وتحويل ذهب قاع النهر إلى أدوات وصنع الزجاج من الرمل. أكدت أن كل ما ذكرته كان يُقام بأساليب بدائية تماماً، مُستمدة من العصور الوسطى المضيئة، مع بعض التكنولوجيا العرضية، التي تضاعف الاحتمالات. وهناك مجموعة متنوعة من الأشياء التي كانت تعمل عن طريق الأجهزة والحبال.

أخذتها إلى المقبرة، وإلى قبور الشعراء، وإخوانها، وسكان واسلالا الذين روت لها قصصهم. ودبت الحياة في كل الوجوه الغامضة التي لن تراها ميليساندرا أبداً.

ومن أعلى «تل الموتى» الذي منه يُرى الوادي الصغير، أشارت والدتها إلى موقع قُطَع الأشجار المُثمرة، التي كانت عبارة عن حقول ذرة، ومراع، وأعشاب، ومطاط. حين أُعيد توطين واسلالا، استيقظت الأرض من سباتها مرة ثانية، وتم تنشيط ما كان قد سقط في كنف الإهمال.

أخبرتها ميليساندرا عن تيمبو، وعن الفيلينا التي ربما تكون قد أُحرقت. قالت لها إن سكان تيمبو قادرون على إعادة توطين واسلالا. لم يكن لديهم أطفال، وأن قرارهم بعدم الإنجاب، وزرع المحبة في كل مَن يحتاج إلى الحب، دون أية نية في التملك، جعلهم يتميزون بصفة جديدة وقيمة، ربما يُكتب لها الازدهار في واسلالا بعيداً عمّا كانوا يتخيلونه حتى الآن.

– كان يجب اقتراح ذلك. أظن أن الفكرة ستعجبهم.

وسارتا عائدتين إلى المنزل بجانب الجدول. كانت الأم تنظر إلى الأرض ساهمة.

– لكن يا ميليساندرا –تحدثت بعد صمت طويل– ألا تودين البقاء في واسلالا؟ يمكننا القيام بأشياء كثيرة معاً... – نظرت إليها بقلق.

– مؤكد أنني سأعود يا أمي –«وأخيراً»، فكرت، «وأخيراً استطعت أن أناديها، أمي» وتابعت تقول– سأعود لأزورك مرة أخرى، لكن لا يمكنني البقاء. لقد قلتها بنفسك البارحة... قلتِ شيئاً أعجبني حول التوتر بين ما يمكن أن يكون وما هو كائن. أريد، ما يمكن أن يكون. ثينيريا، والنهر، ولاس لوثيس وعالمنا الآخر الوليد، والتقرير. لم أشعر بالسعادة مثلما شعرتُ بها في الأيام التي قضيتها في ثينيريا بعد الانفجار، رغم المأساة التي كانت تحيط بنا. لقد أحسستُ بفائدة وجودي، ومساهمتي، والمعنى الذي سيضفيه على حياتي. لا أستطيع البقاء هنا وأنا على علم بما يحدث هناك.

وصلتا إلى المنزل عند المساء، تماماً في الوقت الذي كان يهبط فيه ضياء الشفق.

أخذتها الأم من يدها وقادتها إلى الغرفة. بدأت تُخرج، من صندوق خشبي كان تحت سريرها، كتباً وأوراقاً، صفحاتها مكتوبة بحرف صغير واضح.

– ميليساندرا، لديك هنا تاريخ واسلالا. كتبه الشعراء ووالدك وأنا. ولديك هنا سرد مفصل لما فعلناه، وكيف فعلناه، بما فيه أخطاؤنا، ونجاحاتنا، وكيف كانت التجربة. ستجدين هنا المخططات التي منها انطلقنا للبناء، وقصصاً، وقصائد، وروايات، ومقالات مكتوبة ورسومات... إنها لك، من فاغواس.

الفصل الواحد والخمسون

في اليوم التالي، رافقتها والدتها إلى «ممر الرياح». سارا معاً يحدوهما هواء خفيف ودافئ. فكرت ميليساندرا أن مغادرتها ستُؤلمها، وأنها سوف تفتقد الحنان العميق الذي تشعر به معها، والنظرة الدؤوبة التي تلاحقها بها منذ ظهيرة أول يوم، وهي تتطلع إلى أصغر إيماءاتها بشغف وتخزنها مثل حطب، لشتاء طويل. ربما ستنبجس بعد ذلك، أسئلة عن والدتها، لم يتم الإفصاح عنها بعد، لكنها ستغادر عارية من أية شكوك هاجمتها على نحو غير متوقع: إنه يحبني، ولا يحب فيّ الطفلة التي نزعت جلد الطفولة. لا، لن تعاني بعد الآن من حسرة عدم الحب. قد ينتفي الغياب والفراغ، ولكنه سيكون منذ الآن مغذياً ليمتص صدمة احتكاك هؤلاء على قلبها.

نظرت إلى المرأة التي تمشي إلى جوارها بثبات ودون عجلة. نظرت إليها بامتنان لعدم محاولتها تسطير تفسيرات ولا القيام بأدنى محاولة لذلك لأنها كانت تفهمها. لم تقل لها: «ابنتي، هذا هو تبريري، ها أنا أبرّئ نفسي، لهذا أرجو أن تسامحيني». ذكرت التوأم وتحدثت عنهما مرتين وتوقفت. لم تخبرها عن درجة إعاقتهما، ولا الرعاية التي كانا يحتاجانها، لتبرر نفسها أمامها. لم تذكر سبب عدم خروجها للبحث عنها بعد وفاتهما. كانت ميليساندرا هي التي ملأت الفراغات، وتخيلتها تعتني بالمسنين وبأبيها.

لم تعتمد والدتها على الذرائع، ولم تدعِ المودة أو الاهتمام، ولم تضق ذرعاً بوجودها، ولا بتمسكها بالحياة كجدلية مفروغ منها، فعلت ذلك كله حتى تعترف الابنة بالعطايا وتعذرها. تصرفت بكرامة مطلقة، وتحملت مسؤولية أفعالها والنتائج بثبات. كانت ميليساندرا التي تراها الآن، هي ذاتها

التي لم تستعن بالكثير من الخيال لقياس الأوجاع، والألم، والثمن الذي اضطرت أن تدفعه مقابل خياراتها.

تركتها الأم حرة من أجل الحب أو اللاحب.

كانت تحترمها ليس كابنة فقط، بل كامرأة تحترم امرأة أخرى وتقر بتفاهة المواساة، والعزلة التي لا مفر منها، لأن ميليساندرا ستكون وحدها، في آخر المطاف، مَن تطلق حكمها على ذلك، وما سيحدث لاحقاً، حين تتأمل الأم بصمتها الداخلية، وحين تستطيع أن تناظر تلك الصورة مع ألمها وحبها.

– أنا أثق بك يا ابنتي –قالت وهي تودعها– واثق في حكمتك ومخيلتك لمصلحة واسلالا.

لقد عهدت إليها بواسلالا على نحو قاطع ورسمي، مثلما يفعل المرء في لحظات احتضاره، حين يوكّل أحب الناس إليه وأقربهم منه، في أن يحافظ ويفتدي بنفسه مشروعاً مقدساً عظيماً.

– أخبري جدك أنني أحبه وأشتاق إليه. قولي له إن صهره مات بسلام.

اخترقت ميليساندرا الانعكاس. شعرت بالحرارة الرطبة مرة أخرى. لم تلتفت، إلاّ بعد أن مشت عدة خطوات. حين فعلت ذلك، وجدت نفسها أمام منظر طبيعي كأنها تكتشفه تواً. انتابتها لحظات من القلق، والرغبة في العودة والتحقق من قدرتها على العثور على الطريق من جديد، لكنها تراجعت. «سأجده»، قالت مع نفسها. لم تشك بأنها قادرة على إيجاده. استأنفت المسير. قفز الببغاء من كتفها، طائراً في قفزات. استقر فجأة على فرع شجرة منخفضة وبدأ يعوي مثل ذئب. ابتسمت من خلال دموعها. قالت: «كم ذرفتُ دموعاً وكم بكيت في هذه الأيام». أصغت إلى صوت رافائيل من البعيد حزيناً، وهو يصرخ باسمها. شرعت ميليساندرا تجري.

الخاتمة

التقط رافائيل صوراً كثيرة للتجمع الجماهيري الذي أعلنت فيه ميليساندرا، أثناء اعتلائها منصة مؤقتة وسط ساحة مكب نفايات إنغراثيا، أن واسلالا موجودة، وقام ببثها إلى العديد من المحطات التلفزيونية حول العالم. قالت إن بحوزتها جميع الوثائق وسجلات واسلالا التي تثبت ذلك.

لم ينس هو ، ولا أولئك الذين حضروا المشهد غير العادي، الفتاة التي سُلطت عليها أنوار المراكب القديمة وأضواء الملعب، وهي تتحدث بشغف عن ذلك المكان المجهول السعيد، بينما تتراكم حولها في حالة من الفوضى، نفايات المدن الكبيرة التي ابتكرها الإنسان في رحلة بحث دائمة عن سعادة مراوغة وعابرة.

بدأ الزوار من جميع أنحاء العالم بالوصول إلى فاغواس، والغور في مناظرها الطبيعية، بحثاً عن واسلالا. نجح ماكلوفيو، الذي كان مجتهداً باستمرار، في تحقيق نشاط تجاري مزدهر، إذ قام ببيع المواد القديمة المتروكة التي عُبئت في صناديق مطلية من قبل فتيان إنغراثيا الناجين، في نيويورك ولندن وبكين باسم «هدايا واسلالا": أعادت القمامة المُزينة إلى مكانها الأصلي.

وبدأت عائلات تيمبو تعبر «ممر الرياح»، واحدة تلو الأخرى.

مكثت ميليساندرا ورافائيل في ثينيريا، فيما واصل دون خوسيه الذي أصبح عجوزاً، رحلاته في النهر. أما مرسيدس وخواكين، فبقيا يديران المزرعة.

جميع الشخصيات في هذه القصة، مثلنا تماماً، يعثرون على واسلالا من وقت إلى آخر، ثم يعودون لفقدانها من جديد.

أيلول 1990 – كانون الأول 1997

المراجعة والخاتمة: **2005**

ملاحظتا المؤلفة

الشخصيات في كل رواية، هي مزيج من الواقع والخيال. في هذه الرواية على وجه الخصوص، ثمة شخصيتان واقعيتان: دون خوسيه وزوجته السيدة ماريا: كائنان غير عاديين عاشا حياتهما إلى جوار نهر سان خوان في نيكاراغوا: خوسيه كورونيل أورتيشو وماريا كاوتث.

لم يكن واحداً من أعظم شعراء نيكاراغوا فحسب، بل كان ساحر الكلمة أيضاً ومُحاوراً رائعاً، ولكنه قبل كل شيء كان معلماً لأجيال من كتّاب نيكاراغوا، الذين يدينون له ديوناً لا يمكن سدادها. كانت زوجته ماريا تدير مزرعة «النسائم» بشكل فعال بلا منازع، بينما كرس زوجها نفسه لمهنة الأدب.

ماتا كلاهما. هو قضى نحبه بعد سنوات قليلة من وفاتها. يرقدان في قبر بسيط بالقرب من النهر.

بدأتُ بكتابة هذه الرواية بعد وفاتها. تمكن دون خوسيه، أو الشاعر كورونيل، كما نناديه في نيكاراغوا، من قراءة فصولها الأولى.

بالنسبة لي، كلاهما حيّان وسيظلان على قيد الحياة.

أردت أن أحيي ذكراهما في هذا الكتاب.

تستند حادثة التلوث الإشعاعي في مكب نفايات إنغراثيا إلى واقعة حقيقية في مدينة غويانيا البرازيلية، في أيلول 1987، حين عثر اثنان من جامعي القمامة على أنبوب معدني، «وباعوه إلى تاجر خردة، الذي فتحه بالمطرقة على أمل بيعه لحاويات الرصاص. وجد بداخله مسحوقاً زاهياً أزرق اللون يتوهج في الظلام. وقد أهدى إلى أصدقائه وأقاربه أكواباً صغيرة

مليئة بالبودرة، بعد أن فُتن بهذا الاكتشاف الجديد. في عيد ميلاد إحدى الطفلات البالغة من العمر ست سنوات، وضعوا المسحوق على طاولة غرفة الطعام وأطفأوا الأنوار»، (جيمس بروك. نيويورك تايمز. «السياحة تتبع من النفايات السامة»، 3 أيار، 1995، أ 6).

يذكر إدواردو غاليانو، واصفاً الحدث في كتابه «كلمات تريد أن تنسى النسيان»: «وتوهجت في الليل، المادة التي تعمل على تشويه الجلد، لدرجة صار الحي كله، مصباحاً. وأُحتُفل بالرجل الفقير، الذي أصبح غنياً فجأة بالضوء».

كان المسحوق الأزرق عبارة عن مادة سيزيوم مشعة 137. تلوث 129 شخصاً، تم نقل 20 منهم إلى المستشفى بسبب الحروق، والقيء وتأثيرات إشعاعية أخرى. وعلى أثر ذلك مات سبعة، من بينهم «ليدي» طفلة عيد الميلاد، التي كانت قبل وفاتها بفترة وجيزة، تبث الكثير من الإشعاع لدرجة خشي الأطباء أن يقتربوا من دمها أو بولها.

كان هذا أسوأ حادث نووي في الأمريكتين، بعد مرور عام من كارثة تشيرنوبيل، ولكن كما يقول إدواردو: «يتردد صدى تشيرنوبيل كل يوم في آذان العالم، أما غويانيا، فلا أحد يتذكرها، وظلت مدفونة في غياهب النسيان، لأن أبناء أمريكا اللاتينية محكوم عليها بالنسيان».







"المدينة الفاضلة"، أفق بعيد يتشبث به الحالمون ويتشدق به الموجوعون الذين لا يجدون ملجأ يهربون إليه سواها، حلم ناءٍ وسعادة متخيلة.

لم يعثر عليها أحد لا في الخارج ولا في أعماقه، رغم انشغال الكثيرين بها.

هل هي مفردة اخترعها المتسلطون وبثوها في أذهان الفقراء، أملاً في مكان خالٍ من الآلام والمشاكل؟

في هذه الرواية توظف الكاتبة جيوكندا بيلي هذه المفردة الحالمة في فصول عميقة تُشعل فيها سعير إبداعها، وتترك القارئ النبيه يقرر ما إذا كانت هذه المدينة الفاضلة، نبوءة المساكين، أم حلم العابرين!

المترجم



لوحة الغلاف : الفنان هنري روسو